دعوة الحق

الفكر الإسلامي والواقع المغربي

شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
(مديرية الشؤون الإسلامية)
بالمملكة المغربية

المغرب الحديث:

الاختيار الدبلوماسي المغربي

موقف الإسلام من التنمية الاقتصادية

الدعوة إلى عقيدتنا

ضرورة ملحة وواجب مقدس

الإسلام طوق النجاة من طوفان الانحراف المعاصر

ملامح من تطور المغرب العربي

في بدايات العصور الحديثة

العدد السادس - السنة 14 - رجب 1397 - يوليوز 1977 - ثمن العدد: 3 دراهم

دعوة الحق

مجلة تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
(مديرية الشؤون الإسلامية)
بالمملكة المغربية
الرباط

العدد السادس
السنة الثامنة عشرة
رجب 1397
يوليوز 1977
ثمن العدد 3 دراهم

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :

مجلة « دعوة الحق » ــ مديرية الشؤون الاسلامية
ص ب : 375 ــ الرباط ــ المغرب
الهاتف : 85،235 ــ 30،338

الاشتراك العادي عن سنة 30 درهما ، والشرق 100 درهم فأكثر .

السنة عشرة أعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :

مجلة « دعوة الحق » رقم الحساب البريدي 55 . 485 الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485-55 à Rabat

أو تبعث رأسا في حوالة بالعنوان أعلاه :

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

فهرس

العدد السادس السنة الثامنة عشرة

صفحة

الافتتاحية

7	الفكر الاسلامي والواقع المغربي	دعوة الحق
11	البسملة والاستغفار	محمد العربي الخطابي
16	الدعوة الى مبادئنا ضرورة ملحة	محمد العربي الوكاري
22	المفهوم الحضاري للعمل	
26	اضواء على عظمة سيدي محمد الخامس	د. عثمان عثمان اسماعيل
32	مدخل الى الظاهرة القرآنية (2)	محمود محمد شاكر
41	مدخل الى موضوع احمد المنجور الدغيي	عبد الله الصادق العافية
47	لو عاد العرب الى الاسلام	د. عبد السلام الهراس
50	الاختيار الديكوماسي المغربي	زمن العابدين التائي
60	ابو الفضل يوسف ابن النحوي المغربي	عبد الله الجراري
63	الشاعر الوزير محمد بن موسى (2)	محمد المنتصر الريسوني
69	بين القيادة والتدين	محمود شيت خطاب
76	موقف الاسلام من التنمية الاقتصادية	د. ابراهيم عبوقي أباظة
79	نظرات اسلامية في الثروة في سفر التكوين	صلاح الدين ادلبي
83	اهمية الجانب التربوي في علاج الادمان	محمد عبد العزيز الدباغ
89	اضطهاد الشباب	محمد حمادي العزيز
92	كتاب الزواجر والعظات لفخر الدين الخطيب	د. محمد كمال شبانة
97	الدولة السعدية من خلال كتاب زهرة البساتين	احمد سوكاري
103	في التشبيب	عبد القادر القادري
107	تربية الشباب في الاسلام	محمد بن محمد العلمي
117	الدعوة الاسلامية	محمد بن علي الكتاني
120	خير الدين التركي المجاهد الاديب الدبلوماسي	محمد بن احمد اشماعو
125	مأساة الخلافة بتلمسان	عبد الحق المريني
127	قبلة تربة ضمخت بعبراتي	احمد عبد السلام البقالي
131	نظرية الموسيقى بين الفارابي وابن سينا	محمد بن احمد اشماعو
139	الاسلام يرعى التربية	بكر فوتي
142	الوجدانيات	عبد القادر زمامة

ديوان المجلة :

146	عبرة الهدى	عز بهاء الدين الامبري
153	رثاء الاقربين	وجيه لمعي صلاح
156	جنا نحبي هبة	الحاج احمد بنشقرون
159	وصال الاشواق	المجد بن محمد العلمي
162	عالم الارواح	محمد الوكيلي
165	صوت الامانة	العدلي الخمسراوي
167	شهريات العالم الاسلامي	دعوة الحق
169	شهريات الفكر والثقافة	دعوة الحق

اللهم ألهمني التوفيق والسداد ، واسلك بي مسالك الهدى والرشاد ، وكن لي معينا ونصيراً ومؤيداً وظهيراً وشدّ أزري ، واشرح لي صدري ، ويسّر لي أمري لاذكرك كثيراً ، وأشكرك كثيراً ، إنك كنتَ بي بصيراً ، وأدم عليّ وعلى شعبي نعمةَ ما بَيني وبينه من تماسُك وانسجام وتعاطف ووئام وولاء ووفاء وإخلاص وصفاء ..

اللهم كما أعطيتني في الماضي ، وكما أعطيتني جنوداً أشاوس ، وأبطالا ورجالاً ونساء ، اللهم اعطِ لهذا البلد إلى أن ترث الأرض ومن عليها من يقوم مقامنا جميعاً للنضال عنها ، والدفاع عن حوزتها ، والأخذ بمصالحها والرعاية لأمانتها ،

اللهم انك زرعت في قلوبنا حب الوطن فازرعه في أبنائنا وابناء ابنائنا وأحفادنا ..

إنك سميع مجيب وللدعاء قريب .

جلالة الحسن الثاني

أبتاه

إنك لم تكن ملكاً كالملوك، انك لم تكن تحمي العرش بالشعب وتستغل المواطنين والوطن من أجل الولاية والسلطان. بل كنت تفدي الشعب بعرشك وتناضل عن الوطن بنفسك وكنت لا تنال الراحة والمتعة لشخصك ولا تسعى في المصالح الرخيصة لأفلاذ كبدك والمقربين من أسرتك وانما كان شعارك الدائم هو شعار جدك يوم الموقف الأعظم: "اللهم اني لا أسألك نفسي ولا فاطمة ابنتي وانما أسألك أمتي أمتي أمتي!"

جلالة الحسن الثاني

تهنئة

بمناسبة عيد الشباب الذي يخلد ذكرى ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، تتشرف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وأسرة تحرير مجلة "دعوة الحق" بأن تتقدم بأحر التهاني وأجمل الأماني إلى سيد البلاد أمير المومنين وحامي حمى الوطن والدين الملك الحسن الثاني رمز عزتنا وضامن وحدتنا ورائد نهضتنا، وإلى ولي عهده المحبوب الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه السعيد الأمير مولاي رشيد، وكافة أفراد الأسرة المالكة الشريفة، سائلة الله جلت قدرته أن يحفظ مولانا الإمام ويسدد خطاه، ويعينه على تحقيق آمال شعبه الوفي المؤمن في التقدم والازدهار والرخاء.

« اننـــا لنحمـــد اللـــه ونهنـــىء انفسنـــا على هـــذه الرابطـــة المتينة التي تجمع العرش والشعب فى بلادنـــا والتى هى بمر نجاحاً فى أعمالنا وعيشنا فى بحبوحة الحرية والديمقراطية ، فاننا اذا نظرنـــا حوالينا ورأينا المشاكل التى تتخبط فيها دول كانت فى حال مثـل حالنا ، علمنا اي فضل يرجع الى نظامنا الملكي المستد بقوة الشعب وتأيـيده والذى يستمد مقوماته من اقدس معتقداتنا واعرق تقاليدنا واخص صفاتنا وطباعنا والذى هو وحده الكفيل بانجاح مشاريعنا ومخططاتنا وتحقيق جميع ما نصبو اليه من تقدم ورقـــي .

جلالة الملك الحسن الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية :

الفكر الإسلامي والواقع المغربي

● ليس من الانصاف في شيء التنكر للتجربة المتميزة التي يمر بها المغرب منذ حصوله على استقلاله سنة 1955 . فجميع الدول التي استقلت حديثا في افريقيا مالت في اختياراتها الايديولوجية والسياسية والاقتصادية ذات اليمين او ذات اليسار ، وانحازت في فترة من الفترات ، الى احدى القوتين العظميين اللتين تسعيان للسيطرة على شعوب العالم الثالث . ولا يهمنا ان بعض هذه الدول تراجعت أخيرا واعتدلت في سياستها وانقلبت احيانا ضد من كانوا بالامس يتحكمون في كل كبيرة وصغيرة من شؤونها ، ولكن الامر الذي يعنينا ان المغرب وحده من بين الدول الافريقية حافظ على توازنه الفكري وموقعه الحضاري المتميز دون ان يميل لحظة واحدة نحو اتجاه مناهض لارادته ومعاكس لتيار الوعي الوطني المؤمن . وقد كلف المغرب هذا الصمود الشاق العنيف تجارب مريرة عرف كيف يتجاوزها ويستفيد منها ويخرج من اتونها اصلب عودا واقوى ارادة وارسخ قاعدة .

كان امام المغرب غداة الاستقلال اختياران اثنان باعتباره عضوا في مجموعة العالم الثالث :

اولا : الاختيار الراسمالي

ثانيا : الاختيار الاشتراكي .

وكان الاختيار الاول يمثل امتدادا عضويا للاستعمار الذي رحل بلا عودة وطمع في ان يخلف وراءه ركائزه . وقد راينا كيف ان الدول التي استقلت في الخمسينات والستينات وظلت مرتبطة فكريا ووجدانيا

بالاستعمار قد جنت على نفسها ودخلت في سلسلة متلاحقة من الانتكاسات والانهزامات وتجارب الفشل والاحباط والضياع السياسي المشين .

وكان الاختيار الثاني يخدع المتحمسين ـ الذين يلفون عقولهم ويفكرون بحناجرهم ـ ببريقه الكاذب ولمعانه المزيف . ولم يكن في واقع الامر الا دورة جديدة من الاحتلال الاجنبي . ورفض المغرب ان يخرج من عهد استعماري ليدخل عهدا استعماريا جديدا بمحض ارادته . وقد رأينا ايضا دولا افريقية ـ ومنها دول عربية اسلامية شقيقة ـ اقحمت نفسها في هذا المعترك الرهيب وعاشت سنوات طويلة تحت رحمة الارهاب والقمع والقهر والاستبداد . الى ان تداركتها أخيرا رحمة الله فآبت الى رشدها واصلحت من أمر نفسها وصححت مسيرتها . ولكن بعد ان استنزفها التيه وحطمتها التبعية الذليلة .

كان في امكان المغرب أن يركب موجة العصر ويخرج الى الساحة هاتفا بالشعارات ومتشدقا بالنظريات وملوحا باللافتات ، ويكسب بذلك ود وصداقة مصدري المذاهب ، ومستعبدي الشعوب ، ولكنه كان يدرك أن الكلام لا يبني سدودا والصياح لا يشيد مدارس ، والتهريج الرخيص لا يطعم خبزا . واثبتت الايام صحة ادراكه وسلامة حدسه بل صدق يقينه بعد ان تهاوت عروش الظلم والطاغوت وتساقطت انظمة الذل والجبروت ، وانفضحت المؤامرات الاجرامية ضد الانسان العربي المسلم في افريقيا والعالم العربي الاسلامي من محيطه الى محيطه .

● لقد تميز ربع القرن الماضي بظاهرة تاريخية لا يغفل عنها الا الذين طمس الله على قلوبهم . فاذا كان علماء الجيولوجيا يقولون بعوامل التعرية الطبيعية ويصفون عصرنا بعصر التغيرات العظمى في طبقات الارض بحيث من المحتمل أن تنقلب المناطق الصحراوية القاحلة الى اراض خصبة ، والعكس صحيح ، ـ وقد بدا هذا الانقلاب فعلا في بعض الجهات ـ فانه يمكن القول عن الدورة الحضارية الراهنة انها تتميز بما تسميه « بالتعرية الفكرية » بما يعني ذلك من تساقط الاقنعة وانكشاف الاسرار وانفضاح النوايا وتبيان الحقائق كما هي في بساطتها ونصاعتها ومنطقيتها . فاذا كانت كثير من الدول قد اغترت وانخدعت بالايديولوجيات المعادية للانسان منذ ربع قرن تقريبا ، ونالها من هذا الانخداع الشيء الكثير من التخبط والتعثر والفوضى وعدم الاستقرار ، فان المغرب بقي على صموده وتوازنه واعتداله و « وسطيته » لم يمل ، ولم يزغ ، ولم ينحرف ، ولم يشتط به الحماس اللاواعي ولم يذهب ضحية الفهم القاصر والادراك العاجز .

ان الدول التي عرفت بتحمسها المفرط للاشتراكية او ما كانت تسميه « بالاشتراكية العلمية » تتراجع تراجعا بعيد المدى الى الحد الذي يقطع كل صلة بالاختيار السابق . والدول التي اخذت بالاختيار الرأسمالي تبحث في اصالتها وتقاليدها الوطنية عن بديل تستغني به عن الفكر الرأسمالي الغربي .. وبعضها قد وصل الى نقطة الاقتناع وبعضها

الآخر لا يزال يواصل البحث عن الهوية السياسية الجديدة بينما المغرب لم يتغير ولم يعدل عن فكرة أو ايديولوجية أو اتجاه أخذ به ابان استقلاله وأيقن بعد التجربة من فشله وقصوره .. لانه لم يضعف أمام الاختيارين اللذين بدا للاشقاء والاصدقاء كحقيقتين حتميتين لا مناص من الاقتنـــاع باحداهمـــــا ..

ان الخط الذي سار عليه المغرب سنة 1955 لا يزال الى يومنا هذا الخط الفكري والحضاري الذي يسلكه :

رفض المغرب الراسمالية ولم يعاد الانظمة التي تاخذ بها ، بل مـــد اليها يده في اعتزاز وانتفع بتجاربها فيما يصح ويجـــب ـ شرعـــا ـ الانتفـــاع بـــه .

ورفض المغرب الاشتراكية ولم يدر ظهره للمعسكر الاشتراكي ، لان هذا يتعارض مع رسالته في الانفتاح والتفتح ومد قنـــوات التفاهـــم والتعايش والتعاون مع الشعوب ، واقتبس من الاشتراكية ما وجده صالحا به ، ومنسجما مع طبيعته الخاصة ، واقام علاقات نشيطة مـــع الـــدول الاشتراكية مراعيا المصلحة العليا للوطن والمواطنين ..

وفي كلتا الحالتين تحرر المغرب نهائيـــا مما يمكـــن ان نسميـــه ب « عقدة العداء » لهذا المذهب او ذاك .. لان الموقف المعادي المتعصب مدخل الى التقوقع والانعزال . وما كان المغرب قط دولة منعزلة عن تيار الحياة المتدفق ... وانما هو موقف اخذ باتزان واعتزاز وعطاء بتعقل . الامر الذي جعله دائما في منأى عن الصراعات المدمرة وادى الى فشل كل المغامرات الخائنة ، مما دعم قواعد الاستقرار وضمن الاستمرار ، وحفظ للبلاد هيبتها وسمعتها ومكانتها الرفيعة .

فما هو الاختيار المغربي اذن ؟ .

لقد اختار المغرب اصالته وانحاز بكليته الى الشعب يستلهم منـــه النظرية والمنهج واسلوب العمل ويقتبس منه الاتجاه والفكـــرة والراي . وليس لدى الشعب الا الاسلام . فمن باب تحصيل الحاصل ان يكـــون اختيار المغرب اختيارا اسلاميا محضا ، وانحيازا بالكامـــل الى عقيـــدة الشعب وقيمه ومقوماته ومقدساته .

وحتى حينما رفع المغرب شعار الاشتراكية حرص على اضفاء الصبغة الاسلامية على هذا الاختيار . فهي اذن اشتراكية نابعة من بيئتنا وليست مستوردة في الحقائب او مما يلقن لتلامذتنا وطلبتنا على مقاعد الكليات . ثم ان لفظ « الاشتراكية » هنا ليس الا مصطلحا شكليـــا اما المحتـــوى والمضمون فهو اقرب الى روح الشريعة الاسلامية منـــه الى مضاميـــن الفكـــر الوافـــد .

وليس من الحزم وحسن التدبير في شيء أن يأخذ المغرب بالاشتراكية الماركسية اللينينية ، او الاشتراكية الماوية ، فان هذا الاخذ يعني انسلاب فكري وايديولوجي يجردنا من كلّ خصائصنا ومقوماتنا ومميزاتنا . كما انه ليس من العقل في شيء نقل التجارب الرأسمالية بروحها ومحتواها الوجداني والفكري الى البيئة المغربية ، اننا قد ننقل معملا أو الخبرة التكنولوجية العالية لبناء سد او مستشفى أو تجهيز التربة او صناعة الادوية ، ولكننا غير مستعدين اطلاقا لنقتبس من الغرب او الشرق اي تصور للحياة والكون والانسان ، أو ننقل عنهما نمطا من انماط العلاقات الاجتماعية والانسانية واسلوبا من اساليب التربية والتعليم ومنهجا من مناهج الاعلام والتوعية . في هذه الحالة نفقد ذاتيتنا . اي اننا سنعود القهقرى خمسا وعشرين سنة دقيقة واحدة ونلغي من سجلنا تلك الملاحم البطولية الخالدة التي صنعها العرش والشعب من اجل الحرية والكرامة والاستقلال .

اختار المغرب اصالته . اي انه اختار اسلامه وعروبته وحضارته . ولو انه انحاز الى هذا المعسكر أو ذاك لما استطاع أن يستكمل التحرير ويمضي في الخط التحرري المستقل .

وهناك قضية اساسية نلح الحاحا على سياق الحديث . ذلك اننا لو كنا دولة رأسمالية أو اشتراكية ماركسية لما تمكنا من استرجاع الصحراء. لانه لا يعقل أن نحارب اسبانيا الرأسمالية ونحن على مذهبها ، ولا يصح ان نحبط المخطط الماركسي ونحن مؤمنون به ، ولكننا حررنا الصحراء واعدناها الى حظيرة العروبة والاسلام لاننا احرار في اختياراتنا وتفكيرنا وسياستنا ومبادراتنا .

● اخترنا الاسلام لانه على طرفي نقيض مع الرأسمالية والاشتراكية ، ولاننا ابينا الذوبان في شخصية اجنبية ، ورفضنا الانسلاخ عن مقوماتنا ، وتمسكنا بالحرية والكرامة .

« دعوة الحق »

البدء والاستمرار

للأستاذ محمد العربي الخطابي

« اقرا باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرا وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » (العلق / 1 – 5)

تتضمن هذه الآيات الخمس جملة من الحقائق المتصلة بالكون والحياة والعقيدة مثل : الله والخلق والوحي والانسان والعلم . والآيات توضح ، كما سنرى فيما بعد ، الاتصال بين الله والانسان وبين الانسان والارض التي جعله الله خليفة فيها .

ان فعل الامر « اقرا » ينطوي على حقيقتين مضمرتين في صلبه : الحقيقة الاولى هي « محمد » الذي اختاره الله للرسالة وامره بتبليغها ؛ والحقيقة الثانية هي «الوحي الالهي» ، ذلك ان ما امر الرسول بتبليغه هو كلام ربه ، فاللفظ « اقرا » يتجاوز المعنى المراد بالقراءة ، لغويا ، وهو يرتبط مبنى ومعنى بالقرآن أي بالكتاب المنزل على نبيه محمد صلوات الله عليه ، ومصدر اللفظين معا هو « القراءة » التي يراد بها ضم الحروف والكلمات بعضها الى بعض في الترتيل ، ومعنى قرا في الاصل جمع .

ان الدعوة الاسلامية قد ارتبطت بالقراءة التي تشمل تلاوة كتاب الله وتدوينه وحفظه وتدبره كما تتضمن القراءة التي تمد الانسان بالقدرة على حفظ العلم وتنميته واشاعته .

ونلاحظ في الآيتين الثالثة والرابعة من سورة العلق « اقرا وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم » ربطا بين القراءة والتعليم والقلم باعتبارها وسائل وادوات تصل الانسان بالمطلق وتجعل له في هذه الحياة غاية ورسالة ، وتعطي لوجوده معنى وقيمة .

« علم الانسان ما لم يعلم » انها ارادة الله المطلقة القاضية بتعليم الانسان ما لم يعلم ، وارادة الله هذه ، كما تعبر عنها الآية الكريمة ، غير محدودة بزمان او بنوع معين من انواع العلوم . فالفعل المضاعف « علم » يفيد البدء والاستمرار ولا يقف عند الماضي او الحاضر . فالله بدا تعليم الانسان حينما اقتضت ارادته تعالى أن يهبط آدم الى الارض « وعلم الاسماء كلها » (البقرة / 31) واستمر هذا التعليم لا ينقطع ، وهو يتم على وجهين :

اولا : بما يوحيه الله سبحانه وتعالى لانبيائه وما يبلغه هؤلاء للناس من وحي ربهم . جاء في القرآن الكريم في معرض الكلام عن داود : « وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء » (البقرة / 251) وفي الحديث عن بني اسرائيل يقول الله تعالى : « قل من

أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا انتم ولا آباؤكم ؟ قل الله » (الانعام / 91) ويقول الله تعالى في كتابه العزيز متحدثا عن خاتم رسله : « هو الذي بعث في الامين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (الجمعة / 2) .

ثانيا : بما يودعه الله في الناس من عقل وبصيرة وما يلهمهم آياه من مواظبة على التامل والتدبر في آياته ومبدعاته والسعي لاستكشاف اسرار الكون والخلائق بالبحث والنظر والتجريب والاختبار « وفي الارض آيات للموقنين ، وفي انفسكم افلا تبصرون » (الذاريات / 20 — 21) .

والعلم في حقيقته المعنوية ومظهره الكوني وسيلة تمكن الانسان من تاكيد ذاته وتحديد مكانته في كون الله الشاسع اللامتناهي ، كما انه — اي العلم — اداة عاقلة فعالة لاحكام الاتصال بين الانسان وربه عن طريق التدبر والذكر والعبادة . وعلى هذا فان العلم هو الطريق الى حسن التمييز وسلامة الاختيار وصحة الاعتقاد ، وهو يعين على ادراك الحق والعمل بمقتضاه : « ويرى الذين أوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق » (سبأ / 6) .

والقصد الدنيوي من العلم هو الانتفاع والنفع — اي الاخذ والعطاء — بما يصلح حال الفرد والجماعة ويحقق التعاون بين الناس ويمهد لهم جميعا سبل التقدم في شعاب الحياة دون استعلاء في الارض ولا فساد .

ان للانسان ان يسخر العلم لتحسين احوال الصحة والتعليم والزراعة والتجارة والصناعة والمواصلات وغيرها مما ينفع الناس مع مراعاة القصد والتوسط في كل شيء .

والله سبحانه يذكر في كتابه العزيز العلم بصفة شاملة مطلقة « علم الانسان ما لم يعلم » (العلق / 5) وهو بذلك يترك للناس مهمة التصنيف والتفريع والتخصيص والتعميم حسب انظمة ومناهج تتفق عليها مصالحهم . الا ان في كتاب الله وسنة رسوله حدودا واوامر ونواهي تقيم أصول الشريعة على اسس الهية حكيمة ثابتة لا تقبل الزيادة او النقصان الا ما كان من المسائل التي لم يرد فيها نص صريح في الكتاب او السنة فهي متروكة لاجتهاد العلماء واجماع اهل الراي من الامة .

ولا مكان لمقولة « الصدفة والحاجة » (*) في موقف الاسلام من العلم والتطور ، بل ان كل شيء يجري وفق قانون الهي محكم مضبوط « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » (الفرقان / 2) « انا كل شيء خلقناه بقدر » (القمر / 49) « ما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى » (الاحقاف / 3) وانه ضمن هذا القانون الالهي يتطور العلم وينمو ، وفي نطاقه يتحدد التقدم الانساني كله .

= * =

قلنا في أول هذا الحديث بان الآيات الاولى من سورة (العلق) توضح حقيقة الاتصال بين الله والانسان وبين الانسان والارض التي جعله الله خليفة فيها .

وبيان ذلك ان الله هو الرب الخالق ، والانسان مخلوق على غير مثال سابق « خلقه من تراب ثم قال له كن ، فيكون » (آل / 59) ، واذا كان الله سبحانه قد خلق النوع البشري من طين فان الانسان الفرد يتأصل من علقة اصلها نطفة « الذي أحسن كل شيء خلقه وبدا خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » (السجدة / 8) . والطين والعلقة والنطفة كلها أشياء تافهة الا انها تثبت العلة وتؤكد السبب ، ولا شيء في الحقيقة غير قدرة الله التي تتمثل في قوانين ثابتة تتحكم في الكون والحياة .

والله ، من حيث كونه خالقا ، هو وحده الموجود بلا بداية ولا نهاية ؛ لا يحدّه التاريخ لانه خالق التاريخ ، المسيطر على مصائره ، المتصرف في وقائعه ، المقدر لبدايته ونهايته « وهو الذي يبدا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » (الروم / 27)

(*) زعم ديموقريطس ، الفيلسوف الاغريقي المادي (460 — 370 قبل الميلاد) ، ان كل ما في الكون ناتج عن الصدفة والحاجة وتبعه في ذلك الماديون الذين ينكرون وجود خالق مدبر للكون ، ويردون كل شيء الى المادة وقوانين حركتها وتغيرها .

والانسان من حيث كونه مخلوقا ، ملزم بعبادة الله وحده « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم » (البقرة / 2) .

والعبادة بمفهوم التفكير والسعي والتعامل وفقا لارادة الله والاعتراف بوحدانيته وقدرته الشاملة المطلقة والتسليم بحكمته في صنع الكون وتدبيره . وجوهر العبادة التدبر : « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » (البقرة / 164) . ومن مقومات العبادة الذكر الذي هو حضور دائم مع الله بالقلب والجوارح ومراقبته في الفعل والقول . « واذكر اسم ربك بكرة واصيلا » (الانسان / 25) .

ويتجلى فضل الله في خلق الانسان وما خصه به من عقل وقلب وحواس ظاهرة وباطنة فجعله بذلك ممتلكا لحريه السعي والاختيار والتقرير « انا هديناه السبيل : اما شاكرا واما كفورا » (الانسان / 3) . وحسن استعمال هذه الحرية يتيح للانسان طمانينة النفس في الدنيا « فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى » (طه / 23) كما يؤدي به الى حسن الخاتمة « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » (الفجر / 27 ـ 30) .

والانسان - من حيث هو مخلوق ، ضعيف امام ربه ، وخلق الانسان ضعيفا » (النساء / 28) . والضعف فيه نشأة وتكوينا « الله الذي خلقكم من ضعف » (الروم / 54) .

الا ان ضعف الانسان ازاء ربه وافتقاره الدائم الى معونته لا يمنعانه من أن يكون قويا في علاقته بالكائنات الاخرى التي يعايشها على الارض ، ذلك ان الله حمله امانة خلافته فيها وامره بعمارتها واقامة العدل في ربوعها والتعامل فيها بالرفق والاحسان والاستقامة مع الايمان بوحدانية الله والتسليم بقدرته المطلقة . وكل تقصير او تفريط في ذلك انما يؤدي الى اختلال التوازن واضطراب الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

والانسان القوي بالله محبوب عنده على ان يضم الى قوة البدن قوة النفس التي تتجلى في صدق العزم وصحة الايمان والعمل بما تمليه شريعة الله وصون مصالح الجماعة .

ان القوة المطلوبة هي سلامة البدن والنفس والعقل التي تحقق التوازن الروحي والمادي في ذات الفرد وفي صلب الجماعة . والحاكمون مسؤولون عن توفير ظروف هذه السلامة ووسائلها ، ولا يعفى من المسؤولية أي فرد من افراد الجماعة . والظروف والوسائل التي نعنيها لا تتوفر الا بما يتخذ من تدابير اجتماعية واقتصادية وصحية يفيد منها الافراد بالعدل والسوية .

= * =

حينما نتدبر بحضور قلب الآيات الخمس الاولى من سورة العلق نجد انها تشتمل على معاني روحية تتصل بجوهر العقيدة الاسلامية والدعوة المحمدية .

ففيها معنى « الشهادة » ـ الركن الاول من اركان الاسلام ؛ ولما كانت الشهادة حضورا بالقلب والجوارح ونطقا باللسان فان الامر « اقرأ » الصادر عن الله يخاطب العقل والوجدان ، وينبه الفكر والحواس اذ يقرر منذ البداية وحدانية الله « اقرأ باسم ربك الذي خلق » ، ويبين عن علمه وقدرته وفضله ، فهو سبحانه الآمر ، وهو مصدر الوحي ، واسمه الجليل هو المقصود ، والمخاطب هو الرسول الكريم ، ومخاطبته من لدن ربه تعني اصطفاءه وتكليفه بالرسالة ، وهكذا فان فعل « اقرأ » يمد بين الله ورسوله شعاعا من نور النبوة .

وفي الآية خلاصة اسرار التوحيد الذي تنبني عليه عقيدة الاسلام : اسم الرب ، قدرته التي تتجلى في انفراده بالخلق والتدبير ، علمه المطلق وصدور كل علم عنه ، فضله وكرمه « اقرأ وربك الاكرم » .

وفي الآية ايضا تكريم للانسان ، خلقه الله فآتاه القدرة على اكتساب العلم ، وخصه بذلك دون سائر مخلوقاته .

وقد خص الله « القلم » بالذكر تكريما للانسان والعلم . فالقلم يثير في الذهن فكرة الكتابة والكتب، وهو في الآية لا يعني فحسب الاداة التي يستعان بها

على الخط والتسطير ، بل انه قد يرمز الى قدرة الانسان العاقل على تلقي العلم وتدوينه وحفظه ، وقد يشير كذلك الى موهبة التعبير عن الافكار بحروف وكلمات مكتوبة ، والا فان القلم بدون حامله (الانسان) لن يكون الا اداة جامدة ميتة . هذا ونلاحظ ان للقلم مكانة مرموقة في القرآن الكريم ، اقسم به الله سبحانه وتعالى في قوله : « ن ، والقلم وما يسطرون » (القلم / 1) وهو مذكور في القرآن بالجمع مرتين : « ولو انما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله » (لقمان/27) « وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم » (آل عمران / 24) .

= * =

وبعد ، لقد رأينا كيف اجتمعت في الآيات الخمس الاولى من سورة العلق كلمات : القراءة والتعليم والقلم ، وهي رموز واشارات لها قيمتها ودلالتها سيما وانها وردت في اولى الآيات التي تلقاها الرسول وحيا من ربه . وهذه الكلمات تحوم كلها حول الانسان وصلته بالخالق سبحانه .

وفعل الامر « اقرأ » وثيق الصلة بالقرآن الذي طبع حياة محمد واكسب شخصيته بعدا جديدا يتمثل في نور النبوة .

بهذه الكلمة « اقرأ » بدأت سيرة محمد القرآنية، ومنها انطلق في طريق الدعوة ممتثلا جادا صابرا مثابرا . وتصور آيات من القرآن الكريم هذه المرحلة من سيرة الرسول تصويرا مشرقا فتبين كيف امتزجت حياته ـ في مرحلة الدعوة ـ بالذكر الحكيم، وكيف تشربت نفسه الطاهرة كلمات ربه يهتدي بهديها ويتخلق بأوامرها ويرتلها في سره ونجواه ويدعو الناس اليها ولا يبغي بها بديلا .

فلنتأمل جميعا هذه الآيات الكريمة التي تبين لنا جانبا مشرقا من السيرة القرآنية للرسول الكريم :

« وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » (النمل / 6) .

« وكذلك أوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدي الى صراط مستقيم » (الشورى / 52) .

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، اذن لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » (العنكبوت / 48 ـ 49) .

« ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله » (آل عمران / 79) .

« واتل ما أوحي اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا » (الكهف / 27).

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم علينا بيانه » (القيامة / 18) .

« وبالحق انزلناه ، وبالحق نزل ، وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا ، وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » (الاسراء / 105 ـ 106).

« سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله ، انه يعلم الجهر وما يخفى » (الاعلى / 6 ـ 7) .

« واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا » (الاسراء / 45).

« واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على ادبارهم نفورا » (الاسراء / 46) .

« واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا او بدله . قل : ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ، ان اتبع الا ما يوحى الي ، اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله افلا تعقلون ؟ (يونس / 15 ـ 16) .

« قل ان ضللت فانما اضل على نفسي ، وان اهتديت فبما يوحي الي ربي ، انه سميع قريب » (سبأ / 50) .

« وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا »

« ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا » (الفرقان / 32 – 33) .

« ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (النجم / 17 – 18) .

« ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد، قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين. وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك » (القصص / 85 – 86) .

« اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » (المائدة / 3) .

هكذا اصطفى الله رسوله ، فجعل معجزته الكبرى كتابا مبينا منزلا من عنده ليقراه الناس ويتدبروه ويتدارسوه ، وليجعلوه بينهم امامهم . والرسول صلى الله عليه وسلم « كان خلقه القرآن » كما قالت عائشة أم المؤمنين ، به اهتدى وهدى ، وباحكامه عمل واليها دعا ، ومن أجل تعميم نوره سعى وجاهد ، وكان في سعيه وجهاده ، نوبا بربه ، مؤمنا به أعمق الايمان ، متيقنا من نصره ، رغم شدته في الحق كان صلوات الله عليه لينا حليما وفيا لاصحابه ، رؤوفا بهم ، متواضعا لله « انما انا بشر مثلكم يوحي الي انما الهكم واحد » (الكهف / 110) « قل : سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا » (الاسراء / 93) « ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك » (هود / 31) « قل ما كنت بدعا من الرسل وما ادري ما يفعل بي ولا بكم ، ان اتبع الا ما يوحى الي » (الاحقاف / 9)

لقد كانت سيرته الطاهرة من أكبر الادلة على صدق نبوته وصحة ما بلغه عن ربه . لقد كان أميا فاشاع العلم والنور في القلوب وفي جهات الارض ؛ هو الذي قرأ لربه وقرأ باسمه وقرأ عنه . وما يزال هذا الامر الكريم « اقرأ باسم ربك ... » يخاطب البشر بلغة الله ، يدعوهم الى العلم والحرية والهداية ويوجه قلوبهم وعقولهم الى الى نور الله .

الرباط : محمد العربي الخطابي

الدعوة إلى عقيدتنا

ضرورة ملحة وواجب مقدس

الإسلام طوق النجاة من طوفان الانحراف المعاصر

للأستاذ محمد العزفي الزهاري

حيرة وارتباك

تعيش المجتمعات الانسانية اليوم عيشة اضطراب وقلق ، وتحيا دول العالم حياة تطفح بالمشاكل المعقدة والأزمات المستعصية ، فالفرد فيها يسير هائما على وجهه لا يستبين طريقا ولا يهتدي سبيلا ، رغم الحضارة المادية التي تظله وما توفر له من وسائل البذخ والترف ، لانها لا تقوم على أساس صحيح ، ولا ترتكز على قاعدة متينة ، وانما تستند على مظاهر براقة وسراب خادع يقود حتما الى الحيرة والتبرم والخوف من الحاضر والمستقبل .

هذه المجتمعات المضعضعة خلقا والمهلهلة سلوكا والحائرة فكريا تشعر بالفراغ يكتنفها من كل جانب ، وتحس بأنها تسير على غير هدي ولا كتاب مبين ، فهي تعمل ولكن كالآلة الحديدية ، وتأكل كالانعام وتلهث في ميدان التصنيع والانتاج ، وتبذل طاقاتها وقدراتها الجسمية والعقلية في مجالات شتى ، الا انها تفتقر عنصرا اساسيا من عناصر الحياة المثلى ، فلا اطمئنان خاطر ، ولا راحة بال ، ولا سكون نفس ، ولا هدوء اعصاب ، وانما تجري في متاهات لا معالم تحدها ، وتلهث في صحراء مخيفة لا نهاية لها .

تسابق جنوني

ودولها في سباق منقطع النظير في ميدان التسلح ، وجنون تكنولوجي لاختراع احدث الآلات فتكا وتدميرا ، وتخريبا وتحطيما ، وابادة وتهديما ، بالاضافة الى الاضطرابات الداخلية ، والصراعات الحزبية ، والانحلال والتفسخ الذي غزا مجتمعاتها بشكل فظيع ومرعب ، والمشاكل الدولية التي يأخذ بعضها برقاب بعض ، وعواقب الضائقات الاقتصادية والتضخمات المالية والمضاربات التجارية والجرائم الاجتماعية ، ومخلفات الكوارث الطبيعية من زلازل وبراكين وفيضان وجفاف ، الى نهاية قائمة المصائب والاهوال المتعاقبة والمتلاحقة .

اشكال المجتمعات المعاصرة

فذلك الانسان الحائر يمكن تصنيفه على ثلاثة اشكال : قسم لا يهتم الا بمصالحه الخاصة والعاجلة ، فلا ينظر لغيره الا بمنظار المنفعة الذاتية والاستغلال المجرد عن كل احساس نبيل ، وقسم آخر يستغرقه مواهبه — وحتى حيله — للثراء على حساب الشعوب المغفلة التي تفتح جيوبها واسواقها لغزو اقتصادي منظم ومخطط وهادف . . . أما الفريق الآخر فقد اطلق العنان لشهواته الحسية وانغمس في بحر لجي من المتعة الجنسية والادمان على المخدرات بجميع اشكالها وانواعها ، مما ادى الى تعطيل للارادة ، وهدر للعقل ، وخبل في التفكير ، فكان من نتائج ذلك ان تكونت عصابات من الشباب المنحرف الذين اصبحوا مصدر قلق وهلع ، وتحولوا مع مرور الايام الى جرائم فاتكة ومدمرة خطيرة على الاخلاق والفضيلة وعلى امن الاسر والافراد والمجتمعات

انـــواع المـــدول المتسلطة والمتناحرة

ودول الساعة تستطيع حصر اكثريتها فى ثلاثـــة انواع ايضا : فريقها الاول تسلط على شعوبها فى ظلام الليل وغفلة من وعي تلك الشعوب ، فسامها الذلة والخسف ، واذاقها الضعة والعسف ، لا يهمه الا ان يظل حاكما مسيطرا ولو على انبلاء الاحرار والمفكرين والمثقفين والمخلصين ، والقسم الثاني يراوده حلم الاستعمار ويداعب خياله بريق استغلال خيـــرات الشعوب الضعيفة ومصادر طاقاتها المنجمية والاستيلاء على مراكز بلادها الاستراتيجية ، ولتحقيق هـــذه الاغراض والمطامع لا يابه لانين المستضعفـــين ولا يهمه شدة المعذبين ، والصنف الثالث يتناحر فى الميدان السياسى ، ويتعارك فى الحقل الديبلوماسى ويتسابق فى اعداد العدة للبطش بخصمه والتفوق الحربى على غريمه ، لا للحفاظ على السلم الدولي ولا لتوازن القوى العالمية كما يدعون زورا وبهتانا ، وانما للغلبة المطلقة والسيطرة التامة على العالم .

ســـراب خـــادع

بين هؤلاء واولئك تعيش البشرية حالة مـــن الاضطراب النفسى ، وتفتح عينها وتنام على حساب اعصاب منهوكة محطمة ، تنشد الخلاص وتترقـــب المنقذ ، وتبحث عن الدليل ، ولكنها لا تصطـــدم الا بالسراب الخادع ..

ولكى نضع اللوحة داخل اطارها ، ولتكـــون الصورة واضحة المعالم بارزة المسالك ، نقترح نشر خريطة للعالم المعاصر امامنا لنتعرف بدقة على الوضع الحقيقى الذى يعيشه انسان القرن العشرين ، ففـــى كل بقعة اضطراب ، وفى كل نقطة هيجان ، وفى كل زاوية ضائقة ، وفى كل امة محنة ، وفى كل مجمـــوع حيرة ، وفى قلب كل انسان رعب من الحاضر ، وهلع من المستقبل ، وفزع من المصير .

انسـان القرن العشرين بين المعسكرين

ولنتابع خطوط الخريطة فنشاهد من الشعوب من انحاز تلقائيا او اضطراريا الى المعسكر الشرقى ، وفيها من سار على هدى او غير هدى فى ركاب المعسكر الغربى ، فلا هذه سعدت لمذهبها ، ولا تلك ظفـــرت بمبتغاها ، بل ان كل من جرب مذاهب المعسكريـــن اصيب بخيبة امل ، وحتى لصحاب تلك المذاهب شعروا بالنكســات ، ولمسوا الثغرات ، يحاولوا الرواج فى العديد من المجالات ، واقدموا على تعديل الكثير من النظريات .

عـــواقب الالحـــاد

ونتيجة منطقية لتعدد المذاهب ، وتنوع النظريات المتعارضة والمتناحرة ، تجد الكثرة من الشعوب ابتعدت عن الاديان السماوية ، وقطعت كل صلة بخالقهـــا ، وكفرت بانعم الله عليها ، تعبدت العجل الذهبـــى وسجدت للقوى من دولها ، ومن هنا جاءتها النكبة ، وعمتها الفوضى ، وتخبطتها شياطين الانس والجن ، حيث سلط الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها ، وهل من عذاب ابلغ من فقد راحة الضمير ، وهدوء النفس ، ورضى القلب « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة او تحل قريبا من دارهم حتى ياتـــى وعد الله ، ان الله لا يخلف الميعاد »

لا نهدف مهاجمة المعسكريـــن

لست هنا فى معرض مهاجمة المعسكرين ، وانما الذى نرمى اليه هو ان المذهبين لم يحققا للبشريـــة الاطمئنان النفسى ، والسعادة الحقيقية ، والحلـــول الناجعة لمشاكل العصر ، والتعايش السلمى الذى هو هدف من اهداف الاسلام ، ولم يستطيعا انتشال الانسان المعاصر من الورطة التى يتخبط فى اوحالها ، ولم يتوفقا فى اي مجال من المجالات التى تسعد فيها الشعوب وتتاخى ، اذا لم يكونا قد ساهما من طريق مباشر او غير مباشر فى تعميق هوة العداء بينهمـــا وتوسيعها بشكل فظيع ومرعب .

فالواقع الذي تعيشه الانسانية اليوم لا يخرج عن نطاق العداوات والاحقاد ، اذ بمجرد ما تتسرب افكار المذهبين الى الامة الواحدة المتماسكة حتى تفعل فعل وحدتها وتمزق اواصر اخوتها وينفرط عقد وشائجها ، عائليا واجتماعيا وسياسيا ، وما الصراع الداخلى ، والعراك الحزبى ، والخلاف المذهبى داخل كثير مـــن الشعوب الا صورة مجسدة لهذا الخبال الفكرى الذى تعانى منه البشرية الامرين .

حادثتان مؤلمتان

اما على المسرح البشرى العام فنتوقف على حادثتين هامتين تؤكدان ما اشرنا اليه سابقا من ان الزعماء لا يهتمون الا بالسيطرة على الشعوب ولا يسعون الا وراء مصالحهم الخاصة ، ولو تعرضت الشعوب للتشرد ، ولتحقيق اغراضهم ولو زلزلت الارض زلزالها .

مأساة شعب فلسطين

امام العالم اليوم مأساة شعب فلسطين بأكمله ، فقد اختلست اثرة الفاشية وطنه وشتت شمله وشرده في الصحارى واسكنه الخيام ، لا لشيء سوى أن هذا المعسكر يرى ان اقامة دويلة اسرائيل في قلب العروبة ضرورة استراتيجية لتبديد دول المنطقة باستمرار ، ومعاقبة للانتفاض على الدول العربية متى سمحت الظروف الدولية بغزوها ، باعتبارها منطقة حساسة من الناحية الجغرافية ، ولما تحتوى عليه ارضها من خامات اولية ومخزونه من مدخرات نفطية لا حياء للدول المصنعة بدون تلك المصادر التي انعم الله بها على المنطقة العربية والتي تعتبر عصب الحضارة المادية المعاصرة

زلازل واهوال منتظرة

وهذه دولة كبرى تتزعم معسكرا آخر عقدت العزم على تفجير 250 قنبلة ذرية وبقوة 100 ضعف القنبلة التي القيت على مدينة هيروشيما فخلفتها قاعا صفصفا بما فيها من انسان وما عليها من نبات وحيوان ، لاجل شق قناة وتحويل مياه عدد من الانهار الى بحر قزوين ، مع العلم بان علماء السوفييت أنفسهم يتوقعون أن تسبب هذه التفجيرات المرتقبة عددا من الهزات الارضية .

فما هو يا ترى ذنب ملايين الفلسطينيين لولا الاطماع والاغراض والمصالح التي تملؤها قسوة القلوب وانعدام الاحساس والجشع المادى الصرف ؟ وما هى جريمة سكان هذا الكوكب حتى تتسبب في زلزلة الارض من تحت مساكنهم واوكارهم ؟

الم يقنع الناس بالزلازل الطبيعية ، ولعل اكثريتها نتجت عن التفجيرات السابقة ، الم يان لهذا البشر ان يتريث قليلا ويفكر كثيرا في العواقب المفجعة وما ستخلفه تلك الزلازل وراءها من مدن يبابا ومآت الالاف من الموتى والجرحى والمشردين ؟

لابد من عودة الانسان الى فطرته

من هذين الحدثين — وغيرهما كثير — نخرج بنتيجة مؤلمة وهى ما اعترى هذا الانسان من طغيان وجبروت كأنه الحيوان المفترس ، لا يرق قلبه لنكبة الدنيا كلها ، ولا تدمع عيناه لمحنة الآخرين ، ومن المثلين نؤمن كل الايمان بأن الحاجة ماسة الى ازالة العديد من الادمغة مما علق بها من ادران ، والكثير من القلوب مما ران عليها من قساوة ، ولا يتأتى ذلك الا بواسطة تصحيح جديد للمفاهيم الخاطئة عند هؤلاء واولائك ، وتصحيح تلك المفاهيم يكمن في عودة الجميع للاعتراف من ينبوع الفطرة الانسانية التي فطر الله عليها الموجودات بما فيها هذا الانسان الذي يسعى لخراب ديار والقضاء على وجوده « فاقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون »

ادوات الفتك الخاطف

والخراب الذي يسعى اليه الناس يتمثل بالاصالة في الصراع الدائر بين الكتلتين الشرقية والغربية ، والعداء السافر بين المذهبين المتناقضين ، ويكفي ان كلا منهما يحمل لقب « معسكر » وهى لفظة في مدلولها ومفهومها ومنطوقها توحي بالقوة النووية المدمرة والاستعداد الحربي والتحفز للبطش ، ونلاحظ ان كل معسكر لا يحجم عن التلويح والتصريح بأن كل مواجهة ساخنة بينهما تحمل بين طياتها كارثة انسانية لا يعلم الا الله فظاعتها ، ولعل السر في تأجيل اشعال فتيل الحرب المدمرة يعود الى توفر كل من الجانبين على ادوات الفتك الخاطف ، وهذا الافتراض يدعمنا للاعتقاد بأن ما يلوح به كل منهما من رغبة في التعايش السلمي لا يعدو ان يكون « أمنيونا » مخدرا للراى العام الانساني حتى يتسنى بسط النفوذ الايديولوجي لهذا المعسكر او ذاك في بقاع الدنيا .

التجربة الرائدة والوحيدة للخلاص

ومن المفيد لنا ولغيرنا التأكيد على ان الانسانية جربت المذهبين معا فلم تسعد بهما وسلكت طرقا اخرى ،

للخروج من المحن التي تتخبط فيها فلم تجدها نفعا ، واتبعت اساليب مختلفة لاصلاح أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعائلية والتعليمية وحتى المالية فلم تفلح مطلقا ، فلم يبق امامها الآن وبعد هذا الافلاس الذي صاحب مسيراتها الا تجربة رائدة في عالم التعايش السلمي الحقيقي دون ميز للون وعرق وجنس وسلالة ، انه الاسلام الذي ينادي البشرية منذ أربعة عشر قرنا بقوله تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير » .

الاسلام دين الانسانية جمعاء

والذي يجب التأكيد عليه في هذا السياق ان الاسلام ليس دينا خاصا بالعرب وحدهم ، وانما هو دين الانسان في اي زمان ومكان « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون » « يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا الذي له ملك السماوات والارض ، لا اله الا هو » ومن الآيتين الجامعتين كان على كل مسلم صادق في اسلامه ان يحاول بكل الطرق وجميع الوسائل هداية اخيه الانسان الى دين الله الذي يكفل للجميع حياة دنيوية مطمئنة يسودها الاخاء والوئام ، ويرشده للحياة الاخرى حيث النعيم الدائم ورضوان الله أكبر .

الدعوة الى عقيدة الاسلام

ومن هذا المنطق يحق التبشير بالاسلام وعرضه على المجتمع الانساني كبديل للحلول الفاشلة لما تعانيه البشرية من خراب روحي ، ودمار فكري ، وانهيار اقتصادي ، وحقد انساني ، وصراع دولي ، وتهديد نووي ، باعتباره الدين الحق الذي جاء خاتمة الاديان السابقة التي كانت خاصة بأمم معينة فأحيا ديننا ما كان فيها من تعاليم حرفها واولها اهل الكتاب « يحرفون الكلم عن مواضعه وتسوا حظا مما ذكروا به» ولفحة الاسلام بما يكفل سعادة الانسانية جمعاء وما يحتاج اليه الانسان في تقدمه العلمي ورقيه العقلي ومن هنا كان الاسلام خاتمة الاديان كلها « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » وكان نبينا عليه السلام خاتم الانبياء والمرسلين « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين »

الاسلام يدفع للابداع والابتكار

ولذلك كان هذا الدين مواكبا لكل نهضة على تعاقب الازمان ، وحافزا خلبا للخلق والابداع في مجالات الحياة الخاصة والعامة ، والدليل الملموس على هذه الحقيقة ان العرب لما اعتنقوه كعقيدة وطبقوا حياتهم العملية وسلوكهم الاجتماعي تطبيقا كاملا وعميقا كما جاء به سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قفزوا قفزة عملاقة وسريعة في ميدان الحضارة وبهروا العالم بحضارتهم التي لا تزال آثارها الفكرية ومعالمها المعمارية تشهد لهذا الدين بأنه البلسم لكل العلل والمبيد لجميع الجراثيم التي تعرض الانسانية للاخطار وتهددها بالفناء والدمار « وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا »

شهادة مستشرق حر

وعلى المجتمعات المدعوة الى تجريب الاسلام الرائد كبديل لحيرتها وخبلها أن لا تصيخ باسماعها الى الاعداء التقليديين للاسلام ، والذين هم في نفس الوقت خصوم الرأي لكل اصلاح اجتماعي في هذا الكون ، فهم لم يتورعوا — ولن يتورعوا — عن الكيد للاسلام وتشويه الحقائق وقلب الاوضاع ، وانما عليها ان تعود الى الاصالة البشرية والفطرة الانسانية ، وتستلهم مشاعرها مجردة عن الهوى ، ووجدانها بعيدا عن الاكاذيب والاراجيف التي روجها الحاقدون على الاسلام والمنقطعون من ذوي الاغراض الاستعمارية والمطامع الاشعبية ، فان هي استوحت الاسلام من معينه الصافي وينبوعه الفياض ، وتعمقت في دراسة أوضاعها الخاصة والعامة ومشاكلها القائمة والمتشعبة ستتحقق بأن ما جربته من افكار ومذاهب ومناهج لم يزد مشاكلها الا تعقيدا وارتباكا ؛ وان الحل الوحيد هو الاسلام .

وهنا ننصحها بأن تقرأ بامعان وتدبر شهادة المستشرق الفرنسي المنصف والحر السيد «كوستانه لوبون» الذي يقول بالحرف « ان حرية الفكر في الغرب تختفي لدى الاوربي عندما يمتد فكره الى بحث العالم الاسلامي ، فالمفهوم الصليبي العميق الاثر في النفس الاوربية يحول دون حرية الرأي اذا كان موضوع البحث هو الاسلام » .

الاخـــوة الاسلاميـــة

واذا تحقق التجرد الفكري وحرية الرأي في هذه الدراسة النزيهة والهادفة تعرض آية قرآنية كريمـــة تعتبر أساسا لتعايش اسلمي الحضي الذي تفتقده البشرية اليوم ولا تجده الا في قوله تعالى « انمـــا المؤمنون اخوة » وهل في الدنيا أجمل من المحبـــة والاخاء ، وهل من طمانينة انبل واشرف من ان يعيش الانسان اخا حميما وصديقا وفيا لاخيه الانسان الذي لا يتم له ايمانه في اطر الاسلام الا اذا طبق الحديث النبوي الشريف تطبيقا عمليا « لا يومن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » .

التقوى اساس التكريـــم في الاســـلام

ثم ننتقل الى مبدأ آخر من مبادىء الاسلام الخالد والذي عليه ترتكز اعمال البشر ، وهو المعيار لكل الاعمال التي يزاولها المؤمن في حياته الدنيا ، وعليه وحـــده يتوقف الجزاء في الاخرة « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وبما أن التقوى في نظر الاسلام هي التي تؤهل المؤمن لرضوان الله تعالى فقد أضفى عليها الرسول الكريم هالة من الاجلال والتعظيم فقال : « لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لابيض على اسود ، الا بالتقوى »

وهنا نقف وقفة قصيرة لنؤكد للعالم اجمع بانه متى تحقق الاخاء وخصلت التقوى ، ـــ وهما لا يتحققان الا في ظل الاسلام ـــ فكل المشاكل قد انحلت من تلقاء نفسها ، واختفت عوامل الشر والحقد وبواعـــث التسلط والظلم ، وعاش البشر في سعادة وهنـــاء ، وعمتهم الطمانينة والرخاء ، وهذا ما ينشده الفـــرد وتتوق اليه المجتمعات التي تتخاذفها اليوم الاهواء والمطامع ، وتستغلها قوى الشر والعدوان ، وتتخطفها شياطين الانس وابالسة الالحاد .

سعادة الانسان في ايمانه بربه

ولا مناص من الاشارة الى نقطة مهمة تتعلـــق بموضوعنا ، فلقد جرب آلاف وآلاف من ابناء اوربـــا وامريكا واعجبتها الاسلام ، فدخلوا في دين الله افواجا عن اقتناع بصلاحيته ، فاستراحوا من عناء الحيـــرة الفكرية ، وعمهم الاطمئنان النفسي ، وعاشوا اخوة لكل المسلمين ، وها هم يشتون طريقهم في الحيـــاة كعناصر تجد وتعمل وتكافح في راحة بال وهـــدوء اعصاب وخلاص من الوسوسة وبلبلة الفكر والعاطفة والقلب والوجدان ، مما يؤكد أن سعادة الانسان تكمن في ايمانه الصادق بربه ، وراحة ضميره تنبع أساسا من هذا الايمان العميق ، وصدق الله العظيم الـــذي يقول في محكم كتابه الكريم « ومن يتق الله يجعل من امره يسرا » « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من لا يحتسب » .

الاســـلام ديـــن ودنيـــا

وهنا نشير الى أن الاسلام لا يطالب المؤمـــن بالانقطاع عن العمل في الدنيا والتجرد للاخرة ، فذلك من اختصاص الملائكة الذين لهم مهمتهم التي خلقهم الله لها ، اما الانسان فله وظيفته على هذا الكوكب ، ومن خصائص هذه الوظيفة أن يوازن بين متطلبات الجسم وحقوق الروح ، وهذا هو السر الدفين في اندفاع المسلم الى التحليق في اجواء الملكوت الاعلى مرضية لمطالبـــه الروحية ، والقيام بالعمل الجاد في الدنيا والاستمتاع بخيراتها وطيباتها استجابة لرغائبه الجسدية «قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يـــوم القيامة » « وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، واحسن كما احسن اللـــه اليك »

الى صـــراط الله المستقيـــم

فهذه المشاعل الرائعة والتوجيهات الربانية لها نظائر في كتاب الله العزيز وسنة رسوله الكريـــم ، تعالج بها جميع الامراض الاجتماعية ، وتضع الحلول لكل المشاكل الدائمة والمرتقبة ، وتجنب الانسانيـــة الخبل الذي يعتريها ، وتهتك الستار عن الاباطيل التي تحجب الحقائق عن انظارها ، وتطهـــر القلوب من الوساوس التي يوسوس بها الشيطان الرجيم والانسان الملحد ، « وان الله لهاد الذين آمنوا الى صـــراط مستقيم » .

لا حصـــر لنعـــم اللـــه

ومهما حاولنا تقصي الحلول التي جاء بها الاسلام لجميع المشاكل التي تستاثر باهتمامات الانسانية اليوم وغدا لعجزنا كل العجز ، وانما نحيل هذه الانسانية الى دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة دراسة موضوعية ونزيهة ، فستجد أن الاسلام هو البديـــل

الربانى لجميع مشاكل كل انسان حائر ، وهو طوق النجاة من طوفان الانحراف المعاصر « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » .

الاسلام وحده فى ساحة الانقاذ

هذه مساهمة اسلامية فى اخراج الانسانية من حيرتها وارتباكها ، وهى تعطى صورة واضحة على أن الاسلام وحده هو الكفيل بهداية الحائرين ، وهذا العرض المقتضب ليس الا اقل ما يجب أن يؤديه المسلم الى اخيه فى انسانيته وصدق الله العظيم الذى ينادي من أعلى عليين « قل هذه سبيلى ادعو الى الله أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله »

محمد العربي الزكاري

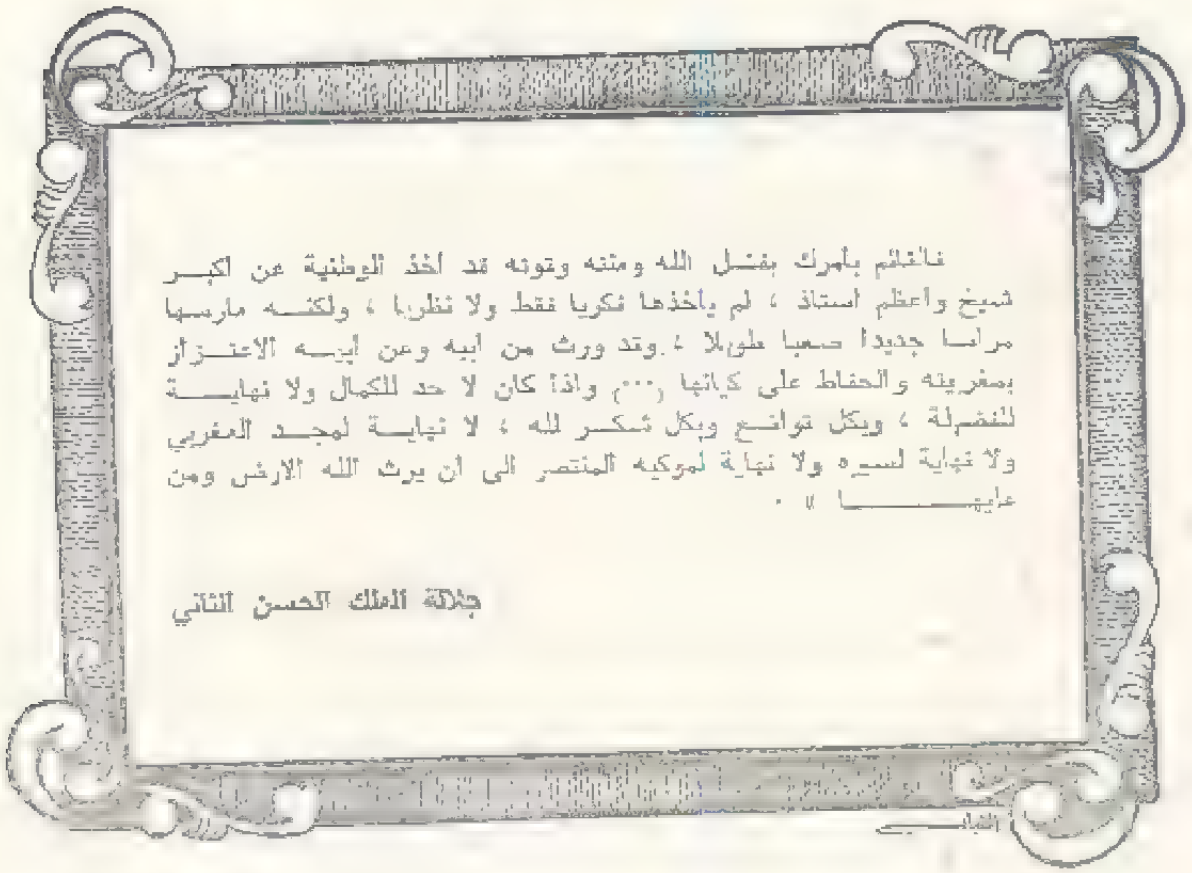

المفهوم الحضاري للعمل
في المجتمع الإسلامي

لفت انتباهنا الخطاب القيم الذي القاه السيد وزير الشغل والشؤون الاجتماعية الاستاذ محمد العربي الخطابي بمناسبة فاتح ماي الماضي ، وذلك اما تضمنه من توجيهات محكمة مستوحاة من تعاليم ديننا الحنيف تمشيا مع السياسة الرشيدة التي يسلكها جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله . ويسرنا ان ننشر النص الكامل لهذا الخطاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

ان من اكبر نعم الله على الامة الاسلامية ان جعل التوحيد والاتحاد من اعظم اسباب قوتها ومناعتها وفلاحها ..

فالاسلام الحنيف ، الذي ينبني في جوهره على الايمان بوحدانية الله ، يحض على اجتماع الكلمة والتحام الصف ، والناس في نظره سواسية امام الله وفيما بينهم ، ومقياس المفاضلة هو التقوى اي الايمان والعمل الصالح ..

ان الاسلام ، الذي هو دعوة الى الناس كافة ، لم يخاطب قبله منهم قائلا : يا عمال العالم اتحدوا ! بل دعا البشر جميعا بقوله : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ..

ثمن هذا المنظار الاسلامي القويم يسرني ان اوجه بمناسبة عيد الشغل التحية الصادقة الى القوى العاملة المغربية رجالها ونسائها ، الى من يعمرون بسواعدهم او بعقولهم او بمهاراتهم المهنية ..

وانني واياكم لعلى يقين من ان جلالة عاهلنا المفدى المحسن الثاني يحمل من معاني هذه التحية اروعها وافربها الى قلوبنا جميعا .. فهو راعي وحدتنا وحافظ قيمنا ، وهو الساهر الامين على مصالح المواطنين كافة .. فليكن التفافنا حوله حافزا لنا على المضي قدما في سبيل بناء وطن يعتز به ابناؤه وتفخر به امة الاسلام ويهيء الله لابنائه ، بفضل عملهم وتعاونهم ، العيش الكريم والطمانينة الروحية والامن والامان ..

ان الانسان هو غاية كل تنمية سليمة وهو ايضا وسيلتها الاولى واداتها الرئيسية ، ذلك لان الانسان هو اغلى موارد البلاد واحقها بالعناية والرعاية فقد كرمه الله سبحانه وحمله امانة عمارة ارضه على اساس العدل والاحسان والتعاون .. وهو الذي يحمل عبء الدفاع عن قيم الجماعة ومصالحها وينهض بعبء الحفاظ على سلامتها واستمرارها وتقدمها في جميع ميادين الحياة ..

اهداف التنمية :

وانطلاقا من هذا المبدأ المتفق عليه فان التنمية يجب ان تهدف اساسا الى :

اولا : تامين العمل لجميع المواطنين القادرين عليه ..

ثانيا : تمكين العاملين من سد حاجياتهم الضرورية من طعام وسكن وتعليم ووقاية وتداو واستجمام ..

ثالثا : توفير فرص التقدم في مدارج العمل للشغالين والمقبلين على سوق الشغل ، وذلك بتكوينهم وتاهيلهم مهنيا قبل العمل وفي اثنائه ..

رابعا : تعميم الرعاية الاجتماعية حتى يفيد منها كل العاملين بشكل يكفل لهم ولذويهم الطمأنينة والاستقرار والامن الاجتماعي في العمل وعند الانقطاع عنه ، في الصحة والمرض ، في الولادة والحضانة ، في القدرة والعجز ، في الشباب والشيخوخة ، وذلك عن طريق خدمات الضمان الاجتماعي ومؤسسات التعاون المهني ..

ان ارتفاع معدل الدخل والانتاج لا يقوم وحده دليلا على نجاح التنمية ما لم يؤد الى استفادة جميع المواطنين من ثمراتها بما يكفل لهم العيش الكريم والحياة الامنة ..

فالتنمية ليست هدفا لذاتها بل لما تؤدي اليه من خير وفرة يفيد منها الجميع كل على قدر جهده وحاجته لا يبخس احد شيئا من حقه في ذلك ..

والتنمية ليست مسؤولية الحكومة او السلطات الاقليمية وحدها ، بل هي مشاركة في الجهد والتفكير والتدبير يضطلع بها ، الى جانب الحكومة ، الافراد والجماعات والمؤسسات الاقتصادية والهيئات المهنية لخير الجميع ..

ومما لا شك فيه ان كفالة العمل لجميع المواطنين القادرين عليه هدف رئيسي من اهداف التنمية ، وهو ايضا من وسائل تحقيقها ، لذلك فان ايجاد القسدر المطلوب من فرص العمل المنتج يجب ان يحتل المقام الاول من الاهتمام ، وهذا يعني ان تعتبر سياسة التشغيل من الاسبقيات للمخطط الخماسي.

وسياسة التشغيل لا تعني مجرد مكافحة البطالة ..

فالتشغيل خطة شاملة متكاملة ترمي الى ايجاد فرص العمل المنتج بالقدر الذي يفي بحاجة سوق الشغل من حيث العرض والطلب مع تامين الاستقرار المادي والرعاية الاجتماعية للشغالين واتاحة فرص الترقية المهنية لهم بالتدريب والتكوين الدائمين ..

اما مكافحة البطالة فليست في واقع الامر الا جزءا من سياسة التشغيل ، فهي اذن عملية محدودة تفرضها ظروف اجتماعية واقتصادية خاصة ..

ونحن حينما نقول بأن سياسة التشغيل يجب ان تحتل مكانها من بين اسبقيات مخطط التنمية فاننا نعني اولا وقبل كل شيء ان تقاس فعالية المشاريع الانمائية المزمع انجازها بما تستطيع خلقه من فرص العمل المنتج فضلا عن الاعتبارات الاقتصادية الاخرى التي لا بد منها وفي مقدمتها الجهود لاستكمال تجهيز البلاد وتطوير قدراتها الصناعية والفلاحية والسياحية والاكاليمية ..

ومما لا شك فيه ان كثيرا من التدابير التي اتخذتها الحكومة خلال تنفيذ المخطط الحالي على صعيد الاصلاح الزراعي والتجارة الخارجية وتشجيع الاستثمارات واصلاح بعض الانظمة الجبائية ، كان له اثر ايجابي في استحداث فرص العمل ، ثم ان سياسة التنمية الجهوية التي رسمتها الحكومة ومضت في تطبيقها خطوات ايجابية تعد من اهم تلك التدابير التي ينبغي تطويرها وتحسينها نظرا لما ينتظر ان تؤدي اليه من حسر موجة الهجرة من القرى الى المدن بتشغيل القوى العاملة في اماكن اقامتها الاصلية وتطوير الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الاوساط القروية ..

ولما كانت سياسة التشغيل تتطلب اعداد المهارات الفنية والمهنية بشكل يواكب حاجة المرافق الاقتصادية التي تنمو باستمرار فانه ينبغي التفكير في نشر التكوين المهني على اوسع نطاق ممكن لاستيعاب جميع الشبان الذين يرغبون في متابعة تدريب مهني يؤهلهم لولوج سوق العمل وهم على اتم الاستعداد لذلك ..

والتكوين المهني ليس معناه ـ كما يفهم البعض ـ مد حزام النجاة لانتشال الشبان الذين يضطرون الى الانقطاع عن متابعة التعليم العمومي ، بل ان التكوين المهني مرحلة ضرورية في اعداد الشبان لخوض معركة الحياة والعمل وهم متوفرون على المهارة الفنية والمهنية وفقا لمؤهلاتهم اولا ، ولحاجات النمو الاقتصادي ثانيا ..

ومن المسائل التي تستأثر باهتمام المسؤولين في هذا الباب :

1 ـ احكام التنسيق بين المرافق الحكومية والمؤسسات العمومية التي تضطلع بالتكوين المهني على ان تنسق الجهود كذلك مع مصالح التعليم العمومي ..

2 ـ توفير وسائل جديدة مثل التكوين بالمراسلة واحداث وحدات متنقلة للتدريب قصد سد حاجات الاوساط القروية التي لا توجد بها مراكز قارة ..

3 ـ مواصلة التدريب في المصانع وتحسين وسائله وطرقه ..

4 ـ احداث معاهد لتخريج اطر فنية حاصلة على الكفاية الفنية والمهنية في بعض التقنيات التي تدعو اليها حاجة النمو الاقتصادي كصناعة النسيج والسكر وفنون الطباعة وغيرها ..

5 ـ تنظيم التدرج او التلمذة الصناعية ..

6 ـ توسيع عملية التدريب السريع التي بدأناها بنجاح في قطاع البناء ..

واذا كان لا بد لي ان اذكر ، بالمناسبة ، بعض الصعوبات التي تعترض سبيلنا في ميدان التشغيل خاصة فانني ارى ان اقتصر على مسألتين اجتماعيتين:

فالمسألة الاولى تتعلق بالنمو السكاني السريع الذي تعرفه البلاد ، وهو نمو يدل على تحسن مستوى الصحة العمومية وعلى رغبة عامة المواطنين في التكاثر ، ولكن هذا النمو لا يكون ، وياللاسف ، دائما موازيا للنمو الاقتصادي فتحدث الصعوبات الاجتماعية التي نعرفها ..

وعند الحديث عن هذه المسألة يتبادر الى الذهن ما يسمى بالتخطيط العائلي فيحدث بعض الالتباس الذي يؤدي أحيانا الى المغالطة وسوء الفهم .. فالتخطيط العائلي لا يعني بالضرورة اللجوء الى الاجهاض والتعقير او منع الحمل بأية وسيلة كانت.. والواقع ان التخطيط العائلي يهم في المقام الاول الاسرة ذاتها .. ونجاحه يتوقف على تفتح الوعي العام .. فاذا كان الزوجان يتسمان بحسن التقدير وبعد النظر فانهما يعمدان تلقائيا الى تنظيم اسرتهما بشكل يجعل ما يتجبانه من اطفال موافقا لقدرتهما المادية والمعنوية .. نعم ان للسلطات العمومية دورا ينبغي ان ينحصر في الارشاد والتوجيه وفي توفير الوسائل التي قد يلجأ اليها المواطنون الذين يحرصون على تنظيم اسرهم بشكل يلائم ـ كما قلت ـ امكاناتهم ولا يرهق في نفس الوقت كاهل مخططات التنمية ..

اما المسألة الثانية فانها تتصل بالتغير الاجتماعي الذي يتطلب نجاح مشاريع التنمية .. وقد انتبه كثير من الخبراء العالميين الى هذا العامل المهم الذي يفرض تغيير بعض العادات السيئة والممارسات السلبية التي تعرقل سير النمو الاقتصادي او تؤخره ..

فاذا نحن تناولنا هذه المسألة من وجهة نظر الاسلام وما يشتمل عليه من قيم خلقية وواجبات سلوكية ، فاننا ينبغي ان نتذكر ونتدبر قول الله تعالى في كتابه العزيز : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » ـ وقوله عز وجل : « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بنفسهم » ويمكن ان نفهم التغيير هذا بوجهيه السلبي والايجابي .. فان نحن تغيرنا في معاملاتنا ومعاشنا من الاحسن الى الاقبح فاننا لا بد وان نصاب بالضعف والخذلان والتدهور .. وان نحن انقلبنا من سيء الخلق الى حسنه فان الله يمدنا بالعون والتوفيق ويهيء لنا سبل الفوز والعيش الكريم ..

والاخلاق في الاسلام ليست فيما معنويا مجردة بل انها ممارسة وفعل ، وهي سلوك فردي واجتماعي يطبع تصرفات الناس ومعاملاتهم كلها ، واخلاق الاسلام مبنية على الصدق في القول والعمل ، وقوامها وما يقتضيه ذلك من رفع الضرر ودرء المفاسد ، واعطاء كل ذي حق حقه التعاون لصالح الجماعة ، وتقديم المنفعة العامة على المكسب الفردي

ان التقدم الاقتصادي والاجتماعي ليس حركة مادية صرفا ، بل ان هذا التقدم مرتبط الى حد بعيد بمكارم الاخلاق وصالح العادات .. فاذا كثر الفساد والغش والجشع والرشوة ، وغلبت الانانية وحب الاحتكار والاستغلال ، وساد الظلم الذي تضيع معه حقوق الفرد والجماعة فان التنمية لا يمكن بحال ان تسير في الاتجاه السليم الذي يحقق العدل والكفاية ورخاء العيش للجميع ..

هذا هو التقدم في نظر الاسلام : انه تقدم قائم على التوازن المادي والروحي وتقديم النفع العام واخلاص العمل لله وابتغاء مرضاته في القول والعمل .. انه تقدم يدفع ، فعلا ، الى الامام في خط مستقيم ، وكل تصور مادي صرف للتقدم انما يرجع بالانسان الى الوراء بجعله مجرد اداة تحركها مقتضيات الانتاج والاستهلاك وتتلاعب بها تيارات

الالحاد وفساد العقيدة والاباحية الخلقية ..

ان من واجبنا ـ ونحن امة كرمها الله بالاسلام ـ ان نعبيء انفسنا في سبيل بلادنا واسعاد شعبنا .. والمقصود بهذا هو تعبئة الجهد البشري وتعبئة الاخلاق في اتجاه التعاون والايثار والاستقامة في التفكير والعمل .. ولا سبيل الى تنمية صالحة بغير هذه التعبئة التي هي من صميم تعاليم الاسلام ..

وليس كل ما يصلح للمجتمعات التي تأخذ بالنظام الرأسمالي او بالاقتصاد الموجه يصلح لنا بالضرورة .. فاذا كان لنا ان نستفيد من تجارب غيرنا على الصعيد التكنولوجي والعلمي فان التوجيه يجب ان يكون نابعا من قيمنا ومن قدرات شعبنا وامكانيات بلادنا ..

وقد قرات في الايام الاخيرة لاحد رجال الاقتصاد الغربيين بحثا تحدث فيه عن الصاعب التي تلاقيها الدول السائرة في طريق النمو فقال : « خير لهذه الدول ان تعول على الجهود الملائمة مع واقعها من ان تعتمد على تقليد وهمي لاقتصاد يقوم على نمو لا يشبع نهمه بشيء .. »

هذه افكار عامة احببت ان اعرضها عليكم مستشرفا بذلك آفاق المستقبل القريب في هذا الوقت الذي تنصرف فيه الجهود الى اعداد مشروع مخطط التنمية للسنين الخمس التي تبدا عام 1978.

فاللهم وفق شعبنا لما فيه رضاك ، واسلك به طريق الخير والصلاح والازدهار ، واحفظ اللهم ملكنا الحسن الثاني ، وثبت خطاه ومتعه بكامل العافية ودوام السداد ، واعنه في كل ما يقبل عليه من عمل صالح .. واكلأ اللهم بعين رعايتك الاميرين الجليلين ولي العهد سيدي محمد ومولاي رشيد واحفظ في كنفه جميع آل بيته الشريف .

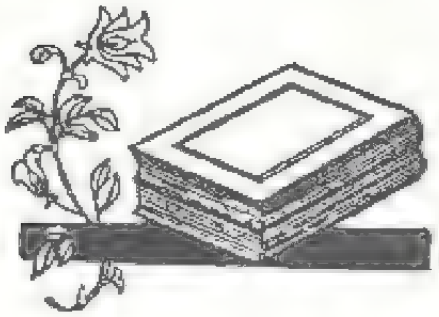

أضواء على عظمة بطل الاستقلال

سيدي محمد الخامس

للدكتور عثمان عثمان إسماعيل

1 ـ بطاقة تعريف
2 ـ شخصيته وجهاده
3 ـ خطاب طنجة التاريخي : المغرب وطن العروبة والاسلام
4 ـ محادثات باريس
5 ـ حماية الوطن والمواطنين فوق التاج
6 ـ عظمة السلطان في المنفى
7 ـ ملك الديموقراطية الشعبية
8 ـ اعداد ملك المستقبل

1) بطاقة تعريف :

هو سيدي محمد بن يوسف بن الحسن الاول بن عبد الرحمن الذي يرتقي نسبه الى السيد الحسن الداخل ثم الحسن المثنى فالحسن السبط ابن الامام علي وسيدتنا فاطمة الزهراء بنت مولانا رسول الله رضوان الله عليهم اجمعين.

ولد سيدي محمد الخامس سنة 1927م في التاسعة عشر من عمره دون ولاية سابقة للعهد. يقول مؤرخ المملكة السيد عبد الوهاب بن منصور (كتاب الحسن الثاني ص 18) : ولم يكن السلطان الجديد مرشحا في حياة ابيه السلطان مولاي يوسف .. لانه اصغر ابنائه ومحل اضطهاد حاجبه .. ولم تكن ولاية العهد منظمة في المغرب حتى ذلك التاريخ بقانون.

توفي سنة 1953م مع ولي عهده واسرته ثم عاد لوطنه وشعبه المستقل سنة 1955م والتحق بالرفيق الاعلى سنة 1961م.

2) شخصيته وجهاده :

لقد خيبت شخصية محمد الخامس السهلة الممتنعة آمال الاستعمار الفرنسي الذي اعتقد ان الابن الثالث الذي لم يدربه والده على الحكم سوف يكون من السهل دفعه الى سياسة الاستسلام لخططه وتحقيق مآربه.

يقول مؤرخ المملكة في كتابه المذكور :

ومن المسلم به ان العظمة لا تدرك اعتباطا وبأقل معاناة لمجرد مواتاة الظروف فهي ليست من نوع الغنى

الطارىء .. بل العظمة خصلة او مجموعة خصال تلقى بذرتها الطيبة باكرا في تربة النفوس الطيبه فلا تزال تنمو بها وتترعرع حتى تستوى وتشتد لافحة بين الحين والحين تباشيرها متجلية بين الفينة والفينة مخايلها وكذلك كان سيدى محمد بن يوسف يتهيأ منذ نعومة اظافره لامر عظيم ويجتاز على صغر سنه بمراحل مجاهدة وبلاء ظهرت فيها كفايته لاداء رسالة سامية فهى من الرسلات الاسلامية الاصلاحية التى تدوم بدوام المصلحين.

ويقول الدكتور صلاح العقاد فى كتابه المغرب العربى :

لقد اقبل على الاطلاع وعلى دراسة الاوراق التى تقدم له ومنذ ظهور كتلة العمل وهو يحاول مقاومة الفرنسيين فى اتخاذه اداة للتنكيل بها ..

وبهذا خيب الفتى اليافع الملهم الموفق آمال الاستعمار فكان سهلا مع رعيته رحيما بها ملتحما باسمه معتزا بهاء ممتنعا على قوى البغى مستعصيا عليها.

بهذا نطق الوزير الشاعر الاديب محمد سعيد الزواوى فى ديوانه حسن الوفاء قائلا :

اسد بالتهار قوة بطش
وبليل كارهب الرهبان

كسيوف الجلال فى الحق لاتا
خذهم لومة الحسود الشانى

رحماء القلوب عند ابتئاس الـ
ـضعفا يسعفون دون امتنان

لقد كان ملتزما نهج اسلافه العلويين فى السياسة الخارجية بتجنيب البلاد اطماع الدول الاستعمارية كما يقول صلاح العقاد فى كتابه المذكور، كما كان يتفادى داخليا كل صدام مسلح بين القوى الغاشمة وجموع الشعب الاعزل حقنا لدماء شعبه وحرصا على سلامة امته فكان عند الضرورة يقدم نفسه واسرته فداء لرفع السيف عن رقاب المجاهدين.

ولهذا اثر النفى بولى عهده واسرته فى احداث 1953م وبادر المقيم العام الفرنسى الجنرال چيوم الى ابلاغ قرحه الى وزير خارجية فرنسا جورج بيدو والتعبير عن عملية خلع محمد الخامس بعبارته المشهورة (ان هذه العملية نصر للصليب على الهلال) .

لقد جن جنون الفرنسيين عندما انتهز محمد الخامس فرصة انعقاد مؤتمر الدار البيضاء فى يناير 1943م بين زعماء الحلفاء، روزفليت وتشرشل وايزنهاور وديجول، اذ انفرد جلالته ومعه ولى عهده بالرئيس روزفليت وعرض عليه مطالب المغرب العادلة فى الحرية والاستقلال وحصل منه على وعد بالتاييد الذى نطق به روزفليت (بلا ريب انني اعدك بذلك) .

وقد اجمل المرحوم علال الفاسى بكتابه الحركات الاستقلالية كفاح محمد الخامس فى تدعيم العمل الوطنى بقوله (لقد انسمت فى شخصية سيدى محمد بن يوسف الملك العظيم الذى ظهرت آثار عظمته فى الكفاح المستميت الذى لم يزل حفظه الله يواليه مصلحة الامة واستقلال البلاد برباطة جاش وثبات قلب واطمئنان نفس) .

3) خطاب طنجة التاريخى : المغرب وطن العروبة والاسلام .

ادرك محمد الخامس بغريزته الموروثة هدف الاستعمار الحقيقى فى استنزاف الثروة الوطنية ثم اضعاف النسجية المغربية تمهيدا لتحويلها وصبغها صبغة فرنسية.

يقول مارتى : « ما جئنا هذه البلاد ، افريقيا الشمالية حبا لاهلها بل لنجعل من تربتها ارضا صالحة لابناء فرنسا ونعيدها الى الحظيرة اللاتينية كما كانت قبل الغزو الاسلامى .

ولهذا كله قطن محمد الخامس فبادر باتصالاته السرية مع الجامعة العربية ثم برر ودعم تدخل الجامعة العربية فى المشكلة المغربية ثم اعلن انضمام المغرب للجامعة العربية بعد الاستقلال رجوعا بالمغرب الى شخصيته الاصيلة ومكانته البارزة فى عالم العروبة والاسلام.

ويقودنا ذلك الى استرجاع احداث زيارة جلالته لطنجة وخطابه التاريخى فى ابريل 1947م. فقد كان منذ سنة 1946م يسعى لزيارة هذا الجزء من المملكة ليعلن للعالم من المدينة الدولية عن مخططاته الوطنية، يقول الدكتور العقاد فى كتابه المغرب العربى :

«وبعد ذلك بداية الصراع الذي استمر بين الاقامة والقصر وانتهى بعزل السلطان سنة 1953م .. ومن ثم يعزى اليها ـ يعني فرنسا ـ تدبير مذبحة الدار البيضاء التي كانت الحلقة الاولى في سلسلة المذابح .. ليلة سفر السلطان .. فانه لم يثن السلطان عن انفاذ رحلته وبدل ان يشيد بدور فرنسا في نفي الحضارة بمراكش ضمن خطابه الفقرة التالية : لا شك ان مراكش وهي بلد مربطه بالبلاد العربية الاخرى في الشرق الاوسط واثق الوشائج ترغب رغبة اكيدة في تعزيز هذه الروابط، وخاصة بعد ان اصبحت الجامعة العربية عاملا هاما في الشؤون العالمية. وتأكيد صفة مراكش العربية ليس بظاهرة جديدة في تفكير السلطان الذي اتفق في هذا الامر مع حزب الاستقلال. انما مغزى هذه الاشارة هو معارضة فكرة الفرنسيين من انهم ناشرو الحضارة في مراكش، باظهار حضارة وطنية عريقة متمثلة في التراث العربي. والدليل على ذلك هو ان جوان الذي ارسل الى مراكش كرد فعل على هذا الخطاب اهتم بمناقشة وجهة مراكش الحضارية .. وحرص على قطع جميع العلاقات بينها وبين بقية العالم العربي ..»

4) محادثات باريس :

عندما رفض محمد الخامس التفاصيل التي وضعتها الاقامة الفرنسية لعمليات الانتخابات البلدية والتي تنص على ان يكون نصف الاعضاء منتخبين من الفرنسيين، ثم رفضه اقتراح الاقامة الفرنسية بانشاء دائرة انتخابية للفرنسيين في مراكش وتهديده برفع الامر الى مجلس الامن الدولي، تراجعت فرنسا واستدعته الى باريس لتوهم الرأي العالمي باستقرار العلاقات الفرنسية المغربية.

وازاء تصلب الملك في موقفه الرسمي وتمسكه بطلب الاستقلال لبلاده وتقديم مذكرة لتخييب انصار الحماية، فشلت تلك المحادثات وعاد الملك وولي عهده.

يقول مؤرخ المملكة الاستاذ عبد الوهاب بن منصور في خبر تلك المحادثات :

(في يوم الاربعاء 1 نوفمبر استدعى السلطان ولي عهده ووزراءه واعضاء ديوانه الى القصر الذي يقيم فيه وقضوا اليوم كله في دراسة الرد الفرنسي .. فتبين لهم ان الحكومة الفرنسية واقعة تحت تاثير اقامتها العامة ومستوطنيها وان الاشياء التي صرحت بقبولها لا ترضي شعب المغرب وملكه، واتفق الجميع مع السلطان على كتابة رسالة ثانية ترفض كالاولى كل اصلاح في نطاق نظام الحماية، وتطالب بالغاء ذلك النظام من اساسه واقامة صرح الحكم في المغرب على اسس جديدة تضمن له حريته وتتيح لحكومته الحرة ان تدخل في الاصلاحات ما تراه مفيدا لشعبه وملبيا لطموحه .. ونشر الديوان الملكي بلاغا ثانيا كشف النقاب بين وجهة نظر المغرب ووجهة نظر فرنسا . »

5) حماية الوطن والمواطنين فوق التاج :

يقول الدكتور العقاد في كتابه المغرب العربي :

«عندما عاد السلطان من رحلته في يناير 1950م وعرف المقيم العام انه قدم مذكرة تتضمن فكرة تغيير على تهامي الجلاوي صاحب النفوذ في الجنوب .. الذي الحماية حاك جوان المؤامرة التي اوشكت على خلع السلطان سنة 1951م واعتمد كما سيفعل بعد عامين اخذ يجمع القبائل الموالية له وبدأ في الزحف نحو الرباط .. واسرعت القوات الفرنسية في الاحاطة بالقصر .. لاجبار السلطان على الخضوع لاوامر المقيم العام، ويروي احد الكتاب الامريكيين .. الحوار الذي دار بين السلطان وجوان .. ، بدأ جوان بطلب اصدار بيان يستنكر فيه السلطان اعمال حزب الاستقلال ويصف رجاله بمخالفة الدين، فأجاب السلطان بانه لا يمكن ان يعلن استنكاره لاي حزب لانه بصفته ملكا فهو فوق كل الاحزاب، لكن الجنرال جوان وجه للسلطان هذا الانذار : ان رد عظمتكم غير مقبول وامامكم اما ان تدينوا حزب الاستقلال او تتنازلوا عن العرش والا فسوف اعزلكم بنفسي ..

6) عظمة السلطان في المنفى : ٥

لم يكن واردا في حسابات الطغاة عندما اقدموا على الاعتداء على العرش ان الملك المخلوع قبل ان يصل الى المنفى، كان قد منح للحركة الوطنية بالمغرب شهيدا فدائيا من طراز فريد كرمز لبعث الحركة الوطنية في اطارها المسلح، بل ان انتشار الحبيس مع ولي عهده وافراخه الصغار سوف يشكل مصدر خطورة وقلق دائمين لقوى الاستعمار الخارجية وعناصر التحالف الخائنة بالداخل.

فمنذ ان وصلت الاسرة الشريفة الى جزيرة كورسيكا اشتعل الوعي المغربي لاسترجاع كرامة الملك والشعب واستشهد البطل المرحوم علال بن عبد الله اثناء هجومه على السلطان المزيف محمد بن عرفه اثناء موكب صلاة الجمعة 11 سبتمبر 1953م ، وتكونت منظمات المقاومة السرية وبدا تاسيس جيش التحرير ومقاطعة البضائع الفرنسية.

وبهذا واجهت فرنسا عديدا من المشاكل والمتاعب على الصعيد الفرنسي الداخلي وعلى المستوى العالمي، فقد نشطت حركة مكتب المغرب العربي بالقاهرة وتيويورك ودول الجامعة العربية وتصدعت الحكومة الفرنسية ذاتها باستقالة عدد من وزرائها احتجاجا على سياسة الحكومة الفاشلة.

لقد تجلت اذن عظمة الملك الحبيس في المنفى وتفاقمت خطورته مما اضطر فرنسا الى ابعاده الى جزيرة مدغشقر تمهيدا لنقله الى جزيرة تاهيتي وسط المحيط الهادي لاسباب بالغة العظمة يفسرها مؤرخ المملكة الاستاذ عبد الوهاب بن منصور في كتابه الحسن الثاني ثم يجملها في عبارة بليغة :

وقد عللت الحكومة الفرنسية هذا الابعاد الجديد بما يسببه وجود السلطان وولي عهده على ضفاف البحر المتوسط من تقوية الهيجان السياسي ..

وتتجلى عبقرية محمد الخامس السياسية في مواقفه المتتابعة. فعندما اضطرت فرنسا الى ارسال الجنرال كاترو لمفاوضة الملك في منفاه اظهر الملك صبرا وحنكة وبراعة سياسية لا تفسر بغير التوفيق والالهام. يقول مؤرخ المملكة في كتابه المذكور :

جرت بينه ـ كاترو ـ وبين السلطان محادثات استمرت خمسة ايام شارك فيها الامير مولاي الحسن مشاركة مجدية وتدخل تدخلات مفيدة، اخبرني جلالته ـ سموه يومئذ ـ انه رأى من صبر والده وجلده وتمسكه بحقوق شعبه خلال تلك الايام ما تقضي منه العجب حتى انه بقي اربعة ايام يشرح له مدلول كلمة الذمية المشتركة التي ربط بها الفرنسيون اعترافهم باستقلال المغرب .. الى ان انتهى الامر الى .. النقط المتفق عليها وكانت هذه النقط تعني في عمقها فسح المجال امام سيدي محمد بن يوسف للرجوع الى فرنسا ثم الى عرشه والسير بالمغرب نحو نظام دولة عصرية متمتعة بكامل حريتها واستقلالها.

وجاء المقيم العام الفرنسي دي لاتور ليلقي بدلوه في بحار الاسرار العلوية الشريفة لقوة وشخصية محمد الخامس، وها هو يحدثنا في كتابه حقائق حول افريقيا (نشر باريس 1957م ابتداء من صفحة 139) :

(.. وقد عرض علينا بلقرشي ـ احد اعوان الاستعمار بالدار البيضاء ـ عرضين، فاما ان استعمل القوة لاخضاع الاستقلاليين وهم عامة الشعب، او ان يرحل الاستعمار من المغرب حاملا معه اعوانه. لقد اكد لي بلقرشي انه لا يحب ابن يوسف بسبب التفاف الشعب حوله واحداث التلاقل .. ويضيف دي لاتور في كتابه المذكور انه اجتمع مع اعوانه واستخلص على ضوء دراسة الموقف ان المغاربة الاستقلاليين كانوا متاكدين من كسب المعركة .. ولا يهابون طلقات مدافعنا .. في حين ان بعض وزرائنا لم يبق لديهم سوى فكرة واحدة وهي ترحيل ابن عرفه ..)

وبالفعل، فقد طلع الجلاوي بتصريح مفاجيء في اكتوبر 1955م بانه يشارك الامة في المطالبة بعودة محمد الخامس الى العرش، ويقول دي لا تور :

(لقد دهشت باريس هذه المرة والغيت وزارة الشؤون المغربية والتونسية والحقت بالخارجية .. وقد علمت .. بان الجلاوي انقلب وكذلك هيئة الوجود الفرنسي والصحافة الفرنسية .. ، هؤلاء الذين كانوا لا يتنازلون .. لم يبق اذن سوى حل وحيد وهو اعادة محمد الخامس الى عرشه) .

هذا هو سر عظمة محمد الخامس في المنفى عندما كان اسيرا اعزل من كل سلاح الا سلاح الايمان بربه ووطنه وشعبه.

7) ملك الديموقراطية الشعبية :

لقد استحق محمد الخامس ان يحمل في التاريخ لقب ملك احياء التصدير الذي كان يحلو للمستعمرين ومن سار في ركابهم ان يشتموه به .

ويكفي محمد الخامس فخرا اعتناقه لنظام الديموقراطية الشعبية وايمانه منذ ايام الحماية بفكرة الملكية الدستورية وطرح مفاهيم العصور الوسطى المطلقة.

فمنذ نداء (سان جرمان ان لي) في السابع من نوفمبر 1955م وهو يتاهب للعودة الى ارض الوطن بعد انجلاء ليل المنفى يخاطب شعبه ويقول : ولنا في تاييدك والتفافك حولنا وفي الوعي القومي الذي عم سائر طبقات الشعب اعظم مشجع لمتابعة المهمة المقدسة الملقاة على عاتقنا .. وتقرأ في خطاب الرباط 1955م (انبعاث امة ج 1 التي يعدها ويقدمها مؤرخ المملكة) : .. ونؤكد لكم من جانبنا اننا نريد ان تكون ملكا دستوريا لدولة عصرية ديموقراطية مستقلة .. ويصرح في 18 نوفمبر من نفس العام : فهذا اوان تضافر الجهود لبناء صرح الوطن الجديد .. عهد يتطلب التجديد في العوائد والمؤسسات والحكم واساليبه كما يتطلب تحرير الفرد ليتمكن من التعبير عن آرائه آمنا مطمئنا .

وهكذا اقدم بمجرد عودته على اطلاق المسجونين السياسيين واستقدام المجاهدين من المنافي واطلاق عنان الحريات والاتصال المباشر مع مختلف طبقات الشعب ورجال الاحزاب وقادة الامة للتعرف على مواطن الداء في الميراث الذي خربه الاستعمار وتخرت قواعده الحماية الاجنبية.

8) اعداد ملك المستقبل :

لم يكن تحرير البلاد وترميم وحدتها وتاسيس الجيش وتعريب الثقافة ومقربة الادارة وتحرير الاقتصاد وغيرها من المنجزات كل ما قدمه محمد الخامس لامته وشعبه.

لقد وضع البذرة المباركة للحياة الكريمة واراد لها النمو والاستمرار وضمان حيويتها ودوام ازدهارها على النحو الذي نهجه اسلافه العظام بتربية ولي العهد واعداد ملك المستقبل جلالة الحسن الثاني الذي امن الاستقلال فضمن بقاء الدولة واقام لها هيكلها فطورها وحضرها وزودها بالجامعات والمعاهد العلمية والمؤسسات التقنية العصرية واسس اعظم مجموعة من السدود وحفظ العلوم والفنون والمعارف بتشييد صرح الاثر الفني النموذجي لعمارة وفنون الاسلام بالمغرب في ضريح المغفور له محمد الخامس ثم خطط للمسيرة الخضراء معجزة العصر وجمع كلمة الاسلام لاول مرة في تاريخ الامة الاسلامية بعاصمة ملكه في مؤتمر العالم الاسلامي واعاد للمغرب مكانته التاريخية العربية والافريقية وغير موازين السياسة والحرب بافريقيا وآسيا. وبهذا يستحق عن جدارة لقب ملك الحدود ولقب ملك المسيرة الخضراء وبه يستجد من القاب يفرضها تفجر امكانياته الفذة .

لقد صدقت رؤية مؤرخ المملكة الاستاذ عبد الوهاب بن منصور عندما قال ان اعظم عمل قدمه محمد الخامس لشعبه هو جلالة الحسن الثاني.

وتذكرنا وصايا وتوجيهات المولى اسماعيل بن الشريف الى ولده الامير مولاي المامون، بالنهج الذي اتبعه سيدي محمد الخامس في تربية شعبه وولي عهده.

وسوف تتضح لنا من خطابه في ذكرى ميلاد ولي عهده في يوليوز 1956م فلسفة الملك العظيم ونوعية تفكيره في الجهاد وتعريب الثقافة واحياء الشخصية المغربية وبعث الروح الشعبية وتربية ولي العهد في نطاق تلك المعالم الوطنية المغربية الاسلامية، ولنطلع الان شبابنا على نبذ من ذلك الخطاب (المنشور في انبعاث امة ج 1 صفحة 171 – 178) التاريخي :

(.. يابني .. لقد عاهد الله والدك أن يحارب في واجهتين، فكان يكافح لاسترجاع حرية البلاد ويعمل في آن واحد لتربية ابنائه وبناته وفي مقدمتهم انت يابني لتكون نموذجا للجهاد ..

.. يابني لقد قدمتك للمعلم ليلقنك آيات القرآن وليغرس في قلبك الطاهر الفتي حب الدين وعزة العروبة والاسلام، ولما ترعرعت يابني اخترت بقاءك تحت سماء المغرب ليتم تكوينك الثقافي في بيئة مغربية فبنيت لك مدرسة خارج القصر ليتربى فيك الاعتماد على النفس فحرمتك من مجاملة الخادمات وحنان المربيات حتى تزدهر شخصيتك وتصبح

عصاميا بارزا قبل ان تكون اميرا، ثم احطتك برفاق من مختلف طبقات الشعب لانني كنت اريد ان اعدك اعدادا منتزعا من بيئة بلادك..

يابني، لقد كنت صارما مع الاساتذة وكنت الح عليهم ان يعودوك الطاعة والامتثال والا يتساهلوا معك والا يحترموا الا القيم الانسانية المجردة ..

يابني، لقد كنت مدققا وملحا في ان يسود النظام حياتك كما كنت حريصا على ان انسيك جو الملك والامارة .. وكانت غايتي يابني ان اجعل منك ومن رفاقك نموذجا لما ينبغي ان يكون عليه الشباب المغربي .. وان امكنك من فضيلة القديم والحديث .. ولقد درست لغتك العربية ودينك الاسلامي وكرعت من معين المعرفة والعلوم القديمة والحديثة حتى ارتويت لتعود قادرا على معرفة ما يجري حولك في العالم وتصبح رجل القرن العشرين الواعي العارف المطلع .. وكنت احرص على التنافس في ثقافتك لاني اعلم ان مشكلة العصر هي التشبث بالقديم وحده او الافتتان بالجديد وحده ..

يابني .. لقد كنت ادربك على تعاليم الاسلام واحترام اوامره واقامة شعائره .. وكيف يجب ان تعامل اباك واخوتك وشعبك والناس اجمعين ..

يابني ان والدك يؤمن بان قيادة الامم وتسيير الدول فن قائم بذاته فلا يكفي فيه التعليم والتربية وحدها بل بد من تكوين عملي يومي .. فاعددتك مواطنا مغربيا قبل اعدادك اميرا .. وكنت القنك معنى المواطنة حتى تؤدي ولاية العهد التي انطتاها بك واحرص على ان تؤمن بالواجب الوطني والصالح العام وكنت ادفعك لتتعمق في قيم معنى الشعب لتخدمه الخدمة الصادقة.

يابني .. لقد شاءت عناية الله ان تنجح .. حتى اذا اصبحت رجلا وجدت فيك خلال الازمات التي مرت علينا المشجع والمعين والانيس الامين .. فعندما تدلهم الامور وتشتد الازمات وقد احاط بي المفرضون .. اخلو اليك في القصر فاجد في حديثك ايمان الشباب وامل الشباب .. وفي المنفى يابني بفضل تربيتك الصالحة لم نكن نشعر بالابعاد والاقصاء من الاوطان وانما كنا نعد انفسنا في خلوة نعد فيها برامج مغرب الغد ..

والان وقد عدنا يابني اشهد لك امام شعبك بانك جابهت المنحة انت والاسرة كلها بايمان الواثقين بمستقبل بلادهم، والمكافحين المستميتين في سبيل وطنهم وان من اغلى امنياتي ان تنشر يوميات المنفى في يوم من الايام ليرى الشعب كيف ان التكوين الصحيح يتغلب على كل الصعاب ويقير الازمات.

يابني لست انسى عطفك وبرك واحساسك الابن البار يوم حلقت بنا الطائرة الى المنفى ولم يبق هناك ملك ولا امير .. كنت اشعر يابني انك تريد ان تتقمص الالم وحدك ..

يابني، قل للشباب ان الجيل الحاضر كافح في سبيل الاستقلال، وعليهم ان يتابعوا الكفاح بتثبيت هذا الاستقلال ولازدهار البلاد ورفاهيتها وتقدمها في عهد الاستقلال ..

* * *

هذا هو محمد الخامس جازاه الله عن المغرب والعروبة والاسلام خير الجزاء وانزله منازل الصالحين والشهداء مع اصحاب الميمنة وابطال الاسلام السابقين المقربين في جنات النعيم جزاء بما كانوا يعملون ..

مدخل إلى الظاهرة القرآنية

- 2 -

للأستاذ محمود شاكر

هذا بعض ما أدى اليه النظر المجرد في استخراج المعنى الذي هو مناط التحدي ، ومفصل الاعجاز ، وارجو أن أكون قد بلغت في كشفه مقنعا ورضى . ولكن بقي ما لا بد منه : أن نستنبط بهذا الاسلوب من النظر المجرد ، صفة القوم الذين تحداهم ، وصفة لغتهم .

فاذا صح أن « الاعجاز » كائن في وصف القرآن ونظمه وبيانه بلسان عربي مبين ، وأن خصائصه مباينة للمعهود من خصائص كل نظم وبيان تطيقه قوى البشر في بيانهم ، لم يكن لتحديهم به معنى الا أن تجتمع لهم وللغتهم صفات بعينها :

اولها : أن اللغة التي نزل بها القرآن معجزا ، قادرة بطبيعتها هي ، أن تحتمل هذا القدر الهائل من المفارقة بين كلامين : كلام هو الغاية في البيان فيما تطيقه القوى ، وكلام يقطع هذه القوى ببيان ظاهر المباينة له من كل الوجوه .

ثانيها : أن اهلها قادرون على ادراك هذا العجز الفاصل بين الكلامين . وهذا ادراك دال على انهم قد اوتوا من لطف تذوق البيان ومن العلم بأسراره ووجوهه ، قدرا وافرا يصح معه ان يتحداهم بهذا القرآن ، وأن يطالبهم بالشهادة عند سماعه ، أن تدليه عليهم نبي من عند الله مرسل .

ثالثا : أن البيان كان في انفسهم اجل من ان يخونوا الامانة فيه ، او يجوروا عن الانصاف في الحكم عليه . فقد قرعهم وغيرهم وسفه احلامهم واديانهم ، حتى استخرج اقصى الضراوة في عداوتهم له . وظل مع ذلك يتحداهم ، فشهتهم اماتتهم على البيان عن معارضته ومناقضته وكان ابلغ ما قالوه : « وقد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » ، ولكنهم كفوا السنتهم فلم يقولوا شيئا .. هذه واحده . واخرى : انه لم ينصب لهم حكما ، بل خلى بينهم وبين الحكم على ما يأتون به معارضين له ثقة بانصافهم في الحكم على البيان ، فهذه التخلية مرتبة من الانصاف لا تدانيها مرتبة .

رابعها : ان الذين اقتدروا على مثل هذه اللغة ، واتوا هذا القدر من تذوق البيان ، ومن العلم بأسراره ، ومن الامانة عليه ، ومن ترك الجور في الحكم عليه ، يوجب العقل أن يكونوا كانوا قد بلغوا في الاعراب عن انفسهم ، بالسنتهم المبينة عنهم ، مبلغا لا يدانى .

وهذه الصفات تفضي بنا الى التماس ما ينبغي ان تكون عليه صفة كلامهم ، ان كان يقي من كلامهم شيء ، فالنظر المجرد ايضا ، يوجب أمرين في نعت ما خلقوه :

الاول : ان يكون ما بقي من كلامهم ، شاهدا على بلوغ لغتهم غاية من التمام والكمال والاستواء ، حتى لا تعجزها الابانة عن شيء مما يعلج في صدر كل مبين منهم .

الثاني : ان تجتمع فيه ضروب مختلفة من البيان ، لا يجزىء ان تكون دالة على سعة لغتهم وتمامها ، بل على سجاجتها ايضا ، حتى تلين لكل بيان تطيقه السنة البشر على اختلاف السنتهم .

فهل بقي من كلامهم شيء يستحق ان يكون شاهدا على هذا ودليلا ....

نعم ، بقي « الشعر الجاهلي » !

واذن ؟ ! . اذن ينبغي أن نعيد تصور المشكلة وتصويرها . فان النظر المجرد ، والمنطق المتسارق ، والتمحيص المتتابع كل ذلك قد افضى بنا الى تجريد معنى « اعجاز القرآن » مما شابه وعلق به . حتى خلص لنا انه من قبل النظم والبيان ، ثم ساقنا الاستدلال الى تحديد صفة القوم الذين تحداهم ، وصفة لغتهم ، ثم خرج بنا الى طلب نعت كلامهم ، ثم التمسنا الشاهد والدليل على الذي ادانا اليه النظر ، فاذا هو .. « الشعر الجاهلي » .

واذن ، فالشعر الجاهلي ، هو اساس مشكلة « اعجاز القرآن » كما ينبغي ان يواجهها العقل الحديث وليس اساس هذه المشكلة هو تفسير القرآن على المنهج القديم ، كما ظن اخي مالك ، وكما يذهب اليه اكثر من بحث امر اعجاز القرآن على وجه من الوجوه .

ولكن الشعر الجاهلي ، قد صب عليه بلاء كثير ، آخرها وابلغه فسادا وافسادا ، ذلك المنهج الذي ابتدعه مرجليوث ليسقط الثقة به ، فيزعم أنه شعر مشكوك في روايته ، وانه موضوع بعد الاسلام ، وهذا المكر الخفي الذي مكره مرجليوث وشيعته وكهنته والذي ارتكبوا له من السفسطة والغش والكذب ما ارتكبوا كما شهد بذلك رجل من جنسه هو آر بري ، كان يطوي تحت أدلته ومناهجه وحججه ، ادراكه لمنزلة الشعر الجاهلي في شأن اعجاز القرآن ، لا ادراكا صحيحا مستبينا ، بل ادراكا خفيا مبهما ، تخالطه ضغينة مستكنة للعرب وللاسلام

وهذا المستشرق وشيعته وكهنته ، كانوا اهون شانا من ان يجوزوا كبيراً بمنهجهم الذي سلكوه ، وأدلتهم التي احتطبوها لما في تشكيكهم من الزيف والخداع ، ولكنهم بلغوا ما بلغوا من استفاضه مكرهم وتغلغله في جاسماتنا ، وفي العقل الحديث في العالم الاسلامي ، بوسائل اعانت على نفاذهم ، ليست من العلم ولا من النظر الصحيح في شيء ، وقد استطاع رجال من اهل العلم ، أن يسلكوا الى اثبات صحة الشعر الجاهلي مناهج لا شك في صدقها وسلامتها ، بلا غش في الاستدلال وبلا خداع في التطبيق . وبلا مراء في الذي يسلم به صريح العقل وصريح النقل ، الا انهم لم يملكوا بعد من الوسائل ما يتيح لهم ان يبلغوا بحقهم ما بلغ اولئك بباطلهم .

وقد ابتليت انا بمحنة « الشعر الجاهلي » . عندما ذر قرن الفتنة ايام كنت طالبا في الجامعة ، ودارت بي الايام حتى انتهيت الى ضرب آخر من الاستدلال على صحة « الشعر الجاهلي » . لا عن طريق روايته وحسب . بل من طريق اخرى هي الصق بامر « اعجاز القرآن » . فاني محصت ما محصت من الشعر الجاهلي ، حتى وجدته يحمل هو نفسه في نفسه أدلة صحته وثبوته . اذ تبينت فيه قدرة خارقة على « البيان » . وتكشف لي عن روائع كثيرة لا تحد ، واذا هو علم فريد منصوب لا في ادب العربية وحدها ، بل في آداب الامم قبل الاسلام وبعد الاسلام . وهذا الانفراد المطلق ، ولا سيما انفراده بخصائصه عن كل شعر بعده من شعر العرب أنفسهم ، هو وحده دليل كاف على صحته وثبوته .

ولقد شغلني « اعجاز القرآن » كما شغل العقل الحديث ، ولكن شغلني ايضا هذا « الشعر الجاهلي » ، وشغلني اصحابه فادى بي طول الاختبار والامتحان والمدارسة الى هذا المذهب الذي ذهبت اليه ، حتى صار عندي دليلا كافيا على صحته وثبوته . فاصحابه الذين ذهبوا ودرجوا وتبددت في الثرى اعيانهم ، رايتهم في هذا الشعر احيانا يغدون ويروحون ، رايت شبابهم ينزو به جهله ، وشيخهم تدلف به حكمته ، ورايت رائضهم يستثير وجهه حتى يشرق ، وغاضبهم تربد سحنته حتى تظلم ، ورايت الرجل وصديقه ، والرجل وصاحبته ، والرجل الطريد ليس معه احد ، ورايت الفارس على جواده ، واعادي على رجليه ، ورايت الجماعات في مبداهم ومحضرهم ، فسمعت غزل عشاقهم ، ودلال فتياتهم ، ولاحت لي تيرانهم وهم يصطلون ، وسمعت انين باكيهم وهم للفراق مزمعون ، كل ذلك رايته وسمعته من خلال الفاظ هذا الشعر ، حتى سمعت في لفظ الشعر همس الهامس ، وأبجة المستكين ، وزفرة الواجد ، وصرخة الفزع . وحتى مثلوا بشعرهم نصب عيني ، كأني لم أفقدهم طرفة عين ، ولم افقد منازلهم ومعاهدهم ، ولم تغب عني مذاهبهم في الارض ، ولا مما احسوا ووجدوا . ولا مما سمعوا وادركوا ، ولا مما قاسوا وعانوا ، ولا خفي عني شيء مما يكون به الحي حيا في هذه الارض التي بقيت في التاريخ معروفة باسم « جزيرة العرب »

وهذا الذي افضيت اليه من صفة الشعر الجاهلي كما عرفته ، امر ممكن لمن اتخذ لهذه المعرفة اسبابها ، بلا خلط ولا لبس ولا تهاون ولا ملل - وهذه المعرفة هي اول الطريق الى دراسة شعر اهل الجاهلية ، من الوجه الذي يتيح لنا أن نستخلص منه دلالته على انه شعر قد انفرد بخصائصه عن كل شعر جاء بعده من شعر اهل الاسلام . فاذا صح ذلك ، وهو عندي صحيح لا اشك فيه ، وجب أن ندرس هذا الشعر دراسة متعمقة ، ملتمسين فيه هذه القدرة البيانية التي يمتاز بها اهل الجاهلية عمن جاء بعدهم ، ومستنبطين من ضروب البيان المختلفة التي اطاقتها قوى لغتهم واستنتهم . فاذا تم لنا ذلك ، فمن الممكن القريب يومئذ أن نتلمس في القرآن الذي اعجزهم بيانه ، خصائص هذا البيان المفارق لبيان البشر .

وها هنا امر لهخطر عظيم، فلا نظن ان للشارق في دراسة « الشعر الجاهلي » ، هو شان المعاني التي نتناولها ، والاغراض التي قيل فيها ، والصور التي انطوى عليها ، واللغة التي استخدمها من حيث الفصاحة والعذوبة وما يجري مجراهما ، بل الشان في ذلك ابعد واعمق واعوص ، انه تمييز القدرة على البيان ، وتجريد ضروب هذا « البيان » على اختلافها، واستخلاص الخصائص التي أتاحت للقتهم ان تكون معدنا للسمو ، بالابانة عن جوهر احساسهم ، سموا يجعل للكلام حياة كنفخ الروح في الجسد القائم ، وكقوة الابصار في العين الجامدة ، وكحجية النطق في البضعة المتجلجلة المسماة باللسان .

فاذا اتحدنا لهذه الدراسة اهبتها ، واعددنا لها من الصبر والجد والحذر ما ينبغي لها ، واللسان لساننا ، والقوم اسلافنا ، والسلائق مغروزة في اعماق طباعنا ، ثم اصلنا للدراسة مناهج نتعين عليها ، واستحدثنا لها اسلوبا يلائمها ، فعندئذ يدنو الذي نراه بعيدا ، ويتجلى لنا ما كان غامضا ، ويكشف لنا « الشعر الجاهلي » عن اروع روائعه ، ويبذل لنا ما استكن فيه واستتر من اصول « البيان » الانساني ، بغير تخصيص للغة العرب ، فنراها ماثلة على ادق وجوهه واغمضها ، وفي اتم صورة واكملها .

وهذا الذي افضت فيه من ذكر الشعر الجاهلي، وما وجدته فيه في نفسي باب عظيم ، اسال الله أن يعينني بحوله وقوته ، حتى اكشف عنه واجليه ، وحتى أؤيده بكل برهان قاطع على تميزه عن كل شعر العرب بعده ، وبذلك يكون نفسه دليلا حاسما على صحة روايته ، وعلى أن الرواة لم يتخطوه الشعراء افتراء عليهم .

وغير مخاف ان الذي وصلنا الى هذا اليوم من شعر الجاهلية ، قليل مما روته الرواة منه ، والرواة القدماء انفسهم لم يصلهم من شعرها الا الذي قال ابو عمرو بن العلاء ، في اوائل القرن الثاني من الهجرة : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » . ومع ذلك ، فهذا القليل مجزىء ان شاء الله في الدلالة على ما تريد من الابانة عن تميز شعرهم عن شعر من جاء بعدهم ، وفيه جم واف من خصائص البيان التي امتاز بها اهل الجاهلية .

ولكن كيف بقي هذا الشعر الى يومنا هذا ؟ .. بقي مادة للغة العرب ، وشاهدا على حرف من العربية ، وعلى باب من النحو ، وعلى نكتة في البلاغة. وبقي ذخرا للرواة ، وركازا يستمد منه شعراء الاسلام ، ومنبعا لتاريخ العرب في الجاهلية ، بل بقي كنزا لعلوم العرب جميعا ، لكل علم منه نصيب على قدره . ولكن غاب عنا اعظم ما بقي له هذا الشعر: أن يكون مادة لدراسة البيان المفطور في طبائع البشر، مقارنا بهذا « البيان » الذي فات طاقة بلغاء الجاهلية، وكانت له خصائص ظاهرة ، تجعل كل مقتدر بليغ مبين ، وكل متذوق للبلاغة والبيان ، لا يملك الا الاقرار له ، بانه من غير جنس ما يعهده سمعه وذوقه، وان مبلغه الى الناس نبي مرسل ، وانه لا يطيق ان يخلقه او يفتريه لانه بشر لا يدخل في طوقه الا ما يدخل مثله في طوق البشر ، وانه ان يقول غير ما امر بتبليغه وتلاوته ، بأن للبشر كلهم ، وحق عليه قول منزله من السماء سبحانه : « ولو تقول علينا بعض الاقاويل . لاخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من احد عنه حاجزين » .

(سورة الحاقة ـ 44 ـ 47

ولسائل أن يسأل : فحدثني اذن ، لم يبق شعر الجاهلية بهذه المنزلة لم يتجاوزها ؟ وكيف غاب هذا الذي زعمت عن ائمة العلم من قبلك ؟ وكيف اخطأه علماء البلاغة ، وهم الذين قصدوا بعلمهم قصد الابانة عن اعجاز القرآن ، وهم اقرب بالتنزيل عهدا منا ومنك . ؟ وما الذي صد العقول اليلبقة عن سلوك هذا المنهج ، وما نهضت الا للمراماة دون اعجاز القرآن. في القديم والحديث . ؟

وحق علي أن أجيبه ، ولكن يقتضيني جـواب هذه المسألة أن اقتص قصة أخرى ، لا أستوعب القول في حكايتها مفصلا ، بل أوجز المقال فيهـا ايجازاً مدفوعا عنه الخلل ما أطقت ، وعلى سامعها أن يدفع عن نفسه القفلة ما اطاق ؟ !

فاهل الجاهلية هم من وصفت لك منزلتهم من البيان ، وقدرتهم على تصريفه بالسنتهم ، وتمكنهم من تذوقه بأدق حاسة في قلوبهم ونفوسهم ، وعلمهم باسراره ، وتغلغلهم في ادراك الحجاز الفاصل بين ما هو من نحو بيان البشر ، وما ليس من بيانهم ، أهل الجاهلية هؤلاء ، هم الذين جاءهم كتاب من السماء بلسانهم ، هو في آيات الله بمنزلة عصا موسى ، وابراء الاكمه والابرص في آيات انبيائه ، لتكون تلاوته على أسماعهم برهانا قاهرا يلزمهم بالاقرار له بصحة تنزيله من السماء على قلب رجل منهم ، وأن هـذا الرجل نبي مرسل ، عليهم أن يتبعوه وان يستجيبوا لما دعاهم اليه ، فلما كذبوه وانكروا نبوته ، تحداهم ان يأتوا بمثل هذا الذي يسمعون في نظمه وبيانه ، والح عليهم بتحداهم في آيات منه كثيرة ، ولكنهم وجدوا في انفسهم مفارقته لبيان البشر ، وجدانـا الجاهم الى ترك المعارضة انصافا للبيان أن يجار على حقه ، وتنزيها له أن يزري به جورهم من هذا الحق.

وعلى الذي تلقوه به من اللدد في الخصومة والعناد لم يلبث أن استجاب له النفر بعد النفر اقرارا وتسليما بأن الكتاب كلام الله ، وأن الرجل نبي الله ، ثم تتابع ايمان المؤمنين منهم ، حتى لم تبق دار من دور أهل الجاهلية الا دخلها الاسلام أو عمها ، وألقوا اليه المقادة على انه لا يتم ايمان أحدهم حتى يكون هذا الرجل ، بأبي هو وامي ، أحب اليـه من أهلـه وولده . وهذه أعمالهم تصدق ذلك كلـه .

فاقبل كل بليغ منهم مبين ، وكل متذوق للبيان ناقد يتحفظ ما نزل من القرآن ويتلوه ويتعبد بـه ، ويتتبع تنزيله تتبع الحريص المتلهف ، ويصيخ لـه وينصت حتى يتلى في الصلوات وعلى المنابر يومـا بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، وعاما بعد عام ، وكلهم مخبت خاشع لذكر الله وما نزل من الحق ، يصدق اخباتهم وخشوعهم ما قال الله سبحانه : « الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد » . (سورة الزمر 23)

ثم صار للقرآن في جزيرة العرب ذوي كدوي النحل ، وخشعت اسماع للجاهلية كانت بالامس ، للذي يتلى عليهم من كلام الله الذي خلقهم ، وجعل لهم السمع والابصار والافئدة ، واخبتت السنة الجاهلية كانت بالامس ، اقرارا لهذا القرآن بالعبودية ، كما أقروا هم للذي أصطفى لغتهم لكلامه سبحانـه بالعبودية ، وماجت بهم جزيرة العرب مهللين مكبرين مسبحين ، كلما علوا شرفا او هبطوا واديا ، واقاموا تالين للقرآن بالغدو والآصال ، وبالليل والاسحـار وانطلقوا يتشيعون سنن نبيهم ويتلقفونها ، وخلعوا عن قلوبهم ، ونفوسهم ، وعقولهم ، والسنتهـم ظلمـة الجاهلية ، ودخلوا بالسنتهم وعقولهم ، ونفوسهم ، وقلوبهم في نور الاسلام .

ثم طار بهم هذا القرآن في كل وجه ، يدعون الناس اسودهم واحمرهم الى شهادة ان لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، ويحملون اليهم هذا الكتاب المعجز ببيانه لبيان البشر ، والذي نزل بلسانهم حجة على الخلق ، وهدى يخرجهم من الظلمات الى النور . فكان من أمرهم يومئذ ما وصفه ابن سلام في كتاب « طبقات فحول الشعراء » حين ذكر مقالة عمـر بن الخطاب في أهل الجاهلية : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » . فقال ابن سلام تعليقا على ذلك : « فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهـت عن الشعـر وروايته ، فلما كثر الاسلام ، وجـاءت الفتـوح ، واطمأنت العرب في الامصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا الى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتـوب ، وألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالمـوت والقتل ، فحفظوا اقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير » .

ولا بغرورك ما قال ابن سلام ، فتحسب ان اهل الجاهلية الذين هداهم الله للاسلام ، طرحوا شعـر جاهليتهم دبر آذانهم ، فانصرفوا عنه صما وبكمـا ، وخلعوه عن عقولهم والسنتهم كما خلعوا جاهليتهم ، فهذا باطل تكذبه أخبارهم ، وينقضه منطق طبائـع البشر ، وتاريخ حياتهم ، بل كان أكبر ما لحقـه من الضيم : أن نازعه القرآن صرف همهم اليـه ، فكان نصيبه من انشادهم وتقصيدهم القصائد اقل مما كان في جاهليتهم ، ولكنه بقي مع ذلك هو الذي يؤبـون اليه اذا شق عليهم طول مدارسة القرآن ، وهو الذي يستريحون اليه اذا فرغوا مما فرض عليهم ربهـم ، وسن لهم نبيهم صلى الله عليه وسلم . وظل ذلـك دابهم في أول اسلامهم ، ونشأ ابناؤهم يسمعون منهم

شعر جاهليتهم ويستمعون الى مكنوز بيانهم في السنتهم ، فيخرجون ايضا مركوزا ذلك البيان في طباعهم ، وينتقل ذلك بما يشبه العدوى الى مسلمة الاعاجم وابنائهم .

وحيث نزل أهل الجاهلية الذين اسلموا ، نزل معهم الذكر الحكيم ، ونزل شعر الجاهلية وتدارسوه وتناشدوه ، وقاموا به لسان الذين أسلموا من غير العرب . واصبح زاد المتفقه في معرفة معاني كتاب ربه ، هو مدارسة الشعر الجاهلي ، لانه لا يستقل احد بفهم القرآن حتى يستقل بفهمه وحسبك ان تعرف مصداق ذلك قول الشافعي فيما بعد ، في القرن الثاني من الهجرة : « لا يحل لاحد ان يفتي في دين الله ، الا رجلا عارفا بكتاب الله ، بناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، وتاويله وتنزيله ، ومكيه ومدنيه ، وما اريد به . ويكون بعد ذلك بصيرا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالناسخ والمنسوخ ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن ، ويكون بصيرا باللغة ، بصيرا بالشعر ، وما يحتاج اليه للسنة والقرآن » . فليس يكفي أن يكون عارفا بالشعر ، بل بصيرا به اشد البصر ، كما قال الشافعي رحمه الله ، والذي قاله الشافعي بعد قرن، هو الذي جرى عليه في أول الاسلام .

واستفاضت بالمسلمين الفتوح ، واستفاض معهم شعر جاهليتهم ، واسلمت الامم ودخلت في العربية كما دخلت في الاسلام ، ونزل بيان القرآن كالغيث على فطرة جديده ، فطرة اهل الالسنة غير العربيه ، بعد أن رويت من بيان الجاهلية في الشعر الجاهلي . وامتزجت العرب من الصحابة والتابعين وابنائهم ، باهل هذه الالسنة التي دخلت في العربية، فنشأ من امتزاج ذلك كله بيان جديد ، ظل يتسلسل ويتغير ويتبدل ، جيلا بعد جيل ، ولكن يقي أهله بعد ذلك كله ، محتفظين بقدرة عتيدة حاضرة ، هي تذوق البيان تذوقا عليما ، يعينهم على تمييز بيان البشر كما تعهده سلائقهم وفطرهم ، وبيان القرآن الذي يفارق خصائص بيانهم من كل وجه .

ثم قارت الارض بالاسلام من حد الصين شرقا الى حد الاندلس غربا ، ومن حد بلاد الروم شمالا الى حد الهند جنوبا ، وسمع دوي القرآن العربي في ارجاء الارض المعمورة . وقامت المساجد في كل قرية ومدينة وازدحمت في ساحاتها صفوف عباد الرحمن، وعلا منابرها الدعاة الى الحق ، وتحلقت الحلق في كل مسجد ، وتداعى اليها طلاب العلم ، فطائفة تتلقى القرآن من قرائه ، وطائفة تدرس تفسير آياته ، وطائفة تروي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حفاظه ، وطائفة تاخذ العربية عن شيوخها ، وطائفة تتلقف شعر الجاهلية والاسلام عن رواته ، طوائف بعد طوائف في انحاء المساجد المتدانية ، طوائف من كل لون وجنس ولسان ، كلهم طالب علم، وكلهم ينتقل من مجلس شيخ الى مجلس شيخ آخر ، فكل ذلك علم لا يستغني عنه مسلم تال للقرآن . لا بل حتى أسواقهم قام فيها الشعراء ينشدون شعرهم، ويتناشدون به ويتهاجون ، والرواة تحفظ ، والناس يقبلون ينصتون ، ويتقلبون يتجادلون ، وعجت نواحي الارض بالقرآن وباللسان العربي ، لا فرق بين ديار العجم كانت وديار العرب .

وبعد دهر نبتت نابتة الشيطان في أهل كل دين ، وجاؤوا بالمراء والجدل ، وباللدد والخصام ، وشققوا الكلام بالراي والهوى ، فتشأت بوادر من النظر في كل علم ، وعندئذ تجم الخلاف ، وانتهى الخلاف الى الجراة ، وافضت الجراة يوما الى رجل في أواخر دولة بني امية يقال له « الجعد بن درهم »، وكان شيطانا خبيث المذهب ، تلقى مذهبه عن رجل من ابناء اليهود ، يقال له « طالوت » ، فكذب القرآن في اتخذ ابراهيم خليلا ، وفي تكليم موسى ، الى هذا وشبيه ، وكان من قوله : ان فصاحة القرآن غير معجزة ، وان الناس قادرون على مثلها واحسن منها !! .. فضحى به خالد بن عبد الله القسري في عيد الاضحى ، في نحو سنة 124 من الهجرة .

وكلام الجعد ، كما ترى ، استطالة رجل جريء اللسان ، خبيث المنبت ، بلا حجة من تاريخ أو عقل.

ولم تكد دولة بني العباس ترسي قواعدها حتى دخلت بعض العقول الى فحص « اعجاز القرآن » ، من باب غير باب السفه والاستطالة ، فقام بالامر كيف المعتزلة ولسانها : « ابو اسحق ابراهيم بن سيار النظام » . فاتاه من قبيل الراي والنظر ، حتى زعم ان الله قد صرف العرب عن معارضة القرآن ، مع قدرتهم عليها ، فكانت هذه الصرفة هي المعجزة، اما معجزة القرآن ، فهي في اخباره بكل غيب مضى، وكل غيب سيأتي . وهذه مقالة لا أصل لها الا الحيرة والابهار من هذا الذي أعجز أهل الجاهلية واسكتهم. وهب قوم يعارضونه ويجادلونه ، منهم صاحبه ابو عثمان الجاحظ ، فالف كتابه في « نظم القرآن » ، وانه غاية في البلاغة ، وقال الجاحظ وغيره ومن

يليهم ، ولكن ظل الامر محصورا في اثبات « الصرفة» وابطالها ، وفي طرف من الاستدلال على بلاغة القرآن وسلامته مما يشين لفظه ، وخلوه من التناقض ، واشتماله على المعاني الدقيقة ، وما فيه من نبأ الغيب ، الى آخر ما تجده مبسوطا في كتب القوم ، والذي عرفت قولنا فيه فيما مضى من كلامنا .

ثم كثرت اللجاجة بين هذه الفئات ممن عرفوا باسم المتكلمين ، وكان امرهم امر جدال وبسطة لسان ، وعلبة حجة ، ومناقضة دليل بدليل ، حتى اذا صارت مسألة « اعجاز القرآن » مسألة تستوجب ان ينبري لها رجل صادق ، انبرى لهؤلاء المتكلمين « ابو بكر الباقلاني » (المتوفى سنة 403) ، والناس يومئذ بين رجلين كما قال هو نفسه . ذاهب عن الحق ، ذاهل عن الرشد ، وآخر مصدود عن نصرته ، مكدود في صنعته ، فقد ادى ذلك الى خوض الملحدين في اصول الدين ، وتشكيكهم اهل الضعف في كل يقين .. وذكر لي عن بعض جهالهم انه جعل يعد له ببعض الاشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه ، وليس هذا ببدع من ملحدة هذا العصر ، وقد سبقهم الى عظم ما يقولون اخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم » (كتابه اعجاز القرآن ص 5 و 6) فهذا هو الذي حفزه واهاجه ، حتى كتب كتابه المعروف «اعجاز القرآن».

وكتب الباقلاني كتابه وأهل اللسان العربي يومئذ هم الناس ، ولم يزل تذوقهم للبيان ما وصفت لك ، تذوق مليس بانطباع ، مردود الى السلائق ، مشحوذ بمدارسة الشعر وسماعه وروايته ولكن لم يضر جمهور هذه الطباع شيئا ان استفاض الجدل وظهر سلطانه ، وان صارت كل فرقة تمضغ كلاما ، تناضل به عن رايها ، وتقطع به حجة خصمها ، طلبا للغلبة ، لا تمحيصا للرأي ، وفحصا عن الحق .

ورضي الله عن ابي بكر الباقلاني ، فقد جمع في كتابه خيرا كثيرا ، واستفتح بسليم فطرته ابوابا كانت قبله مغلقة ، وكشف عن وجوه البلاغة حجابا مستورا. ولكنه زل زلة كان لها بعد ذلك آثارا متلاحقة ، وان لم يقصد بها هو قصد العاقبة التي انتهت اليها .

كان الباقلاني حقيقا ان ينهج النهج الذي أداه اليه تمحيص مسألة « الإعجاز » ، ويومئذ يجعل الشعر الجاهلي أصلا في دراسة بيان عرب الجاهلية، من ناحية تمثله لخصائص بيان البشر . والباقلاني رضي الله عنه كان يجد في نفسه وجدانا واضحا أن خصائص بيان القرآن مفارقة لخصائص بيان البشر، وقد المح الى ذلك في كتابه ، كما المح اليه من سبقه بيد ان جدل المتكلمين قبله وعلى عهده ، وخوض الملحدين في اصول الدين كما قال ، ومنهجهم في اللجاجة وطلب الغلبة ، كل ذلك لم يدعه حتى استغرقه في الرد عليهم ، على مثل مناهجهم من النظر . ثم دارت به الدنيا ، لما بلغه ان بعض جهالهم يعدل القرآن ببعض الاشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام .

وانت تستطيع ان تقرأ كتابه فصلا فصلا لتجد مصداق ما اقول لك . حتى اذا انتهى الى الذي هاجه ، من موازنة القرآن ببعض الاشعار ، هب الى تسفيه هذه الموازنة ، فدعاك في اوسط كتابه ان تعمد معه الى ما لا تشك في جودته من شعر امرئ القيس ، وما لا ترتاب في براعته ، ولا تتوقف في فصاحته ، كما قال في كتابه (241) فطرح بين يديك هذه القصيدة ، وجعل يفصلها وينقدها ويمحو من محاسنها ويثبت ، ويقف بك على مواضع خللها ، ويفضي بك الى مكان ضعفها ، ولم يزل يعريها حتى كشف الغطاء عن عوارها ، ثم ختم ذلك بقوله : « وقد بينا لك ان هذه القصيدة ونظائرها ، تتفاوت في ابياتها تفاوتا بينا في الجودة والرداءة ، والسلاسة والانعقاد ، والسلامة والانحلال ، والتمكن والاستصعاب ، والتسهل والاسترسال ، والتوحش والاستكراه ، وله شركاء في نظائرها ، ومنازعون في محاسنها ، ومعارضون في بدائعها » .

فلما انتهى من ذلك افتتح فصلا شريفا نبيلا ، ذكر فيه آيات من القرآن ، وحاول ان يقفك على بدائع نظمها وبيانها ، وهذا الفصل هو أدل الدليل على ان الباقلاني ، لو كان استقام له المنهج الذي ذكرناه ، لبلغ فيه غاية يسبق فيها المتقدم ، ويكد فيها جهد المتأخر ؛ ولكنه لم يزد في هذا الفصل على ان جعل يوقفك على بيان شرف الآيات لفظا ومعنى ، ولطيف حكايتها ، وتلاؤم وصفها ، وتشاكل نظامها ، وان نظم القرآن لا يتفاوت في شيء ، ولا يتباين في امر ، ولا يختل في حال ، بل له المثل الاعلى ، والفضل الاسنى (كتابه ص 302 ، 305) وذكر تناسب الآيات في البلاغة والابداع ، وتماثلها في السلاسة والاعراب، وافرادها بذلك الاسلوب ، وتخصصها بذلك الترتيب . أما غيرها من الكلام ، فهو يضطرب في مجاريه ، ويختل تصرفه في معانيه ، وهو كثير التلون ، دائم التغير والتنكر ويقف بك على بديع متجن ،

ويعقبه بقبيح مستهجن ، وياتيك باللفظة المستنكرة، بين الكلمات هي كاللاليء الزهر (كتابه ص 313، 314) ثم انتهى الى قوله في القرآن : « وعلى هذا فقس بحثك عن شرف الكلام ، وما له من علو الشان ، لا يطلب مطلبا الا انفتح ، ولا يسلك قلبا الا انشرح ، ولا يذهب مذهبا الا استنار واضاء ولا يضرب مضربا الا بلغ فيه السماء ، ولا يقع منه على فائدة فقدرت انها اقصى فوائدها الا قصرت ، ولا تظفر بحكمة فظننت انها زبدة حكمها الا قد اخلت . ان الذي عارض القرآن بشعر امرىء القيس ، لاضل من حمار باهلة، واحمق من هبنقة » (كتابه ص 321 ، 322) .

وصدق الباقلاني في كل ما قال ، الا انه لم يزد على ان بين خلو القرآن من الاختلاف والتغير، وبراءته من كل ما يلحق كلام الناس من عيب وخلل ، وكل ما هو مرين لضعف طبائعهم ، وان استحكمت قواهم ، ودال على عماهم عن كثير من الحق ، وان استنارت بصائرهم . ولعمري انه الحق لا ينال منه الباطل ، ولكنه غير الذي ينبغي أن نتطلبه من كشف اصول البيان التي يفارق بها بيان القرآن بيان البشر من الوجه الذي فصلناه .

وليس هذا موضع بحثنا الآن ، ولكن بحثنا عن الشعر الجاهلي ، وما كان من امره . فهذه الموازنة التي هاجت الباقلاني ، كما ذكر هو حملته على هتك الستر عن معلقة امرىء القيس ، ليكشف للناس عيبها وخللها ، لا ليستخرج منها خصائص بيانهم ، وكيف كانت هذه الخصائص مفارقة لخصائص بيان القرآن فلما زل الباقلاني هذه الزلة ، واخطأ الطريق ، زل به من بعده واخطأه ، واخذوا الشعر الجاهلي كله هذا المأخذ ، ولكن العجب بعد ذلك ان (الشعر الجاهلي) ظل عند البلغاء وجمهور الناس هو مثقف الالسنة ، والحجة على اللغة ، والشاهد على النحو ، وما الى ذلك . ولكنهم اذا جاءوا لذكر القرآن واعجازه ، اتخذوه هدفا للنقد والتفلية ، واظهار العيب ، وتبيين الخلل بازاء كلام برىء من كل عيب وخلل فيقيسى الامر امر موازنة لا مدل فيها . وكان حسبهم من الدليل ان اهل الجاهلية بتركهم معارضة القرآن بشعرهم او كلامهم ، هو اقرار لا معقب عليه بفضل هذا القرآن على شعرهم وكلامهم ، فلم تكن بالباقلاني حاجة الى سلوك هذا الطريق الذي سلكه ، الا ما حمله عليه ما تعق به جاهل من جهال المتلحدة ، من الموازنة بين الكلامين ، وتفضيل شعرهم على القرآن.

وكان قد نازع ذلك باب آخر من اللجاجة ، في الموازنة بين شعر الجاهلية ، وشعر المحدثين من شعراء الاسلام ، وظل الجدال في تفضيل احدهما على الآخر بابا تقتحمه الالسنة طلبا للمغالبة والظهور ، وداخل ذلك من الازراء على الشعر الجاهلي وعيبه ما داخل ، فكان هذا ايضا صارفا عن مدارسته على الوجه الذي طلبناه في صدر حديثنا . وفي خلال ذلك كله ، تجمعت على فهم الشعر الجاهلي اخطاء شديدة الخطر ، غشت حقيقته بحجاب كثيف من الغموض ، زاده كثافة ما لحق الشعر الجاهلي من التشتيت والضياع ، وما اصابه من اختلال الرواية بالزيادة والنقصان ، والتقديم والتاخير ، حتى اختلطت فيه المعاني احيانا اختلاطا ، سهل لكل عائب ان يقول فيه ما عن له . ومع كل ذلك ايضا بقي الشعر الجاهلي مثقفا للالسنة ، ومعدنا لشواهد اللغة والنحو والبلاغة ..

فليت شعري اي بلاء ترى اصاب هذا الشعر !!

ثم تتابعت العصور على ذلك ، وعلى ما هو اشنع منه ، حتى افضينا به في هذا العصر الحديث الى أقبح الشناعة يوم فرض الاستعمار الغربي الغازي ، على مدارسنا منهجا من الدراسة لا يقوم على اصل صحيح كان يرمي في نهايته الى اضعاف دراسة العربية اضعافا شائنا ، لا مثيل له في كل لغات العالم التي يتلقاها الشباب في معاهد التعليم على اختلاف درجاتها . ثم طمت الشناعة بعد سنين ، حين عزلت اللغة العربية كلها عزلا مقصودا عن كل علم وفن ، واصبح الشباب يتعلم لغته على انها درس معدد ، هو ثقيل بهذا التحديد المجرم على كل نفس ، وبخاصة نفوس الشباب الغض . ثم لما انشئت الجمعية ، ودخلها هؤلاء الشباب على ما هم فيهم من الملل بلغتهم ، ومن الاستهانة بامرها ، طلع قرن الشيطان بفتنة (الشعر) والتشكيك في صحة روايته ، وطار الشر الى الصحافة ، فانخذت اللغة القديمة كلها لا الشعر الجاهلي وحده ، مادة للهزء والسخرية ، والنكتة والرواية ، لا بل تندروا بكل من يقي على شيء من المحافظة على سلامة اللغة ، سلامة هي كابراء الذمة لا اكثر ولا اقل .

هذا تاريخ مختصر للاسباب التي وقفت بالشعر الجاهلي حيث وقف قديما ، فحالت بين علماء البلاغة والمنهج الذي كشفته وبينته ، وكان لزاما عليهم وعلينا ان نسلكه لدراسة اعجاز القرآن ، دارسة

صحيحه سليمة من الآفات . وهو تاريخ اشد اختصارا لذى تبع ذلك فى العصر الحديث ، لما صار (الشعر الجاهلي) ملهاة يتلهى بها كل من ملك لسانا ينطق ؛ حتى انقى ذلك كله ظلا من الكآبة والظلمة على دراسات المحدثين في الجامعة وغير الجامعة ، حيـن يدرس أحدهم هذا الشعر ، هذا الشعر الذي كان حيـن انزل الله القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلـم ؛ نورا يضيء ظلمات الجاهلية ، ويعكف اهله لبيانـه عكوف الوثنى للصم ، ويسجدن لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لاوثانهم قط . فقـد كانوا عبـدة لبيان قبل أن يكونوا عبدة الاوثان ! وقد سمعنا بمن استخف منهم بأوثانهم ، ولم نسمع قط بأحد منهم استخف ببيانهم .

وانت خليق ان تعرف ان الشيء الذي طلبتـه واحتجبت له ، وحاولت ان اكشـف عن منهاجـه ومذهبه ، انما يتعلق بخصائص البيان فى القـرآن ؛ وخصائص بيان البشر على اختلاف السنتهم ، وان مخرج هذا غير مخرج هذا ، وان الشعر الجاهلـي ؛ انما هو مادة الدراسة الاولى ، لان القرآن نزل بلسان العرب ، والذين نزل عليهم ثم تحداهم واعجزهم ، هم اصحاب هذا الشعر والمفتونون به وببيانه . وهـذا باب غير الباب الذي افتتحه الباقلانـي ، ثم فجـر عيونه امام البلاغة (عبد القاهر الجرجاني) (المتوفى سنة 474) في كتابيه (دلائل الاعجاز) ، و (اسرار البلاغة) ، ثم ابدع فيه العلماء ما ابدعوا ، وزادوا فيه عليه ونقصوا . وكان ذلك بعد أن اغلق الباب الذي فصلنـا القول فيه ، كان هو الجدير بان يفتتحـه الباقلاني وعبد القاهر .

فاذا تم ما دعونا اليه لاهل هذا اللسان العربي يوما ما . وعسى أن يكون ذلك بتوفيق الله ، فيكون ذلك فتحا مبينا لا فى تاريخ البلاغة العربية وحدها ، بل فى تاريخ بلاغة الجنس الانسـاني كله . وسيكون ايضا مقنعا ، ورضى لهذا (العقل الحديث) الـذي يتطلب فى معرفة (اعجاز القرآن) ما يرضى عنـه ويطمئن اليه ، وليس هذا فحسب ، بل ان اهل الحق من اهل الاسلام ، سيجدون يومئذ وسيلة لا تدانيها وسيلة ، تسهل لهم ما استغلق عليهم من دعوة الناس الى كتاب الله الذي خص به العرب ، وجعل فيـه ذكرهم على الدهر حين انزله بلسانهم ، ولكنه جعله هدى للبشر جميعا عربهم وعجمهم . ويومئذ ستبطل فتنة (ترجمة القرآن) من اصلها ، لسبب ظاهر اشد الظهور . فان البشـر اذا لم يكن فى طاقتهم بالسنتهم التي يبدعون في شعرها ونثرها ، أن ياتـوا ببيـان كبيان القرآن ، تدل تلاوته على انه بيان مفارق لبيان البشـر ، فمن طول السفه وغلبة الحماقة ، ان يدعـي احد انه يستطيع أن يترجم القرآن ، فياتي فى الترجمة ببيان مفارق لبيان البشـر . فاذا لم يكن ذلـك فى طاقة احد ، لم يكن لهذه الترجمة معنى بل سيكون فيها من القصور والتخلف ، ما يجعل القرآن كلاما كسائر الكلام ، لا آية فيه ولا حجـة على احـد من العالمين ، ولا موجب لترجمته على احد ان يؤمن بما فيه ، وان خالف ما جرى عليه اعتقاده أو علمه ، الا اذا آمن من قبل انه كتاب منزل من السماء . وهـذا عكس لآية القرآن ، وهي أن بيانه هو الدليل القاطـع على انه ليس من كلام البشـر ، وانه كتاب منـزل من السماء ، وانه هو كلام رب العالميـن الذي تعبدنـا بتلاوته ، والذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الماهر بالقرآن مع السفرة ، الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه ، وهو عليه شاق ، له أجران » . وقال ايضا : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشـر امثالهـا . لا اقول « الم » حرف ، ولكن أقول الف حـرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

— * —

وأما بعد ، فعسى أن يكون الله قد ادخر لآخـر هذه الامة ، بعض ما يلحقها بفضل أولها ، فتفتـح بالقرآن آذانا صما ، وعيونا عميا ، وقلوبـا غلفـا ، وتخرج بهديه الناس من ضلالتهم ، وتذودهم به عـن اتباع خطوات الشيطان ، الى اقتفاء الصراط المستقيم ، والله تعالى يقول لنبيه : « وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم . وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون » . (سورة المؤمنين 73 ، 74)

وعسى ان يتم على يد آخرها ما خباه الله من اولها ، وعسى ان يكون ذلك مخبوءا فى هذا الفصل الذي نجده فى انفسنا بين بيان الله سبحانه ، وبيان عباده من البشر .

« قل فلله الحجة البالغة فلـو شاء لهداكـم اجمعين » (سورة الانعام : 149) .

ورحم الله مالك بن انـس اذ يقول : « لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولهـا » ، فاذا كان اولها لم يصلح الا بالبيان ، فآخرها كذلك لن يصلح

الا به ، وان امرءا يقتل لغته وبيانها ، وآخر يقتل نفسه ، لمثلان ، والثاني أعقل الرجلين !

وشكر الله لاخي مالك بن نبي ، حيث دعاني الى كتابة مقدمة لكتابه ، كتاب « الظاهرة القرآنية » ، ففتح لي به بابا من القول في « اعجاز القرآن » كنت أتهيب أن الجه ، وبابا آخر من القول في « الشعر الجاهلي » كنته لباطل نفسي دونه ، وأنا أعلم أني قد قصرت في ذلك كله واختصرت ، وان كنت قد اطلت ، واخشى أن اكون قد أملت ، ولكن عذري ان الراي فيهما كان قد شابه ما كدره ، فبذلت جهدي أن امحص القول فيهما ، حتى أتقي عنهما القذى ، واخلصهما من الاذى ، مبتغيا بذلك وسيلة الى ربي سبحانه ، طلبت القربة عنده ، « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » .

والحمد لله وحده ، ولا حول ولا قوة الا به ، ولا فضل الا من عنده ! .

محمود محمد شاكر

لا يجوز لشخص أن يحكم على نظام ما بمقارنته مع نظامه ؛ وفي عالم القرن العشرين يحكم على نظام ما من ناحية متانته قبل كل شيء ، واما نوعه فلا يفهم الا قليلا ، والنظام الملكي بالمغرب متين ولله الحمد وهو متين وسيبقى متينا ، لانه يمثل تجاوبا فيما بين العروش المغاربة وبين شعبهم طيلة اربعة عشر قرنا ويمثل ترابطا في المشاعر والافكار ».

جلالة الملك الحسن الثاني

في موضوع أحمد المنصور الذهبي :

قول على قول

للأستاذ عبد القادر العافية

ننشر في هذا العدد مقالا للاستاذ عبد القادر العافية حول السلطان احمد المنصور الذهبي يبرز خلاله ملامح من شخصية العاهل المغربي المجاهد اعتمادا على مراجع مقطوع بصحتها .

ولا شك أن مراجعة شخصية السلطان احمد المنصور الذهبي تفتح امامنا آفاقا واسعة للدراسة التاريخية المعمقة في الحضارة المغربية وتاريخ الفتوحات الاسلامية العظمى التي تمت على يد ملوكنا وامرائنا منذ عهد طارق رضي الله عنه .

ونحن نعتبر مقال الاستاذ العافية استمرارا للمناقشة التي بدأها الدكتور عثمان عثمان اسماعيل مع الباحث الدكتور شوقي عطا الله الجمل .

والمجلة ترحب بأي بحث في هذا السياق يلتزم شروط النزاهة والموضوعية والانصاف التاريخي .

« دعوة الحق »

جاء في العدد ماقبل الاخير من مجلة دعوة الحق الغراء (العدد الثالث السنة 18) رد الدكتور عثمان عثمان اسماعيل على موضوع «احمد بابا التمبكتي السوداني» للدكتور شوقي عطا الله «الجمل .

وجاء رد الدكتور عثمان عثمان مدعما بكثير من الوثائق والحجج والبراهين ، والذي اوده في هذا الحديث هو توضيح بعض الافكار الواردة في الرد .

وذلك ان الدكتور عثمان عثمان تعرض لموضوعين هامين في رده وهما :

1 — قضية فتح السودان من طرف احمد المنصور الذهبي

2 — شخصية احمد المنصور نفسه

وكل واحد من هذين الموضوعين يعد من الاهمية بمكان في تاريخنا الوطني ، لان فترة احمد المنصور الذهبي تعد بحق من الفترات المشرقة في تاريخ الجناح الغربي من العالم الإسلامي في القرن العاشر الهجري ، ونظرا لما لهذه الفترة من الاهمية فان الحديث عنها قد يكون متشعبا ومتعدد الجوانب . وبالتالي قد يكون مسهبا وذا نتائج مختلفة ومتباينة .

ومن هنا لا يستغرب اي تدخل فى مثل هـــذا الموضوع الهام ما دام البحث عن الحقيقة هو الهـدف المنشود لدى الجميع .

اولا ـــ قضية فتح السودان بأمر وتوجيه احمد المنصور السعدي تعرض اليها غير واحد من المؤرخين والباحثين .. فمنهم من يرى ان هذه العملية كانـــت فاشلة ، وانها كانت عبارة عن مغامرة اليمة ...

فى حين يرى البعض الآخر انها كانت عملية فادحة وناجحة .. وانها حققت الكثير من اهدافها وغاياتها .

وكما اختلف المؤرخون والباحثون فى قيمة هـذه العملية اختلفوا كذلك فى البواعث والدوافع التى حفزت للقيام بعملية فتح السودان ، فراى البعض ان الباعث كان اقتصاديا محضا وراى البعض الاخر الدافع الى ذلك كان الغاية منه ، هو صرف طاقة الجيش فى هذه الناحية البعيدة للتخلص من ضغوطه وتطلعاته .

خاصة وان صرف هذه الطاقة للتوسع فى الشرق او الشمال يكادان يكون من قبيل المستحيل ، وذلـك لوجود دولتين قويتين هما : الامبراطورية العثمانية فى الشرق ، والامبراطورية الاسبانية فى الشـــمال ، (بشبه جزيرة ايبريا وبالثغور المحتلة فى سواحـــل المغرب) .

ومعنى ذلك انه لم يبق مجال للمنصور فى تصريف هذه الطاقة الحربية الا نحو الجنوب ونحـو بـــلاد السودان ، وهذا بالاضافة الى ان ذهب السـودان ورقيقـه الاسود كانـا يشغلان بال محبى الثـراء والغنى من ملوك وأباطرة ذلك العهد .. الخ .

لكن مهما يكن من امر فان الذي ينبغى الا ننساه فى هذا الموضوع هو ان فكرة فتح السودان كان الباعث عليها هو محاولة استرجاع الاندلس ، ذلك الفردوس المفقود الذي لم يكن من السهل على المغاربة ان ينسوا اخوانهم به ، ولا امجادهم فيه .

ولم يكن من اليسير على المغاربة ، ان تندمل جراحات نفوسهم العميقة من جراء نكبتهم بفقـــدان الاندلس . خاصة وان تلك الجراح لم تكن الايام المتوالية تزيدها الا تفكأ وتعميقا .. حيث كانت بقايا المسلمين فى الاندلس تعانى اشد الويلات من محاكم التفتيش ومن مضايقة السلطة ورجال الكنيسة وكانت قلول من هذه البقايا تصل الى المغرب بين الفينة والاخرى شاكيـة باكية بقلوب دامية وعيون دامعة .. وكان منظر ومخبر هؤلاء يبعث على الرثاء ويحز فى النفس ..

وفى عهد احمد المنصور بالذات تجمع عدد كبير من الاندلسيين الناقمين بالمغرب ، وكون احمد المنصور من هؤلاء جيشا هاما كان يسمى « جيش الاندلسيين » وكان من بين افراد هذا الجيش الناقم ضباط وقـادة ورؤساء .. ونظرا لعهد الازدهار الذي عرفه المغرب فى حياة أحمد المنصور الذهبى فان الجيش المغربـى عرف بدوره تنظيما محكما ونموا وقوة ونظاما .. واصبح هذا الجيش يقوم بتدريباته واستعراضاته فى ابهى حلة واتم استعداد ، واحسن نظام ... (1)

وكانت عناصره الاندلسية بخاصة تتوق الـى الحرب وتتطلع الى الالتحام مع أعدائها الذين اغتصبوا ارضهم وخيراتها . .

وعلى الجملة كان جيش احمد المنصور باعداده الوفيرة ، وغرته المتنوعة ومعداته الحديثة ، وتشكيلات وتوقان ضباطه وقواده كان هذا الجيش يريد ان يشل وان يخوض المعارك .. وفى نفس الوقت كانت آمال الاندلسيين من القواد والضباط والجنود وغيرهـــم معلقة على همة احمد المنصور وعلى ذكائه ونبوغـــه ونخوته وشهامته

ولا شك ان احمد المنصور بحنكته وذكائه وخبرته السياسية .. كان يحسب للحرب مع الامبراطوريـة الاسبانية القوية الف حساب وهو مع ذلك وفى نفس الوقت يقدر نكبة فقدان الاندلس ويحز ذلك فى نفسه كما يحز فى نفوس الآخرين .

لكن احمد المنصور المسؤول الاول فى الدولة لا يريد ان يغامر ولا يريد ان يخوض حربا يكون مآلها الفشل الذريع . . ولذلك فأحمد المنصور لم يجد بدا من أن يمهد للحرب مع الاسبان بفتح السودان وتوحيده وجمع كلمته بكلمة اخوانه فى غرب شمال افريقيا .

ومعنى ذلك ان عملية فتح السودان فى نظر أحمد المنصور فيها فسح المجال للجيش ليقوم بواجبه فى توحيد كلمة المسلمين ، وفى نشر الاسلام فى ربـوع افريقيـــا .

وفى نفس الوقت فيها كسب جديد من الناحيـة المادية والبشرية خاصة وان التاريخ يشهد بأن معركة الزلاقة لعب فيها الصحراويون دورا هاما بجمالهـم وطبولهم وهيئاتهم . . .

وهناك عامل آخر وهو ترتيب الفرصة فى العدو ؛ خلال هذه الفترة من الاستعداد وخاصة فيما اذا اصيب بنكبات من نوع نكبة « الارمادا » التى هزم فيهـا

الاسطول الاسبانى اشنع هزيمة سنة (997 = 1588 م) على يد الاسطول الانجليزى ثم ان احمد المنصور من جهة اخرى كان يتبع دبلوماسية حكيمة فى الضغط على اسبانيا ومحاولة التحالف ضدها ، وفضح نواياها امام دول ذلك العصر ..

ومعنى كل هذا ان عملية فتح السودان كانت عملية استعداد لما هو اهم منها فى نظر المغاربة وفى نظر احمد المنصور .

وتفسر لنا هذا بوضوح كثير من الوثائق التى تعود الى نفس الفترة ، فمن ذلك مثلا تلك القصائد الرائعة التى كانت تنشد بمحضر احمد المنصور مهنئة ومبرزة مواهبه ومشيدة بفتوحاته واعماله . . . والتى كانت فى معظمها تشير الى ان الانتصارات فى السودان لا يتم جدواها الا بفتح الاندلس ! ! .

ومن المهنئين بالفتح من كان يذهب بعيدا او يطالب بان يكون المغرب هو مقر الخلافة الاسلامية ، وبان يكون احمد المنصور هو خليفة المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها .

ولقد نقل لنا الشاعر الاديب وزير القلم عبد العزيز الفشتالى فى كتابه مناهل الصفا (2) عددا من هذه القصائد سواء فى حديثه عن فتوح السودان او اثناء تصويره لروعة الاحتفال بعيد المولد النبوي على عهد احمد المنصور ، لان كثيرا من قصائد التهنئة بهذه المناسبات كانت تعرج فى نهايتها على الالحاح بانجاز مثل هذه المطالب والمتمنيات

ومن ذلك مثلا قول الكاتب الشاعر الحسن بن احمد المسيوي اثناء احتفالات المنصور بانتصارات جيشه فى السودان :

« فهلكت اقطار الجنوب وما سمت لمنال ذلك همة الاسكندر »

« وتنال اندلسا يجود ربوعها برد المنية من غمام العيثر . »

« فقد الجياد الى الضلال تسومها حكم الردي وندوس معطس قيصر » .

« ادرك فيها الثأر المنيم فطالما الوى به للدين رهط الاصغر » .

وجاء فى قصيدة اخرى لاخى الشاعر السالف الذكر :

« فدان الجنوب وهذا الشمال ستنظمه بعد فى قطار »
« وقد كنت اعثرت جد الصليب سيعثره ضعف ذاك العثار » .

والشاعر هنا يشير الى معركة وادى المخازن التى انهزم فيها الجيش الصليبى بقيادة الملك البرتغالى « سبستان » اشنع هزام (986 هـ = 1578 م) ، ويرى ان انهزام الصليب سيتضاعف فى المستقبل .

ومن قصيدة طويلة للشاعر محمد بن على الفشتالى يهنىء بها المنصور على فتوحاته فى السودان قوله :

« منحتك ابكار الليالى وصلها حتى تنال بها كبير مؤمل » .

« وتضيف ملك مشارق لمغارب عفوا كنظم جنوبها [illegible] » .

ونرى الشاعر هنا يؤكد على تحقيق هذا الامل الكبير المنشود الذي هو :

ضم المشرق للمغرب والشمال للجنوب ، والمقصود بالشمال هنا بلاد الاندلس .

ولم يكن هذا الامل الكبير من قبيل امانى الشعراء وخيالاتهم ومبالغاتهم فى التهنئة والمدح ، بل كان هذا الامل يراود قلوب المغاربه جميعا حيث كانوا يتطلعون الى اليوم الذي تعود فيه الحياه الطبيعية الى بلاد الاندلس ، والى اليوم الذي يعود فيه المطرودون والمظلومون الى ديارهم واراضيهم . . .

ونجد هذا مصرحا به فى عدد من الوثائق الرسمية الصادرة عن الدولة ، ولقد نقل لنا الفشتالى فى مناهل الصفا بعض هذه الوثائق ، وخاصة اثناء حديثه عن ثورة الناصر ابن عبد الله الغالب الذي كان لاجئا عند فيليب الثانى ملك اسبانيا .

تلك الثورة التى كانت مؤامرة خطيرة على سيادة المغرب من قبل فيليب الثانى والامير الناصر ابن اخى المنصور ، فى وقت كانت معظم فرق الجيش المغربى تخوض معاركها فى السودان ، واستطاع جيش ولى العهد بفاس مع فرق من جيش مراكش التغلب على هذه الثورة واخمادها . . .

وفى هذا الموضوع يقول عبد العزيز الفشتالى :

« لما عظم على الطاغية شان ما اسفه من اسداء امير المومنين والحامه وشحذ عزائمه الماضية على ما

يؤمل من نكايته وتدمير أرضه ، واقلقه ذلك وحذر مغبته شمر للاعتمال في المكايد التي هي جنده الاقوى وحصنه الذي يلوذ به عند الشدائد فاملى الناصر لتفريق الكلمة وتحريك حوار الفتنة به ، ليثني بذلك عزم مولانا امير المؤمنين ويشغله عن شأنه ويكافيه على ما يعتمد فيه من نكايته فرمى به الى مليلية من سواحل العدوة فنزل بها لثلاث بقين من شعبان عام ثلاث والف . . . » — موافق سابع ماي 1595 م (3) .

ونرى الفشتالي هنا يصرح بأن مقصود « الطاغية » فيليب الثاني من تدبيره لهذه الثورة هو شغل احمد المنصور عن المضي في خطته في فتح السودان ، وعما يؤمله من النكاية به وتدمير ارضه ...

وبعد ما تحدث الفشتالي بتفصيل عن هذه الثورة وبعدما أورد بعض القصائد في تهنئة المنصور على الفوز في قمعها ، نقل لنا المراسلات الرسمية التي صدرت عن البلاط المغربي لمختلف الجهات معلنة ومبشرة بالنصر على الاعداء وعلى مدبري الفتن . . .

يقول : « ولما تكاملت هذه الفتوح الجليلة . . . » أي بالقضاء على ثورة الناصر ، وفتوح السودان « اهم أيده الله بالجهاد واخذ الاهبة له والاستعداد ومجازاة عدو الدين على ما كان اعتمل فيه من كيد الاسلام ، وتفريق كلمته ، والعزم على استرجاع جزيرة الاندلس من يد الكفر وتطهيرها من خبث الشرك . . . فكتب الى اهل الخير والدين واولي الصلاح بكل البلاد يلتمس منهم التوجه الى جنابه العلي بالادعية الصالحة . فمنها الى صاحب مكة والمدينة وارض الحجاز السلطان حسن بن ابي نمي » (4) .

وجاء في هذا الكتاب بعد الاخبار بالانتصار على الاعداء :

« هذا وان شيخ الركب المغربي وهو المرابط الخير الحاج محمد بن عبد القادر لما ازمع الى المعاهد الشريفة الرحيل وهب له من حرم الله نسيم يميل . . . مد الى على مقامنا اكف الرغبة في كتاب كريم يتشرف بحمله فحملنا هذه العجالة لترعوا له ان شاء الله . ونطالبكم لوشائج الرحم بالدعاء تجاه البيت الحرام ؛ وعند الملتزم والمقام ان يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله وينجز لنا وعده الصادق في اظهار دين الحق على الدين كله . ويسهل علينا بفضله ومعونته اسباب فتح الاندلس وتجديد رسوم الايمان بها . . . (5)

ويقول الفشتالي بعد هذا : « ومنها » اي من الكتب التي بعث بها المنصور الى البلاد الاسلامية . . . الى قاضي قضاة المالكية بمصر الشيخ بدر الدين القرافي . ثم الى كبير مشايخ الاولياء والعلماء علم الطريقة اليوم بالديار المصرية الشيخ الاستاذ زين العابدين بن الشيخ القدوة محمد بن ابي الحسن البكري الصديقي وكلاهما من اهل ود هذا الجانب العلي النبوي واوليائه محبة وصداقة يفاتحون مولانا الامام امير المؤمنين ايده الله على تتابع الاناء مع كل ركب برسائلهم وبهداياهم من كتب العلم التي هي انفس الذخائر عندهم ايدهم الله فكتب اليهم مع صاحب الركب عامئذ في معنى الجواب والتعريف بالفتح والتماس الادعية الصالحة منهم ومن اهل الخير والصلاح . . . ونص الخطاب الشريف : من عبد الله تعالى المجاهد في سبيله الامام المنصور بالله امير المؤمنين ابن امير المؤمنين ابن امير المؤمنين الشريف الحسني الفاضل — تحلية طويلة الى ان يقول : « مما نستطرد لكم ذكره على وجه البشرى واهداء المسرة الكبرى اعلامكم ان عدو الدين طاغية قشتالة الذي هو اليوم العدو الاكبر للاسلام وعميد ملل التثليث وعبدة الاصنام لما آنس من تلقاء جنابنا العالي نار العزم تلتهب التهابا وبحر الاحتفال تضطرب امواجه الزاخرة بكل عدد وعدة اضطرابا ، وهممنا الشريفة قد همت بتجديد الاسطول والاستكثار من المراكب المتكلفة للجهاد ان شاء الله بقضاء كل دين ممطول ، وعلم ان الحديث اليه يساق ، والى ارضه بالخسف والتدبير يحول الله يهفو كل لواء خفاق ، رام خذله الله مكافأتنا على ذلك بما امل ان يفت في عضدنا الاقوى ، وعزمنا الذي بعناية الله يزداد ويقوى ، فرمى بمخذول من ابناء اخينا عبد الله كان ربي لديه وطوحت به الطوائح منذ ثمانية عشر عاما الى مليلية . . . (6)

وهكذا يمضي هذا النص في مدنا بمعلومات هامة الى ان يقول : « . . . ان يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله . . . ويسهل علينا بمعونته اسباب فتح الاندلس وتجديد رسوم الايمان بها واحياء اطلالة الدرس حتى ينطلق لسان الاذان . . . » (7)

والوثائق في هذا الموضوع كثيرة ، وبذلك يتجلى أن عملية فتح السودان كانت عملية تمهيدية لما بعدها . . .

ويبدو من خلال النصوص التي اثبتنا بعضها ان المنصور كان عازما على محاربة فيليب الثاني ليتمكن من استرجاع الاندلس وليقضي « كل دين ممطول » .

ولعله لو طالت حياة المنصور لحقق بعض ما كان يهدف اليه لكن يبدو أن أسباب تأني المنصور في الهجوم الساحق على خصمه العنيد كانت أسبابا متعددة سياسية واجتماعية وطبيعية . . . ولعل في طليعتها — في الفترة الاخيرة من حياته — تلك الاسباب الطبيعية التي جعلت المغرب يئن تحت وطأة الاوبئة وانحباس المطر ؛ وما يتبع ذلك من ظروف اقتصادية صعبة وحالة نفسية مضطربة .

والحقيقة أن المغرب عرف في الحقبة الاخيرة من حياة المنصور وباء مهلكا ، وغلاء فاحشا . . . حيث صدى ذلك يتردد في كتب التاريخ وكتب التراجم وغيرها .

ثانيا — أما عن شخصية احمد المنصور ؛ فمن المعلوم أنه قد ألفت كتب في وصف عهد المنصور وفي الحديث عن شخصيته واعماله ... وخلافته .

ومن أهم هذه الكتب : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا لعبد العزيز الفشتالي .

وكتاب المنتقى المقصور على مآثر المنصور ، لاحمد ابن القاضي وكتاب : الممدود والمقصور من سنا ابي العباس المنصور ، للكاتب محمد بن عيسى التمسلي السوسي .

وكتابات احمد المقري في « روض الآس » «ونفح الطيب » وغير ذلك ولا شك أن هذه الكتب تحدثت عن المنصور حديثا مسهبا واعطت نظرة وافية عن جوانب متعددة من شخصيته... لكن بالاضافة الى هذه الكتب التي قد يقال انها من انشاء كتاب البلاط هناك مصادر اخرى لا تتسم بهذا الطابع بل هي تتحدث عن المنصور حديثا بعيدا عن أن تكون به اية شبهة لسيطرة البلاط وايحاءاته ...

ومن ذلك ما نجده في كتب التراجم وكتب النوازل الفقهية والحواشي والطرر . . . وحتى لا أطيل أكتفي بمثالين من هذه المصادر التي هي في الواقع تعطينا نظرة صادقة عن احمد المنصور ؛ وهذه الصورة لا تبتعد كثيرا عن الصورة التي رسمها له كتاب البلاط ، وقد يقال ان هذه الكتب قد تأثرت بما كتبه اولئك لكننا في الواقع نجد ان السياق يختلف في هذه المصادر عن المصادر السالفة تمام الإختلاف كما اختلف موضوع الحديث من أساسه . . .

جاء في « كتاب نوازل العلمي » ما نصه :

« وسئل سيدي ابراهيم الجلالي ، سأله سيدي علي بن احمد الفزكاري عن عدة مسائل منها مسألة طابة . . . فأجاب أما ما عمت به البلوى من شرب العشبة المشؤومة على نواحينا المبلغة اموال غربنا وهي المسماة بتابغة بلغة أهلها فقد كنا بحضرة فاس أيام قدوم السلطان عليها مولانا احمد نصره الله ، وبقدومه انتشر امرها بتلك الحاضرة اجتلبها اهل مراكش واستعملوها كثيرا فانتهى امرها واستعمالها عند اهل تلك الحاضرة ثم ان الغلاء ظهر هنالك وفي سائر الاقطار فجمع السلطان رحمه الله أعيان فقهاء وقته وسألهم عن سبب تردد الوباء الذي كان يتردد على مدينته المراكشية وابانة الانصراف عنها مع ما حل من الغلاء وحبس الامطار ونحو ذلك من الآفات النازلة في ذلك الوقت ، فأجابه كل واحد من الفقهاء بما ظهر له ، ومن جملة المجيبين له في ذلك المجلس وكان آخرهم في الجواب شيخنا البركة الفاضل الناسك سيدي محمد بن الحسن بن عرضون الشفشاوني الدار ، فقال في جوابه لعل هذه النوازل والوقائع سببها ما أشار اليه المولى سبحانه وتعالى في كتابه « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » (8) فقبل السلطان جوابه دون جواب غيره من الحاضرين وفرق السلطان مجلسه ومن الغد بعث للفقيه المجيب المذكور قد عرفت الداء فما الدواء فأجابه بأن قال : غير المنكر في اقاربك وخدامك ، وسائر رعيتك يبدل الله عليك عادته عملا بقوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (9) فأمر رحمه الله بتغيير المنكر وهرق الخمر . . . ثم من جملة ما أمر به ان تحرق العشبة الخبيثة في ديوان النصارى ؛ وبفاس الجديد حرق منها القناطير المتعددة . . . » (10)

لا شك ان مثل هذه النصوص المبثوثة في ابواب وفصول كتب النوازل الفقهية لم يقصد بها أصحابها الا حكاية الواقع كما هو من غير زيادة او تعديل . . .

وفي النص السالف يبدو لنا احمد المنصور مؤمنا بالله اشد الايمان ، ميالا الى التوبة والاستغفار مهتما بمصالح رعيته وشؤون شعبه . . . الى درجة أنه ينفذ في الحال كلمة حق صدرت من أحد علماء الاسلام

وجاء في شرح العمل الفاسي للسجلماسي في نفس الموضوع ما نصه : « ان الخليفة ابا العباس المنصور ، وقد انحسر الناس الى

الشكوى بالمظالم وكان يحضر مجلسه للحكم فيها علماء فاس كالشيخ محمد القصار ، وعلي بن عمران ، وعلماء مراكش كمحمد بن عبد الله ابو عبدالى ، وقاضي شفشاون محمد بن عرضون وغيرهم ، وكان هذا العام هو عام احد عشر الف . . . » (11)

لم يذكر هذا النص الاخير الحكاية السالفة ، وبذلك يكون السجلماسي قد اغادنا باسماء بعض العلماء الذين كانوا يحضرون في مجلس الخليفة بفاس كما عين لنا السنة التي حدثت فيها النازلة . . .

ويذكر لنا محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن اثناء الحديث عن كرامات والده :

« ان المتقدم المجاهد محمد بن الحسن ابو الليف جرى بينه وبين صاحب عمل القصر (الكبير) خلاف فسعى به للسلطان فامر بتغريبه الى فاس وذلك سنة 998 هـ على عهد احمد المنصور الذهبي .

وفي يوم من الايام جرى بمحضر السلطان ذكر الشجعان والابطال من المجاهدين ذوي النكاية في الاعداء ، فسأل هل تعرفون ببلدنا مثل هؤلاء فذكروا له محمد بن الحسن « ابو الليف » واخبروه بانه مغرب بفاس فامر المنصور باطلاق سراحه حالا ليعود الى نشاطه في النكاية بالاعداء بثغر طنجة . . . وكان القاضي بفاس هو عبد الواحد الحميري وهو الذي ابلغهم عفو السلطان عنهم . . . » (12)

وهكذا يبدو لنا احمد المنصور من خلال هذا النص رجلا يحب الجهاد والمجاهدين ويبحث عن الابطال والشجعان ويعقد المجالس للكلام في موضوع الجهاد ، كما رأينا انه اسرع الى انقاذ ذلكم البطل ، وانتقد على الكائد كيده وانتقامه . .

فشخصية احمد المنصور شخصية منصفة باحثة عن خير الرعية ، تتسم بالخوف من الله تعالى ومن عقابه الاليم ، وهي في نفس الوقت محبة للجهاد رافعة من قدر اصحابه . . . وليس في هذا ما يستغرب ، لان المنصور كان بحق من اكبر علماء عصره يتوفر على ثقافة عالية وعلى ذكاء حاد يتظلم الشعر الجيد ويساجل الشعراء يكتب ويؤلف ويفتي الفتاوي العلمية . .

تطوان : عبد القادر العافية

التعاليق :

1) عن جيش احمد المنصور ارجع الى مناهل الصفا لعبد العزيز الفشتالي ، والى نزهة الحادي للافراني
2) الاسم الكامل للكتاب : (مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا) . نشرته وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافية بالرباط سنة 1972 بتحقيق الدكتور عبد الكريم كريم .
3) مناهل الصفا ص : 171 .
4) نفس المصدر ص : 187 .
5) نفس المصدر ص : 188 .
6) نفس المصدر ص : 190 وكان الناصر قد خرج من ميناء مالقا باسبانيا ونزل بمليلية يوم 1595/5/9 م بعد ابحاره بيومين ومنها اعلن ثورته
7) نفس المصدر ص : 191 .
8) الآية 96 من سورة الاعراف .
9) الآية 11 من سورة الرعد .
10) كتاب توازل ابي الحسن على الشريف العلمي الشفشاوني ج — 2 — ملزمة : 35 .
11) ج — 2 — ص : 111 من شرح العمل الفاسي للسجلماسي الرباطي .
12) مرآة المحاسن ص : 84 .

لوعاد العرب إلى الإسلام

للدكتور عبد السلام الترابي

الشكوى فى كل مكان من العرب لانهم تخلوا عن قيادة العالم الاسلامى عندما تخلوا عن الاسلام وراحوا يستوردون المبادىء من هنا ومن هناك فرهنوا انطلاقاتهم فى متاهات وبراديب لم تحقق لهم نهضة ولا تحررا ولا كرامة ولا اى شعار من الشعارات التى قاموا يرفعها منذ زمان او اقدموا على تجديدها وتغييرها منذ خمس وعشرين سنة ! ! **انما كان الحصاد الكبير** مزيدا من التمزق والانشقاق والتناحر والخيبات المريرة والتجارب الفاشلة والاضطرابات الاجتماعية والنفسية والفكرية والتلخر نحو الوراء بخطوات واسعة والاستسلام لقيادة العدو وهيمنته ! !

وقد اصاب اخواننا فى العالم الاسلامى ويلات وكوارث نتيجة لتخلى العرب عن قيادتهم ورسالتهم وانهم الآن يعانون من ذلك اشد المعاناة ولذلك فهم يصرخون بالعرب دائما : « **ان قودونا نحو وحدة اسلامية شاملة فى ظل حضارة جديدة** . . . » وفى رحاب اجتماعات المؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة واعداد الدعاة الذي انعقد فى المدينة المنورة بدعوة من الجامعة الاسلامية والذي حضره ممثلون عن سبعين دولة ، كان المؤتمرون يتدارسون مشاكل الدعوة الاسلامية فاطلى كل منهم برايه ، وعندما اعطيت الكلمة لعالم من علماء نيجيريا قام الرجل فى وقار واطمئنان وعلى وجهه مسحة من الحزن وملامح الجد والصرامة والاعتزاز ، وقال للمؤتمرين بلسان عربى مبين: «ان سبب مشاكل الدعوة الاسلامية ، وسبب بلاء المسلمين بافريقيا هم العرب لانهم قادة العالم الاسلامى وريئة جسم العالم الاسلامى وقلب العالم الاسلامى ، هم قدوة افريقيا وغيرها ، لذلك يجب اصلاح العرب قبل كل شيء ليكونوا فى مستوى المثل الاعلى ويكونوا اهلا للقيادة والاتباع ، وعلينا ان نناشد بقيام دولة اسلامية فى البلاد العربيه تساندنا ونساندها وان امكانات ذلك لموجودة ولكن العرب فى واد والاسلام فى واد وتلك مشكلة افريقيا وبلاد المسلمين معا » .

صرخة صادقة ومفعمة بالالم وكثيرا ما سمعنا مثل هذه الصرخات تدوي فى آفاق العالم الاسلامى ناشدة العرب ان يضطلعوا بدورهم القيادي والحضاري لانهم مادة الاسلام وربانة سفينة النجاة .

ولقد ادرك اعداؤهم مدى ما ينطوون عليه من استعدادات قوية للخير وما يملكون من امكانيات مادية وبشرية وفكرية ودينية واستراتيجية فاقبروا اليهم فى تخطيط ماكر واسلوب مرن شيطانى ونفس طويل للحيلولة بينهم وبين توظيف تلك الاستعدادات وتركيب تلك الامكانيات تركيبا خلاقا مبدعا فكان ان هجموا عليهم تلك الهجمات الشرسة واستطاعوا ان يوجدوا فى بلاد المسلمين تيارات ومعسكرات تخرب الامة من الداخل بحماس بليد وفكر اعمى وضيعة مطبقة ! واهم ما حققه اعداء الاسلام انهم افقدوا الكثيرين منا الاحساس لصادق بالخطر والنظر السديد فى الامور فأوغلوا فى بيد ساحقة يبحثون عن الحلول ويتلمسون

المخرج من المآزق التي وقعوا فيها فما يزيدهم ذلك الا مضاعفة للضلال . ومن اخطر ما استقر عليه كثير من العرب انهم « آمنوا » بمجموعة من الافكار الخاطئة صاغها لهم اعداؤهم في نهاية القرن الميلادي الماضي وخلال هذا القرن .

ورغم انكشاف الحقائق واعتراف العدو بمدى مسؤوليته عن تلك الافكار وترويجه لها بجميع الوسائل ومدى ما حققته له من اهداف وفوائد في بلاد العرب فان العقول المخدرة والارادات المستسلمة والارواح الآسنة غير قادرة على التنبه واليقظة والتخلي عن الضلال وتحويل الاتجاه نحو سبيل لاحب ومحجة بيضاء ليلها كنهارها ، فالزيغ الفكري والايديولوجي في بلاد نابليس ناتجا عن شك علمي وبحث عن الحقيقة واستقصاء للوسائل الناجعة ، وانما مرده الى فراغ فكري وروحي وانعدام المناخ الثقافي الذي يضطلع بتغذية الفرد والجماعة وطبعهما بطابع مميز قادر على النماء التحرري والعطاء والمواجهة في حصانة وقوة . والحقيقة التي يجب الاعتراف بها واعلانها ان جل لحركات الايديولوجية التي قامت في بلاد العرب كانت اعجز من ان تملأ هذا الفراغ بايديولوجية تتقدم في النفس العربية تلك الشرارة المقدسة والشعلة الحضارية التي تصنع المعجزات وانما اعتمدت على « كلام » و « شعارات » و « شكليات » تافهة لم تستطع مواجهاتها المزخرفة والملونة احيانا ان تخفي سماتها التخلفية ، لان الكثير منها نشأ من اول وهلة نشأة مصرنة وفي أحضان الجامعة الامريكية واليسوعية وفي مناخات خاصة ، وتعتبر بعض تلك الحركات من اهم منجزات الاستعمار الفكري الذي استهدف ايجاد « صياغات » محلية لها شكل فكر وشكل فلسفة وشكل ايديولوجية ولكن لتؤدي الوظيفة التي من اجلها وجدت لوجودها وحياتها وتطورها مرهون بتحقيق غايات واهداف موضوعية محددة من طرف المتحكمين في جهاز التوجيه وازرار التحريك .

وما نشاهد الآن من تبعية مطلقة للفكر المخرب ومن حماس للهزائم وتكريس للهوان وافتخار بالانتكاسات وحرص على التناحر واشادة بالغدر دون ان يكون ثمة ردود فعل صحيحة لدليل واضح على ان التخدير بلغ اقصى مافعليته والمؤامرة اتت من النتائج اكثر من المتوقع واسرع من المنتظر ! ! وهكذا اصبح الفراغ المملوء بالفكر الجاهل الرجعي المتخلف هو المناخ السائد في بلاد العرب مما اتاح للافكار المشادة للعرب بجميع تلاوينها الى عقول الناشئة المتطلعة الى تحرير بلادها وتخليصها من التخلف فتصدت للعلاج فكرا او ممارسة وهي عبارة عن جهاز يديره العدو كما قال اخيرا بعض الشخصيات الكبيرة التي استطاعت في بعض نوبات الوعي التخلص من كابوس التخدير ! ! وهكذا اصبحت القيادة الفكرية في بلاد المسلمين متجهة بولائها وتبعيتها لفكر غريب لم يقدر أن يحررها من اسباب تخلفها التاريخية والجديدة ، ذلك واقع لا يكابر فيه احد ينشد الحق ، ولهذا الواقع انعكاسات خطيرة في ترسيخ بعض المسلمات والمرتكزات الاخلاقية والسلوكية بل والقواعد السلوكية — زعموا — . وهكذا اطمأن هذا الفكر الى واقعه الآمن ، بل صار يقدسه كأنه منجز انجزه مما جعله في بفكر أصيل مبدع ذلك الفكر الذي تمتد دعوته الى الحقيقة بعيدا عما هو مطلوب منه من قيادة وريادة آفاق ابعد من المحيط واقصى من الخليج امتداد الزمن والمكان ، لانه فكر انساني عالمي شمولي خالد منفتح ثابت الاسس متين المبادىء متجاوب مع الفطرة ونزوع الانسان نحو الكمال . فالعرب اليوم بين امرين بين ان يظلوا تائهين حتى تنطفىء فيهم آخر شرارة من حضارتهم فيفتقروا كأمة لها رسالة ويصبحوا في عداد الشعوب المندرسة وامّا ان يراجعوا انفسهم ويصححوا انطلاقاتهم ويغيروا ما بانفسهم وحينئذ يستعيدون دورهم التاريخي العظيم .

ولو عاد العرب لهذا الفكر لاسلس لهم العالم الاسلامي مقاده ولاتجهت نحوهم العواطف والقلوب والعقول ولأعادوا للمدينة ودمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وفاس ما كان لها في قلوب المسلمين في العالم الاسلامي عبر تاريخهم الطويل ولجعلوا العالم يواجه امة عظيمة تربطها كلمة واحدة من سيبريا الى جزر القمر . لقد كان امل عودة العرب الى دينهم ضعيفا اثر انهيار الخلافة العثمانية واحتلال ما بقي من بلاد المسلمين ولكنه اليوم قوي ومشبوب لما نلاحظ من دلائل دامغة على ان خلاصنا الشامل هو في هذه العودة وبعدد لمسنا ما للاسلام من قوة في ايجاد الجندي القوي والفكر العميق والاقتصاد السليم والعافية التامة ، لقد كان الاسلام وراء الثورات العظيمة في تاريخنا ولا نزال نرى تأثيره في الحرب التحريرية البطولية في ارتيريا والغلبين والمقاومة الفلسطينية المؤمنة في الداخل والخارج ، والاسلام هو الذي كان وراء بطولة الجندي المسلم في حرب رمضان التي اجهضها الفكر السياسي وشبه لعبد الله بن [illegible] وحال دون تحقيق اهدافها ، والاسلام هو

الذي جعل العالم الاسلامي ، على تمزقه وضعفه ، صفا واحدا في المحافل الدولية .

والاسلام هو الذي كان وراء التجربة المصرفية الرائدة في دبي ، والاسلام هو الذي ايقظ في نفوس المسلمين هذه الجذوة الخالدة المقدسة وذلك التطلع النوي نحو التحرر والتضحيات غير المشروطة . ان على العرب أن يعودوا الى يوم « جمعتهم » اذ لم ينفعهم « سبت » اليهود ولا « أحد » النصارى ولا يوم من ايام المشركين ان هذه البلبلة الفكرية والتيه العقائدي والترقيع الايديولوجي انما هو استمرار في الضعف وتثبيت لعوامل التمزق والفرقة خداع والسباق وراء المصطلحات وتغيير المفاهيم وتخليط المعالم « انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء اعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين » .

ان المجهودات الجبارة التي ينفقها العرب في بناء حضارة جديدة ونهضة قوية تذهب دائما ادراج الرياح ، ذلك لان البناء على غير اساس والانفاق عن غير تخطيط علمي وان الفكر الذي اعتمدناه الى الآن فكر ضرار اشاعوه في الناس تفريقا بين الاخوة وارصادا للعدو . « افمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ام من اسس بنيانه على شفا جرف هار » وكل فكر يقود الى الهزيمة فهو فكر مهزوم

ان قوانين الله صارمة وقد استخلف سبحانه عدة امم فنصر من استحق النصر وهلك من استوجب الهلاك واستبدل اقواما بآخرين ولم يضروه شيئا وهو سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم في بلاد العرب ليكونوا قادة هذا الدين ودعاة هذه الحضارة على اساس توحيد الله واتباع نبيه صلى الله عليه وسلم وهم في ذلك مخيرون فان احسنوا القيادة أحسنوا لانفسهم اذ ضمنوا لها العزة والكرامة وان اساؤوا لانفسهم . « ولقد اهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليومنوا كذلك نجزي القوم المجرمين ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون » . وقد خلق من بعدهم خلق يحاولون تغيير رسالتهم وقرآنهم فاصبحوا تماما يصدق عليهم ما صدق على أوائلهم قبل الاسلام . « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحى الى اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله افلا تعقلون » فهلا يعقل عرب اليوم فيصبحوا بذلك قادة عالم جديد له من الامكانيات ما يجعلهم اعظم دولة في العالم ، فانه ليس بينهم وبين ذلك الا ان يكونوا صرحاء مع انفسهم فيستجيبوا لنداء المسلمين الملحاح وعندئذ يستحقون من الله ما يرجون .

فاس — الدكتور عبد السلام الهراس

المغرب الحديث :

الاختيار الدبلوماسي المغربي

للأستاذ زين العابدين الكتاني

ان الخصائص التي تلعب دورها المستمر منذ قيام الكيان المغربي وتركيز اختياره الدبلوماسي الذي ميز هذه الديبلوماسية باسس تجعلها دائما تزداد تبلورا وتفتحا محافظة على اختيارها الاصيل، مباهية بعمق اصالة هذا الاختيار، وقدرته المنسجمة مع تطور العصور والاجيال هي التي تتحكم في هذه الخصائص بل وتعطيها طابع اصالتها باستمرار كعوامل طبيعية هي نفسها اساس هذا الاختيار وعمقه الذي حافظ على توازنه وقدرته عبر جميع التطورات والمراحل التي تقلب فيها المغرب.

وترتكز هذه الخصائص على :

اولا : كون المغرب الاقصى يوجد بين بحرين عظيمين هما المحيط الاطلسي والبحر الابيض المتوسط، ثم وقوعه في مركز جعله نقطة التقاء بالنسبة لقارتين اوربة وافريقية بالاضافة الى وجوده في نقطة من ابرز نقط تفرض عليه باعتبار افريقيته صلة وصل في العالم المحيط به.

ثانيا : وهو ايضا كبلاد زراعية غنية خصوصا في حياض انهارها التي تغطي كل جهاتها وسهولها الواسعة الممتدة فيما بين المحيط وجبال الاطلس بالاضافة الى انها بلاد غنية بتربية المواشي، وبمواردها الاولية ومعادنها، وطاقات ابنائها الخلاقة.

ثالثا : وما يمتاز به من جمال يتجلى في تنوع مناظره الطبيعية الساحرة، والآثار المعبرة عن تاريخ عريق مجيد، بالاضافة الى المناخ المعتدل، والهواء الطيب والغابات الفاتنة، وتنوع المصطافات الجبلية والساحلية في طول البلاد وعرضها.

رابعا : وطابع الاستقرار والتعقل الذي يطبع المواطن المغربي من حيث هو، وتاثير هذا الاستقرار والتعقل على طابع الحياة العامة مما يميز البلاد المغربية في مختلف عصورها بميزة الشخصية المتزنة التي تحبب المغرب لضيوفه ، وتبعث الرعب في نفوس الذين يضمرون له شرا ، او يفكرون فيه ..

ولذلك فان الاختيار المغربي المرتكز في المجال الديبلوماسي على عدم التبعية وعدم الانحياز منذ تاسست الدولة المغربيه لم يقم على اختيار عفوي او اختيار وقتي انتقالي، ولكنه ارتكز على اختيار ظل دائما يتسم وباستمرار بالحيوية الايجابية والحرص على التاثير في ما جريات الامور، تعبيرا عن شخصيته المميزة، وتاكيدا لها وتدعيما لكيانه الدولي من جهة، ومحافظة على استقلاله وسيادته من جهة ثانية.

ولقد ظل هذا الاختيار دائما هو اختيار المغرب بالرغم من التطورات والانقلابات التي شهدها وعاشتها وحدته في مختلف اطوارها الى ان تعرض في نهاية القرن التاسع عشر الى تنافس الدول الاستعمارية فسقط سنة 1912 في يد الاستعمار بعد تقسيم وحدته الترابية بين الدول المتنافسة.

لكن، هل انتهت العلائق الخارجية بين المغرب والمحيط الاسلامي، بل والمحيط العالمي العام ؟ وهل تغيرت وحدة البلاد بهذا التقسيم .. ؟ ثم وهل اقبرت الدولة المغربية بنفوذها الخارجي ، وديبلوماسيتها

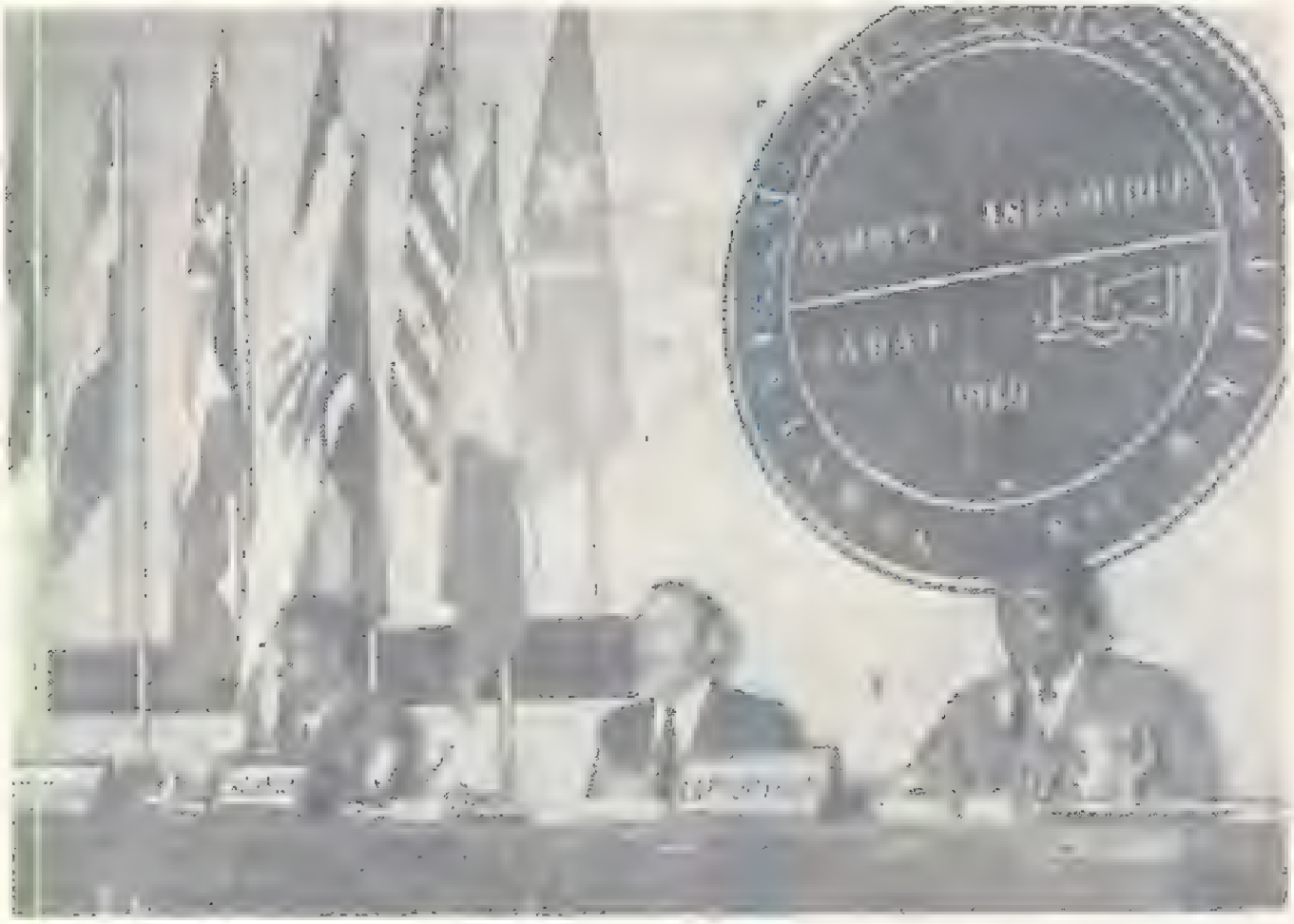

سنة 1969 كان أول لقاء للقمة الاسلامية بالرباط

المستقلة القوية الممتازة ؟ او عرف المغرب كيف يحافظ على ذلك ولو بعد ان تعثر قليلا ؟ .

لقد اصيب المغرب بالاستعمار الدولي، واصبح في تلك الظروف الدقيقة ودولة بدون قانون، ومن هنا تيسر لاول التنافس الدولي (1) على المغرب ان تقتسمه وان تسكت هذا الصوت الحر ولو قليلا بعد انْ وزعته الى مناطق وجيوب، واصبح ينقسم الى مناطق وجيوب (2).

لكن المغرب لم يسكت كما شاءت تلك الدول، ولن يسكت ابدا، بل عرف كيف يحافظ على مركزه الخارجي سواء في المحيط الاسلامي او الدولي، وقد انكشف هذا الحفاظ اثر حوادث غشت 1953 التي اعتدى فيها على مركز السيادة المغربية فكانت خير مثال لنا على بقاء تلك العلائق قائمة ومركزة والتي عادت الى مجراها الطبيعي الاصلي اثر اعلان استقلال الاجزاء المحررة فكان على الديبلوماسية المغربية الفتية ان تواجه :

1 ـ تركيز علاقات ديبلوماسية واقتصادية وثقافية مع مختلف دول العالم.

2 ـ وان تصفي عددا من المشاكل المعلقة بين المغرب وفرنسا وبين المغرب واسبانيا على الخصوص.

3 ـ وان تحتل مكانها في المجال الدولي.

4 ـ واجلاء الجيوش الاجنبية المرابطة.

5 ـ وتصفية القواعد العسكرية الاجنبية.

6 ـ استكمال الوحدة الترابية للمملكة المغربية.

7 ـ وان تتخذ موقفها من الاحداث والقضايا الدولية الكبرى مستهدفة في مواقفها هذه التوفيق بين مقوماتها الاساسية ومصالحها وبين مقتضيات السياسة العالمية وميثاق الامم المتحدة ومبادىء القانون الدولي .

8 ـ وان تتخذ موقفا من الحرب التحريرية في القطر الجزائري الشقيق.

ولقد امتاز اسلوب محمد الخامس للانطلاق بالديبلوماسية المغربية بعدة صور ديبلوماسية خاصة تميزت بعدد من اللقاءات الرائعة التي لعبت فيها لديبلوماسية المحمدية اروع صور يحتفظ بها تاريخنا المعاصر ، ونأخذ صورتين كنموذج للقاءات خالدة في تاريخ ديبلوماسية محمد الخامس ، كان لهما اكبر الاثر في خلق الديبلوماسية الحديثة هما :

اولا : لقاء آنفا بالدار البيضاء.

ثانيا : وكانت الرحلة الملكية الى فرنسا (عملا ديبلوماسيا ممتازا في تاريخ المغرب، وضع به جلالة الملك قضية البلاد على بساط البحث، وناقشها مع الدوائر الفرنسية المسؤولة : وزارة الخارجية ورئاسة الوزراء، ورئاسة الجمهورية وكانت محادثات ومناورات وكان اخذ ورد وتبادل وثائق، واخراج القضية المغربية من اطارها الضيق الحالي الى اطار أوسع، واعم واشمل (3) .

بـــوادر العهـــد الحســـني :

ولن نتخطى عهد محمد الخامس رضي الله عنه الذي ركز نشاطه الخارجي لبعث الديبلوماسية المغربية، واعادة تأسيسها واقرارها في القالب الذي يصل الحاضر بالماضي والمستقبل طبقا لما سجلته المعركة الكبرى وظروفها مما اكد استمرار الثورة وحقيقة جدورها، فطبع عهده بطابع غير طابع الديبلوماسية المحمدية (سنة1956 حتى1959) لكن محمدا الخامس الذي بعث المغرب الجديد كان يعلم ان بعث الديبلوماسية المغربية الجديدة وحده لا يكفي، ولهذا فلم يفارق جلالته الحياة سنة 1961 الا بعد ان ركز خطوط مستقبل ديبلوماسيتنا في الخطوط التي ارتكزت عليها من بعد.

وهذا التخطيط قد يظهر وكأنه نتيجة لظروف عفوية في عمومه اذا علمنا ان خطوط هذه الديبلوماسية قد ركزت في مظهرين واضحين وعميقين هما :

اولا : الرحلة التي قام بها جلالته لدول الشرق العربي (في مارس 1960) وخرج منها بنتائج هي اروع مثال يمكن ان ترتكز عليه قدرة هذه الديبلوماسية الفتية

---

(1) المانيا وايطاليا وانجلترا وفرنسا واسبانيا.

(2) كتاب : (الديبلوماسية المغربية في عشر سنوات) لوزارة الخارجية.

(3) جريدة (الرأي العام) ع : 176 ـ س : 4 ـ 17 نوفمبر 1950 ص : 1

. . . ويلتقي المغرب سنة 1951 بمجموعة دول أمريكا اللاتينية بالرغم من ضراوة المعركة

حيث عاد جلالته،ويبده سنة بلاغات رسمية مع رؤساء الدول العربية التي زارها تستهدف الى أن وحدة المغرب ـ جزء لا يتجزء ...

وهذه الظاهره قد ركزت حقيقة المفهوم الديبلوماسي الحقيقي الذي يركز الوجود الوطني في شموليته ووضوحه.

ثانيا . ويهتم العالم الخطوة الاولى لانها تحمل اشياء تؤكد اصالة هذه الديبلوماسية ، وتستمر الخطوط الجديدة في النسج عند جلالة الملك الصالح فيشعر بأن الاسلوب الذي خطه المغرب ما بين سنة (1956 الى 1961) اصبح يرتكز على بعث اسلوب آخر، اسلوب يعيش مع الاحداث المقبلة التي يطل عليها المغرب فيدعو جلالته الى عقد مؤتمر للدول الافريقية المتحررة لان المستقبل يؤكد ان افريقية على ابواب دخول حياة جديدة كفارة متحررة تنشد التخلص والانطلاق ..

وفي نفس هذا التخطيط انعقد مؤتمر الدار البيضاء ليحدد جلالته في وضوح الاهداف الحقيقية للمغرب الافريقي في النقط التسع التي استهدفها جلالته في الخطاب الافتتاحي للمؤتمر.

« لقد كان بودنا ان يكون نطاق هذا المؤتمر اوسع فتشترك فيه جميع الدول الافريقية لان الحركة الافريقية واحدة، ومصيرها، ومطامع شعوبها واهدافها مشتركة بيننا جميعا » .

ويقول بعد ذلك واضعا ومحددا للديبلوماسية المغربية الافريقية خطوطها العريضة مؤكدا ضرورة :

1 / (القضاء على النظام الاستعماري وذلك بتحرير الاجزاء التي لا تزال مستعمرة بافريقية تحريرا حقيقيا).

2 / القضاء على العنصرية بجميع مظاهرها ونظمها.

3 / محاربة الاستعمار الجديد في جميع اشكاله ومختلف الوانه، وفضح اساليبه التضليلية الجديدة.

4/ دعم استقلال الاقطار الافريقية المتحررة والدفاع عنه.

5 / تشييد الوحدة الافريقية.

6 / اقرار سياسة عدم التبعية بالاقطار الافريقية.

7 / انهاء كل احتلال لافريقية ومنع استعمالها ميدانا للتجارب الذرية.

8 / معارضة كل تدخل اجنبي في الشؤون الافريقية.

9 / العمل على تثبيت دعائم السلم العالمي .. (4)

ولا تلزم الديبلوماسية المغربية في عهد محمد الخامس (رحمه الله) اسلوبا معينا بذاته، ولكن هذه الديبلوماسية قد التزمت اسلوبا جديدا، وتفكيرا مستقلا يرتكز على بعث الديبلوماسية المغربية الجديدة في المغرب الجديد محافظة على نفس الاختيار ونفس الاتجاه للانطلاق والبناء.

وبالرغم من أن المغرب الجديد ابتدأ هذه الديبلوماسية وهو مؤمن ان هذه الديبلوماسية تحتاج منذ اللحظات الاولى الى :

- خلق الظروف الديبلوماسية.
- بعث الديبلوماسية.
- تهيئ الفكر الديبلوماسي.
- البحث عن الديبلوماسية المغربية الجديدة.

فان هذا ما تؤكده المواقف التي وقفها المغرب منذ 2 مارس 1956 في المجال الديبلوماسي، وهذا بالذات مايجعلنا نلاحظ أن الديبلوماسية المغربية في عهد محمد الخامس (رحمه الله) كانت لا تلتزم اسلوبا معينا بذاته ولكن هذه الديبلوماسية قد التزمت اسلوبا جديدا، وتفكيرا مستقلا كان كل همه بعث الديبلوماسية المغربية الجديدة في المغرب الجديد.

مدخل للعهد الحسني :

واذا كانت وفاة محمد الخامس (رضي الله عنه) المفاجئة قد اقترنت بانتهاء فترة جديدة بخصوص الديبلوماسية المغربية، وهو انعقاد مؤتمر الدار البيضاء الافريقي باعتباره أول لقاء بين افريقيا والدول

(4) مؤتمر الدار البيضاء بالمغرب انعقد من 3 الى 7 يناير 1961.

لقاء أتفا سنة 1943 كان خطوة هجومية للدبلوماسية المغربية . . .

لقاء بلغراد لدول عدم الانحياز سنة 1961 كان أول خط في الدبلوماسية الحسنة . .

العربية فان هذه الفترة تعتبر الظرف الواضح لرسم معالم الديبلوماسية المغربية في المغرب الجديد وهو ما يعني في وضوح ان المغرب قد قطع خطوات خاصة وان نتائج هذا المؤتمر خدمت الديبلوماسية المغربية في العمق، وفتحت لها نوافذ على عالم اليوم .

وتطورت الاحداث الدولية بسرعة . فانعقد مؤتمر دول عدم الانحياز (5) ولكن ليلتقي في هذا المؤتمر المغرب الديبلوماسي بفرصة جديدة هي انعقاد المؤتمر بيوغوسلافيا بحضور المغرب فيفتح المغرب آفاقا جديدة في المجال الديبلوماسي المغربي فيحدد مفهوم المغرب الجديد بوضوح مؤكدا (ان حيادنا لا يعني الانعزال او اللامبالاة بالنسبة لجزء من البشرية، بل هو على العكس من ذلك يعني قبول كل ما هو عادل، وحق في نطاق الفكر البشري وانه حياد نشيط وحي، ولا يستهدف سوى انقاذ القيم الانسانية، واقرار السلام والتقدير بين الجنس البشري) (6) .

واذا كان المؤتمر الجديد بادرة مهمة فان الديبلوماسية المغربية قد سجلت استمرار الخطوط العامة التي اختارها المغرب وهو يؤسس هذه الديبلوماسية الحديثة ويؤكد هذا الراي ان جلالة الحسن الثاني عندما حضر المؤتمر وترأس بعض جلساته أوضح كثيرا من خطوط ديبلوماسيتنا المتحررة ، فقد أوضح هذه الخطوط :

1 — التزام المغرب لروح الديبلوماسية المغربية المتزنة التي لا تتأثر بالاحداث الدولية العابرة وبظروف الانتقال التي تسيطر اليوم على ديبلوماسية كثير من الدول النامية وغيرها ممن يتأثرون بالتطور المعاكس وبالتيارات الوقتية ..

واذا تذكرنا حوادث الحدود المغربية الجزائرية وذكرنا التدخلات الاجنبية بالنسبة للوضع والظروف التي كان يوجد فيها المغرب والموقف الذي التزمه وهو يقف للدفاع المجرد .. استطعنا أن نوضح ماذا نقصد بالتزام روح الديبلوماسية المغربية المتزنة التي لا تتأثر بالاحداث العابرة والوقتية.

2 — الاسلوب المتحرر الخاص في الاتصال المباشر او غير المباشر مع كل الذين دفعتنا ظروفنا الدولية إلى الاتصال بهم بطريقة او باخرى.

وهكذا لنكون قد التزمنا باختيارنا الديبلوماسي في التوازن مضبوط ولو ان عودة ديبلوماسية المغرب قد اتخذت من أول وهلة موقفا واضحا مناصر الشعوب المغلوبة، وتؤيد حقها في تقرير مصيرها بنفسها، وتستنكر كل وسائل العنف والقمع المسلح المتخذة ضدها باي اسلوب كان ..

في الوقت الذي اصبح فيه الخلاف على اشده بين المعسكرين الشرقي والغربي والحرب الباردة تملأ جو العالم بالتوتر، والايديولوجيات المتناحرة تتنازع التسيطرة على العالم ويتحكم في دول العالم الثالث الجوع بكل مظاهره، والتخلف بكل اشكاله.

وهذا الوضوح هو ما يشير اليه بالخصوص كل من الزيارتين الملتين قام بهما جلالة الملك الحسن الثاني الى روسيا (7) وامريكا (8) .. وعبرت للعالم في وضوح ان المغرب منذ ان تسلم مقاليد شؤونه الخارجية حدد لنفسه في ميدان العلاقات الدولية سواء على الصعيد الدولي او على صعيد المنظمات سياسة محددة في اهدافها مخططة في وسائلها مستهدفة في طرق عملها. واذا ما اردنا أن نجمل القول بالنسبة للديبلوماسية الحسنية فان المغرب قد سلك طريقا، والتزم مبادىء واضحة تتلخص في :

- احترام المواثيق والتعهدات الدولية.
- والحرص على عدم التدخل في الشؤون الداخلية للامم الاخرى
- والتعاون معها في غير تبعية.
- ومناصرة الشعوب المطالبة بحقها في الحرية والاستقلال .

---

(5) انعقد في بلغراد من 1 /6 سبتمبر 1961 وترأس وفد المغرب صاحب الجلالة الحسن الثاني.
(6) خطاب جلالة الملك في المؤتمر الاول في بلغراد سنة 1961.
(7) من فتح ابريل الى السابع منه 1969.
(8) من 8 الى 18 ابريل 1966.

المغرب سنة 1906 في مؤتمر الجزيرة الخضراء ينتزع الاعتراف بوحدته ـ ص

— وادانة الحز العنصري بجميع اوانه .

— والنفور من العنف، والنزاع المسلح في حل المشاكل التي تقوم بين دولة واخرى.

— والنزوع الى التفاوض والوسائل السلمية.

— والمطالبة بجعل حد للتسلح والتجارب النووية.

— ونحمل نصيب من اعباء الوسائل العربية والافريقية طبقا لما يفرضه الواجب.

وهكذا ففي الوقت الذي يعمل فيه المغرب لبلورة الاسلوب الديبلوماسي فهو يحافظ في نفس الوقت على سلوك الطريق المرسوم الذي يلتزم فيه كما قال جلالة الحسن الثاني : **(المبادىء التي جعلها والدنا المنعم اساسا للتعاون مع باقي دول العالم).**

ومن هنا نرى الخطوات التي قطعها المغرب لبلورة اسلوبه الديبلوماسي الحسني في عالم اليوم، عالم التكتلات والايدلوجيات المنتمية التي انصبت على دولنا الناشئة ودولنا العربية والاسلامية. ولقد خرج المغرب من معارك متعددة، وقد طبع طريقه اسلوب مغربي واضح سواء بالنسبة للعاملين في نطاق ركب هذه المعسكرات، فقد خرج المغرب وسيخرج منتصرا باسلوبه الخاص الصرف الذي سيظل مؤكدا ان الديبلوماسية الحديثة محددة في اهدافها ووسائلها وطرق عملها .. ولا ننسى ونحن نحاول ان نقترب من تحديد آفاق الاسلوب الديبلوماسي الحسني ان نؤكد ان ديبلوماسيتنا الفتية تواجه في طريقها عاملين اساسيين :

اولا : محاولة تركيز استقلال اسلوب الديبلوماسية المغربية.

ثانيا : تحقيق الوحدة الترابية للمملكة المغربية في حدودها الحقة .

وبعد ، فاذا كنا نرى ان التزام هذا الاسلوب قد يبدو بالنسبة لطبقة الشيات وكانه اسلوب (هادىء) او (محافظ) فانه وكما اكدت التجربة والظروف اسلوب سيخرج بنا من مرحلة النمو دون ان يؤثر على اختياراتنا الاصلية، وذلك ما يظهر واضحا وجليا :

اولا : تركيز وحدة الصحراء المغربية المسترجعة بباقي اجزاء المملكة سواء على الصعيدين الداخلي والخارجي.

ثانيا : عندما اضطر المغرب الى توضيح موقف ديبلوماسي يتصل بعدم الانحياز بعد الانتصار الذي حققته الوحدة الجزائيرية بمساعدة المغرب فاوضح (9) صاحب الجلالة عندما دعت الضرورة الدولية الى ذلك بما يلي :

« هناك مجال آخر هو مال السياسة الخارجية ، فالمغرب معروف انه لايزال متشبث بمبدئه بعدم الانحياز ولكن علينا ان نفسر ماذا يعني عدم الانحياز؟

عدم الانحياز يعني ان الانسان المغربي في سياسته الخارجية عليه ان لا يركب طريق الفضول، فكل مشكل من المشاكل التي لا تهمه لا جغرافيا ولا عقائديا، عليه ان يبقى بمعزل وان لاينحاز الى جانب دون جانب نظرا لصداقة او نظرا لجوار.

ولكن اذا اصبح الشكل مشكل معتقدات او مشكل مبادىء، والمغرب متشبث بها وملتزم بها، اصبح المغرب غير منحاز، بل عليه ان ينحاز، وهذا ما دفعنا مثلا اخيرا الى ان نخوض غمار الحرب في زايير ففي زايير مثلا انحزنا لصديقتنا زايير لا سباب متعددة :

اولا — لانها دولة معترف بها .

ثانيا — لانها طلبت منا المعونة .

ثالثا — لانها لو كانت في خلاف مع دولة صديقة لحاولنا التدخل السلمي مع دولة صديقة، ولكن هذه الدولة الصديقة الشقيقة وجدت في خلاف مع دولة تشمر لنا العداء، بل صرحت بمواقفها ضد مصالحنا في الصحراء بل اعترفت قضائيا وحلما بما اعترفت به واصبح من الواجب على المغرب أن لايسكت ولا سيما ان تلك الدولة التي هاجمت زايير ارادت أن تدخل على قارتنا مذاهب لا يقول بها المسلمون ولا يقول بها العرب ، ونحن دولة اسلامية ولا يمكننا اذن أن لا نغير المنكر في قارتنا بجانب صديقتنا اذا كان ذلك ممكنا » .

وهذا التوضيح لايعتبر هو الاول من نوعه ولكنه هو التوضيح الثاني، وهذا من ابرز اصالة الاختيار.

---

9 / خطاب صاحب الجلالة مساء يوم الاحد بالرباط (22 / 5 / 1977) .

أبو الفضل يوسف ابن النحوي المغربي

للأستاذ عبد الله الجراري

ابو الفضل من قلعة بني حماد اصله من توزر ـ دخل سجلماسة وفاسا ـ ثم عاد الى القلعة، وبها توفي سنة 513هـ 1119م عن ثمانين سنة. اخذ صحيح البخاري عن اللخمي ـ وقد سأله ما اتى بك ـ قال ابو الفضل : لنصر تبصرتك. فقال له : تريد ان تحملني في كفك للشرب. يقصد ان علمه كله فيها ـ كما اخذ عن غيره كالمازري وابي زكرياء الشقراطيسي.

كان من العلماء العاملين وعلى سنن الصالحين مجاب الدعوة حاضرا مع الله في غالب امره ، له اعتقاد تام باحياء ابي حامد الغزالي. فعندما افتى الفقهاء بحرقها في صحن مراكش ووصل كتاب سلطان لمتون بذلك انتصر وكتب للسلطان واقنعه بعدم لزوم تلك الايمان، وتحلف الناس بمغلظ اليمين ان ليس عندهم الاحياء فعندما وصل كتاب رئيس الدولة بالتحريج ـ والتحريم ـ ذهب ابن حرزهم الى ابي الفضل يستفتيه في تلك الايمان، فافتى بانها لاتلزم.

وتنكم ظاهرة نبيلة تبرهن في جلاء عن قوة ايمان الرجل، وثبات عقيدته ورسوخ يقينه في الله غير مكترث للصولة والسلطة التي لاتجرى على موجب للحدود والمبادئ.

وان جرى نوعها بالشرق، وصدع بها عدة علماء ـ كالنووي، والعز بن عبد السلام ـ فمترجمنا ابو الفضل المغربي له فضيلة السبق في الميدان ـ فضيلة تل من يتوفير عليهما من علماء الشعوب ومثقفيها وقد نسخ ابو الفضل الاحياء ثلاثين جزءا وكان كل يوم من رمضان يقرأ جزء قائلا : وددت اني لم أنظر في عمري سواه [1].

وما جرأة فقهاء الدولة الذين كانت لهم الصولة في الحكومة المرابطية الا نتيجة قصور وتزمت وجمود في اطار ضيق من الفهم لمدلولات التشريع الصحيح ووقوف عند اقوال فقهاء لم تتسع صدورهم لادراك تعاليم الاسلام ومراميها المنشرحة.

كان الغالب على ابن النحوي العالم الصوفي الصادق الحضور والتعلق بالحضرة الالهية ، الرامي مفهومها الى كلمة تبوصوفي التي ذهب يون هامر Hon Hamer الالماني الى اشتقاقه منها.

يقال انه بات عنده ضيف، فدخل في بيت يصلي فيه، فكثر اللغط وارتفعت الاصوات في الدار فقال الضيف لابنه : اما تشغلون خاطر الشيخ بهذا في في صلاته ؟ فقال له ابنه : انه اذا دخل في الصلاة لم يشعر بذلك.

1) وهذا الاندفاع الغريب نحو كتاب الاحياء البالغ درجة انه لا ينظر حياته سواه ـ والسوى بالطبع قد يتناول احول الاحياء وينابيعها من كتاب وسنة، لكن الظن ابني الفضل لا يتحمل هذاء رغم ما توحي به العبارة، او الشغف بمضامين الاحياء جعله يبالغ والامر حرج على مبالغ.

والغيبة هذه الصوفية هي غير السكر في اصطلاحهم الفني ـ حيث يغيب الشخص عن تمييز الاشياء ولا يغيب عن الاشياء ـ وهو ان لا يميز بين مرافقه وملاذه، وبين اضدادها في مرافقه الحق ـ فان غلبة وجود الحق تسقطه عن التمييز بين ما يؤلمه ويلذه .

في هذه اللحظة تعجب الضيف من اقواله كالمنكر له ـ وعن كثب تناول الابن السراج وادناه من عيني ابي الفضل وهو في صلاته فلم يحس به لحضوره مع الحق وغيبته عن الخلق .

ومر به شخص وهو يمشي في طرق فاس فقال له اين الطريق الى سوق البقر ؟ فقال له : هو الذي تمشي فيه ـ وانشد :

ان كنت ادري من اين آتي
واين من حيرة امر

فانت بامركي حبس
ويا غلامي فانت حر

فابو الفضل كما نرى يصارح السائل بان السوق المسئول عنها هي هذه يعني ما هما سائران فيه الآن فالمجموع فيها من بني الانسان لا يدرون اين اتوا واين يمرون ويذهبون لما علاهم من ذهول وركبهم من حيرة لحد جعل الشيخ ابا الفضل يصورها بصورة بقر ـ خطوب وهموم تفقد الانسان انسانيته فيصبح مسلوب التمييز فقيد العقل يستطيع رائيه وضعه مكان العجماوات من الحيوانات.

« يغمى على المرء في ايام محنته
حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن»

هذا يفكر في مصيره وذاك في ذريته واسرته، والآخر في الوسط الموبوء، ورابع في المجتمع وامراضه وكيف الوصول الى العلاج الناجع ؟ اشياء من اشأنها ان تقلب الحقائق وتجعل الانسان غير الانسان .

يقول ابن الزيات التادلي في كتابه التشوف : حدثني يحيى بن عبد الرحمن قال : انشدني ابو العلاء ادريس بن محمد الكتامي عرف بابن الرمامه قال : انشدني ابو الفضل :

اصبحت فيمن له دين بلا ادب
ومن له ادب عار من الدين

اصبحت فيهم فقيدا الشكل منفردا
كبيت حسان في ديوان سحنون[1]

يشير الى البيت الذي لحسان في كتاب الجهاد من المدونه ونصه :

نهان على سراة بني لؤي
حريق بالبويرة مستطير

فها نحن نرى الصوفي ابا الفضل يرثي لنفسه ويشفق من الحالة التي يعيشها ابناء شعبه لدرجة ان المتدين القائم بشعائره عار عن الادب بعيد عن الفضيلة في سلوكه وسيرته بل حسبه الاتيان بما وجب عليه اداؤه من طقوس دينيه شخصية لا اقل ولا اكثر ـ ناس او متناس ما يجب ان يتحلى به من محامد ومكارم تجعله مرموقا بين ابناء الوسط الذي يعيشه منظورا اليه بعين التجلة والاكبار ـ وعلى العكس نراه يتأفف ويتألم من طبقات توفرت على سلوك طيب، وخلق حميد بيد انها في تبرم وابتعاد عن القيام بما فرض عليها من واجبات وما طولبت به في دائرة التعبد والاكثار من اعمال وتوجهات لله بل حسبها التظاهر بمظهر اللين والطيبوبة في التعامل مع البشر ، وليست كلا من الفريقين شرب من الكاسين فتعبد وتأدب ـ وعاش مترجمنا ابو الفضل ومن على شاكلته مستريح البال مطمئن القلب سعيدا برؤية ابناء امته سعيدا ظاهرا وباطنا.

انه ابو الفضل الذي يقال فيه: اعوذ بالله من دعوة ابن النحوي اذ كان مجاب الدعوة ـ جاء عن ابي الحسن علي ابن حرزهم ـ ان ابا الفضل كان يلبس البياض ـ فدخل عليه شاب من طلبة العلم فبادر يسلم عليه فاراق المداد على ثوب ابي الفضل من محبرة فخجل من ذلك فقال له ابو الفضل ـ رفعا للخجل عليه : كنت اقول : اي لون اصبغ به هذا الثوب ؟ فالآن اصبغه حبريا، فجرده وبعثه الى الصباغ.

وحدث ابو الحسن قال : اوصاني ابي ان اقبل يد ابي الفضل ابن النحوي متى لقيته، ولو لقيته في اليوم مائة مرة، فبعثني يوما اليه ليدعولي، فاتيته وقت غروب

---

1) سحنون عبد السلام بن سعيد الشوخي مصنف المدونة التي عبر عنها ابو الفضل «ديوان سحنون» وعليها اعتماد اهل القيروان ت 240 ـ 854.

الشمس فوجدته يتوضأ — فلما فرغ من وضوئه نظرت الى الاناء كأنه لم ينقص منه شيء. فلما غربت الشمس — اذن واقام وصلى وصليت معه، فلما اراد ان يكبر نظرت الى ثوبه الذي على كتفه فاذا به يتحرك حركة شديدة يسمع صوته من شدة الخوف ثم قرأ قراءة مبينة سردها حرفا حرفا، فلما سلم دعا فانصرفت الى ابي فحدثته وقلت له : رايته صلى عند غروب الشمس قبل الوقت الذي يصلي به اهل البلد، فاهوى الى يده ولطمني وقال لي : اتتكلم في ولي من اولياء الله تعالى، وهل وقت المغرب الا ذلك الوقت الذي صلى فيه ابو الفضل، وانما الناس ابتدعوا في التاخير عن ذلك الوقت، ثم امرني ابي ان احكي له فعل ابي الفضل من اوله الى آخره ففعلت فقال لامي وكانت حاضرة : هذا صبي نرجو من الله تعالى ان ينفعنا به فانه وجد بركة ابي الفضل وقد رايته حين دخل علي، وعليه نور، فعلمت ان الله قد اجاب فيه دعوة ابي الفضل.

وحدث ابن ابي القاسم عن ابي علي سالم قال : لما دخل ابو الفضل سجلماسة — امران ينزل في دار قريبة من الحمام بعيدة من المسجد، فانكروا عليه ذلك غير منعمين النظر فيما يرمي اليه وسألوه عن ذلك فقال : خطاي الى حمام في حق بدني وخطاي الى المسجد فيها الاجر فاريد ان تكون كثيرة فاريد أن تكون قليلة ، سنكتب ما قدموا وآثارهم كما جاء في القرآن — وفسر بالخطا الى المساجد ومن اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار وسبيل الله اوسع من ان يحصر

ومن المأثور عنه — انه لما عاد الى القلعة اخذ نفسه بالتقشف وهجر اللين من الثياب، ولبس الخشن من الصوف ، وكانت جبته الى ركبتيه .

عمر يوما بابي محمد بن عصمة ، وكان قنطرته المدينة ومقنطرتها مشغول البال في الذكر والتعلق حسب مشربه — فعظم ذلك على ابن عصمة، فلما رجع ابو الفضل ناداه ابن عصمة محقرا له : يا يوسف — قلباه ابو الفضل، واتاه فلم يسلم عليه ابو الفضل — وربما كان غالب الفكر، فقال له : ياتوزري صغرت وجهك ، ورققت ساقيك، وصرت تمر فلا تسلم —

فاعتذر له ابو الفضل، فلم يقبل عذره، واغلظ له القول فقال له ابو الفضل غفر الله لك، وحسبه قدوة في هذه بالرسول الاعظم وكم لهذا العالم الناسك من كرامات وآيات تسفر في عمقها عن مسلم ذاق حلاوة الايمان، وصفت مشاربه، واصبح من الذين لا يرون في الوجود سوى الخالق جلت قدرته.

يقول القاضي ابو عبد الله بن علي بن حماد : كان ابو الفضل ببلادنا كالغزالي في العراق علما وعملا، ويقول فيه القاضي عياض — : كان من اهل العلم والفضل شديد الخوف من الله — غالب حاله الحضور مع الله تعالى — لا يقبل من احد شيئا انما يتعيش مما يأتيه من توزر.

الرباط — عبد الله الجراري

---

1) البويرة — موضع لبني النضير حرقه عليهم الرسول بعد غزوة احد بستة اشهر.

الشاعر الوزير محمد بن موسى (2)

دراسة وشهادة

للأستاذ محمد المنتصر الريسوني

— (2) —

كان هذا ارهاصا ببزوغ فجر نهضة فكرية جديدة في المغرب وخصوصا بعد ان عرف في هذا الطور من حياته المطبعة التي جاءته من باريس عام 1859 م ، ومن مصر عام 1865 على يد قاضي تارودانت السيد الطيب الروداني حين ذهابه الى الحج ، وبعد ذلك اشتهر ما يسمى بالمطابع الفاسية التي كان مقرها بفاس والتي طبعت كتبا شتى في كثير من الفنون (كنشر المثاني) للقادري و (الدوحة) لابن عسكر و (الانيس المطرب) للعلمي و (السلوة) للكتاني و (المحاضرات) لليوسي ، وغيرها مما لا نستطيع احصاءه هنا .

ومما يسترعي النظر بعد انتشار الطباعة ظهور جريدة بطنجة هي جريدة (المغرب) الاسبوعية سنة 1889 وبعدها صدرت جرائد مختلفة في مدن المغرب

واذا رحنا نبحث عن العوامل التي تضافرت على خلق المناخ للمعارف والثقافات ، وعلى رعاية الملكات ، وتفتيق القدرات واغناء الامكانات في أوائل القرن العشرين وجدناها تتبلور فيما يأتي :

1 ـ انتشار الصحافة وهي من نتاج المطابع التي انتشرت في المغرب ، وكانت اول جريدة ـ كما سبق ـ صدرت فيه هي جريدة (المغرب) وذلك بمدينة طنجة ، وجريدة (المغرب الاقصى) سنة 1900 م ثم جريدة السعادة سنة 1905 م وغيرها .

2 ـ انتشار التعليم ويتجلى فيما سمي اليه المغرب ببعث الوفود الى أوروبا ، وتاسيس المدارس العصرية ، برغم ما كان يبذله الاستعمار من دسائس لعرقلة المساعي المغربية في هذا الشان ، مما كان يدفع الشعب المغربي اليقظ الى انشاء المدارس الحرة في الجنوب والشمال ، ولا يعزب عن بالنا ـ ونحن نتحدث عن انتشار التعليم ـ دور القرويين العظيم في نشر المعارف والحفاظ على التراث الاصيل والمقومات الاسلامية ، وبث الوعي الاسلامي الحق ، والوقوف في وجه الغزاة المستبدين قلعة حصينة قوية تتكسر على صخرتها كل المحاولات الاستعمارية الدنيئة .

3 ـ ظهور الدعوة السلفية بزعامة الشيخ ابي شعيب الدكالي (ت عام 1937 م) الذي حارب هو وتلامذته أمثال الشيخ محمد العربي العلوي (ت عام 1964) البدع والخرافات التي سادت المفاهيم وحادت بها عن القيم الاسلامية الحقة وعن التصور الاسلامي للحياة والانسان والكون .

4 ـ الاتصالات بالشرق عن طريق الكتب والمجلات التي كانت تحمل في طياتها عطاءات رجال الفكر والادب مثل جمال الدين الافغاني ومحمد عبده

ورشيد رضا والمنفلوطي وفريد وجدي والبارودي وشوقي وحافظ ابراهيم وخليل مطران وغيرهم .

5 ـ الاتصالات باوربا ، وذلك عن طريق الحماية التي فرضت على المغرب والتي اوقدت في نفوس المغاربة الروح الوطنية المنبثقة عن عقيدتهم الاسلامية التي ترفض الاستكانة والظلم والاستبداد والطغيان ، وتدعو الى الثورة على سيادة الكفر على بلاد المسلمين كما اوقدت في نفوس علمائه ـ وهم اهل الحل والعقد فيه ـ الحماس والغيرة على وطنهم الذي هو وطن الاسلام فهبوا للوقوف في وجه الزحف الاستعماري الصليبي ، وغيروا مفاهيم في البحث والنظر وتكيفوا ـ في اطار عقيدتهم ـ مع ملابسات الظروف ، وحاولوا تطوير الاساليب في التدريس والكتابة ومن بين اولائك على سبيل المثل محمد الحجوي الذي اصدر كتابه (الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي) ومحمد السايح الذي اصدر اول كتاب للمنتخبات (1) الادبية للمدارس مترجما فيه لادباء مغاربة واندلسيين ، ومحمد القصبي الذي اخرج اول كتاب مدرسي في تعليم الكتابة والقراءة بالطرق التربوية الحديثة ، وغير هؤلاء ممن اضطلعوا باعمال علمية وادبية عادت على هذا العهد بالخير العميم ؛ فايقظت الهمم للاخذ بزمام الحضارة وفتحت العيون على ما يجري في المحيط المغربي من تفاعلات اجتماعية وتمخضات فكرية التي كان لها الدور الفعال في تهييء الجواء المناسبة للجيل الصاعد حينذاك ليخوض هو الآخر الحياة الفكرية والسياسية من اجل تحرير البلاد من سيطرة الاجنبي .

وقد عرف شعرنا المغربي انطلاقا من هذه المرحلة وقبل مرحلة الاستقلال مدرستين اثنتين :

ا ـ المدرسة الاتباعية (الكلاسيكية) التي ترسمت النمط الشعري القديم شكلا ومضمونا وقد مثلها شعراء نجتزيء بذكر الشاعر الوزير محمد بن ادريس (ت عام 1264 هـ) الذي سجل في شعره فيما سجل احتلال الجزائر في قوله من قصيدة له :

يا اهل مغربنا حق النفير لكم
الى الجهاد فما في الحق من غلط

والشاعر الوزير محمد اكنسوس

(ت عام 1294 هـ) الذي عالج فيما عالج فن التشبيب فقال في قصيدة له :

اذا عن تذكار الاحبة اجيانـي
وان كنت اقضي منه في بعض احيان

والكاتب ادريس بن محمد العمراوي

(ت عام 1296 هـ) ومن الغزل عنده قوله :

علامة اضمار المحبة لا تخفى
ونار الهوى المحبوب في القلب لا تطفى(2)

والشاعر ادريس السناني (ت عام 1319 هـ) ومن الوصف عنده قوله :

وروض يروق الناظرين بهيج
سيان فيه الزهر والزليج (3)

والشاعر محمد السليماني (ت عام 1344 هـ) ومن شعره في الربيع :

بزغ الصباح فقم بنا
نقضي اوقات السرور

وبدت دواعي الانس في الارج
ساء باهرة السفور (4)

والشاعر احمد المامون البلغيثي (ت 1929 م) من شعره قوله في التشوف الى تونس :

شوقي الى تونس شوق قديم
قد طالما طارحت فيه النديم

---

(1) عبد الله كنون : احاديث من الادب المغربي الحديث ، ص 37 ـ معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة 1964 .
(2) عبد الله كنون : احاديث عن الادب المغربي الحديث ، ص 29 .
(3) المصدر نفسه الصفحة نفسها .
(4) انظر محمد بن العباس القباج : الادب العربي في المغرب الاقصى ، ج 1 ص 41 ـ 42 ـ ط. 1 عام 1347 هـ ـ 1929 م .

وطول شوقي وامتحاني بـــه
لم يثنني عن نهجها المستقيم (5)

والشاعر محمد غريط (ت عام 1364 هـ) من شعره قوله عن ايام الصبا :

سقا عهد الصبا صوب العهـــاد
فما زال ادكاره فى فـــؤادي

وان كنت اصبت بـه رســادا
وراويت فى علـم زنـــادي

والشاعر عبد الرحمن بن زيدان (ت 1946 م) من شعره فى المولد النبوي على صاحبـــه افضـــل الصـــلاة والســـلام :

نزه الطرف فى رياض المعانـــي
وتنعم بنور تلـك المغانـــــي

وادر لاستماع صـب معنـــــى
ذكر من فيهم جميع المعاني (7)

ويسوغ القول بأن العصور المغربية القديمـــة كانت اكثر خصوبة فى خلبة الشعر من هذه الفتـــرة التي نتحدث عنها ، وكانت ايضا تشكل الطاقة الفنية للشاعر المغربي ، وآية ذلك انك لا تكاد تجد فى هذه المرحلة امثال عبد العزيز الفشتالـــي (ت 1032) وابي علي اليوسي (ت 1102 هـ) ومحمد بن زاكور (ت 1120 هـ) ومحمد بن الطيب العلمي (ت 1134هـ) من الذين استطاعوا ان يتبوأوا المكانة الممتازة ويحققوا عصرهم بروائع الشعر .

وايا ما كانت الحال فالمدرسة الاتباعية ظلـــت تدور في فلك المضامين المعروفة فى الشعر العربي من مدح ورثاء وهجاء واخوانيات ومـــاجلات ووصف الا اننا قد نعثر احيانا على مضامين تعتبر جديدة عند بعض الشعراء الذين تأثـــروا بحركـــه انبعثـــة . كالنشيد المدرسي الطويل الذي نظمه محمد غريـــط والذي يقـــول فيـــه :

يا بني العصر أجيبـــوا داعي النصـــح المنيـــر
واستجدوا ذكر قطـــر كان ذا صيـت شهيـــر
كـــان للقطـــر جمـــال وابتهـــاج وكمـــــال
وازدهـــاء واحتفـــال لم يضق فيـــه مجـــال
لا يأهل العلـــم ســـال وبهـــم فخـــره طـــال

وكقصيدة محمد السليماني (حماة الدين) التي يمكن لنا أن نعدها من الاغراض الجديدة ، لانها صيحة تدعو الى الالتزام بالقيم الاسلامية وتدعو الشعر الى ان يخوض المعركة ، ويدع الحديـــث عن مراشفـــة الرضاب والثنايا العذاب ، فما ذلـك يمجد والامـــة فقدت صوابها ، والاوان ليس أوان الغزل يقول :

دعيني من مراشفة الرضـــاب
وعدي عن ثنايـاك العـــذاب

وعاطيني صريح النصح صرفا
فعز الديـن آذن بانسحـــاب

الى ان يقول مخاطبا حماة الدين :

حماة الدين هبوا من سبات
فمركزنا يئـول الى خـــراب

تركنا الدين خلفا لا ثيالـــي
ولم نترك لنا غير انتساب(8)

وكقصيدة له اخرى فى الدعوة الى التعلم والاخذ باسباب الحضارة يقول فيها :

ومقفل عل الجمود فـــؤاده
ومهذب بتضائل ومهـــــدد

ومؤخر رضي الخمول لغايـة
ومرفـق لمعاده بتزهـــــد

ب ـ المدرسة الاتباعية الجديدة التي سارت على غرار حركة البعث والتجديد فى المشرق ، وقد

---

(5) نفس المصدر السابق ، ج 1 ص 15 ــ 16 وانظر ترجمته عند خير الدين الزراكلي ، الاعـــلام ج 1 ص 191 ط 3 ومخلوف محمد شجرة النور الزكية ص 437 ط مصر 1349 وكحالة عمر رضا معجم المؤلفين ج 2 ص 56 ــ مكتبة المثنى وعبـــد الحفيظ الفاسي معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة ج 1 ص 133 ــ 134 مطبعة فاس عام 1350 .

(6) محمد بن العباس القباج المصدر السابق ج 1 ص 1 .

(7) القبـــاج المصدر السابق ج 1 ص 81 وما بعـــدهـــا .

(8) القباج المصدر السابق ج 1 ص 43 ــ 44 .

تميزت بالمضامين والصور القديمة ، كما تميزت في الوقت نفسه بالتجاوب مع المرحلة الوطنية والسياسة التي تمخضت عن الاحداث الكبرى التي مر بها بالمغرب ونلاحظ في هذه المدرسة انها تأثرت بمدرسة (الديوان) التي مثلها عباس محمود العقاد وعبد الرحمن شكري وعبد القادر المازني ، ومدرسة (ابولو) التي مثلها الدكتور زكي ابو شادي ، وافادت منها من حيث المضامين الوطنية والمفاهيم الجديدة عن الحرية والرؤية الرومانسية للاشياء .

ومن الشعراء الذين طبعت اعمالهم الشعرية حركة البعث والتجديد في الشرق الاستاذ الشاعر علال الفاسي رحمه الله (ت عام 1974 م) الذي يقول في قصيدة له (الى الشباب الممثل) موجها الحديث الى الشعب ومستنهضا همته وحماسه كي يأخذ مكانه في الحياة كقوة دافعة الى المكرمات :

كل صعب على الشباب يهون
هكذا همة الرجال تكـــون

قدم في الثرى وفوق الثريا
همة قدرها هناك مكيـــن (9)

الى ان يقـــول :

يا شباب البلاد احييتمونـــا
تلنا فيكم رجـــاء متيـــن

ولنا في الشباب خير ظنـون
حققت في الشباب تلك الظنون

اخبروا القوم اعلموهم بانـــا
قد حييتا واننا مستكـــون

والشاعر محمد المختار السوسي (ت 1383 هـ) الذي يبلور لنا بوضوح حالة الجهل التي كان يعيش عليها المجتمع المغربي ، في حين ان غيره من الامم قد قطع اشواطا في ميدان العلم والمعرفة وذلك في قصيدته (الهلاك ولا الجهل) يقول فيها :

حتى متى شعبي يعيده الجهل
كأن لم يكن قطبا للسيادة من قبل

كأن لم يكن يوما مديرا لتكلم المها
ليك يحمي ما يشاء ويحتل (10)

والشاعر عبد الاحد الكتاني الذي يؤكد لنا جليا تجاوب الشعر مع المرحلة السياسية والحضارية التي عرفها المغرب حينذاك ، وذلك في قصيدته (في معهد الدروس العليا بالرباط) يقول فيها :

صدق العلم للحقيقة وعـــدا
عقدته يد العدالة عقـــــدا

انما العلم آية الصدق تتلـــى
ومثال الكمال بالحق يحـــدا

ثـــم يقـــــول :

ان روح الحياة ليس لديـــا
انما العلم بالتعلم يتـــــدا

وجدير اذا المعـارف شاءت
ان يطير الجهاد جمعا ووحدا(11)

اما فئة الشعراء الذين تأثروا بمدرسة(الديوان) و (ابولو) ـ ومنها شعراء الأنفو الذكر كعلال الفاسي والمختار السوسي فرما تحدثنا عنه من قضايا الوطن والاصلاح والحرية ـ ومن بين أولئك الشاعر محمد الحلوي حين يتغنى بحب وطنه فيقول :

يا بلادي وليس اشهى الى نفـــ
ـــسي واحلى من ان انادي بلادي

انا ان قمت كنت أول مـا يجـــ
ري لساني وخير ما في اعتقادي

ثـــم يقـــول :

قد سلوت الهوى وتجوى الغواني
والليالي الملاح في شهـــــر زاد

منذ هامت بقدس حبك روحـــي
واضاءت انواره في فـــؤادي (12)

والشاعر عبد الكريم بن ثابت حين يقـــول في مـــوشح غزلـــي :

---

(9) المصـــدر نفســه ج 2 ص 8 .
(10) المصـــدر نفســه ج 2 ص 64 .
(11) القبـــاج ج 2 ص 107 ـ 108 ـ 109 .
(12) انظر ديوانه انغام واصداء ص 285 ـ البيضاء 1965 .

يا فاتك الاحداق وساحر العين
وفاتن العشاق بالحسن والطهر

ولعل عبد الكريم بن ثابت من أكثر شعراء هذه المدرسة اغراقا في الرؤى الرومانسية فلنسمعه حين يصف الطبيعة ثم ينتقل الى الحديث عن غد الوطن ومستقبله الجميل :

تلفت فارتاع بين الضلوع
فؤادي الحزين بفرط النحيب

ومن حولي القوم بعض هجوع
وبعض حبيب يناجي الحبيب

وبعد ابيات يقول :
وبعد زمان اطل الصباح

كطفل على مهده يبسم
كعذراء بين مروج المطاح

تتيه وترقص او تحلم
كثغر الورود كحد الاقاح

على حزن ضاحك يحطم
ونادى المنادي الكفاح الكفاح

وداووا به ياسكم تسلموا
فما من سلام وما من نجاح

بغير الجهاد فلا تسأموا (13)

بعد هذا العرض الموجز للمدرستين الشعريتين اللتين عرفهما شعرنا المغربي خلال هذه الفترة التي نؤرخ لها ، يطرح سؤال نفسه بالحاح هو الى اية مدرسة ينتمي شاعرنا ابن موسى ؟ الجواب هو أن شاعرنا ابن موسى ينتمي الى المدرسة الاتباعية (الكلاسيكية) ولا يمكن بحال ان نصنفه في اطار المدرسة الاتباعية الجديدة ، ذلك انه في تعامله مع الاغراض الشعرية لم يخرج عن النمط التقليدي الذي سارت عليه المدرسة الاتباعية ، في معالجاتها للمضامين المعروفة كالمدح والرثاء والغزل وغيره ، وفي طريقة تناولها الفني لهذه المضامين في الاخيلة والتصوير والقيم التعبيرية .

ومع هذا فاننا نعثر في شعره على مضمون جديد هو حديثه عن القضية الوطنية من خلال مدحه للمغفور له الملك محمد الخامس ، وبسطه الكلام عن اساليب المكر الاستعماري ، وثورة الشعب ضد دسائس العدو وذلك في قصيدته التي يفتتحها بقوله :

ابى المجد الا ان تقاد جنائبه
وتمرح في سوح المعالي نجائبه

بالرغم من ذلك فاننا لا نكاد نظفر في عمل ابن موسى الشعري بالمحتوى الوطني الذي يجسد بحق خصائص الوطنية ومميزاتها بالصورة التي نقع عليها عند من تناول هذا الموضوع بالدعوة الى الوحدة الوطنية واللغوية والاصلاح والتعليم والرجوع الى الفكرة الاسلامية الصحيحة ، ونبذ الخرافات ، والدعوة الى الجهاد ، ومقاومة المخططات الاستعمارية ، والكشف عن مكامن الادواء في الامة كالجهل والاستسلام للواقع دون العمل على تغييره ، والتكاسل عن اللحاق بالركب الحضاري كالاستاذ الشاعر علال الفاسي والشاعر محمد الحلوي وغيرهما من الذين عالجوا هذه المضامين الجديدة التي عرفها شعرنا الحديث بصورة واضحة نتيجة الظروف السياسية والاجتماعية والتفاعلات الحضارية التي اصبح المجتمع المغربي يرتبط بها ارتباطا وثيقا .

معنى هذا ان ابن موسى لم يفد من المدرسة الاتباعية الجديدة ، لذلك تبادر فنسأل لماذا لم يتأثر شاعرنا بهذه المدرسة ؟ ولماذا لم يكسر الجدار الذي احاط به شعره ، ويطل به على آفاق جديدة تجعله يتفاعل والظروف المجتمعية فتشده الى قضايا الحياة ومشكلاتها واحداثها الكبرى وازماتها المتعددة ، ويعبر عن ذلك من خلال موقفه الشعوري ، ومن خلال التجربة والمعاناة التي تحفزه الى ان يحدد تصوراته ازاء كل قطاع من القطاعات التي تحتويها الخريطة الكبرى للحياة .

ليس هناك عندي من تعليل او تفسير لهذا الحصار الذي ضربه حول شعره الا انه كان ينظر الى التراث الشعري نظرة الاكبار والاجلال ، وانه كان منجذبا اليه انجذابا قويا ، ومعتزا بتقاليده وطرائقه اعتزازا حال بينه وبين ان يستقي من غيره ، وان يستشرف معالم صوره وموضوعاته ، لذلك لم يشعر

(13) انظر ديوانه الحرية ص 12 ــ الرباط 1968.

الشاعر ـ نتيجة لهذا التقديس للتراث الشعري ـ بحاجة الى تطعيم ادبه ورفده بالجديد .

ويبدو لي ان شاعرنا ، بما يملكه من اداة فنية طيعة وملكة شعرية خصبة وثراء في اللغة ، لو حاول ان يتاسى حركة التجديد ويتمثلها ـ كما تمثل القديم ـ لاتى بما يبده الخواطر ، واسوق هنا مثالين على ذلك ـ على سبيل التدليل ـ الاول هو ان شاعرنا سمع من اذاعة طنجة في برنامج رياضة الاضابع مساء يوم الاثنين الاربعاء ثالث ربيع الانور عام 1373 هـ موافق 11 نونبر سنة 1953 م قطعة نثرية لجبران خليل جبران فاعجب بها فحولها الى قصيدة (14) ومطلعها:

انا في مسرح الحياة دليل الـــ
ـــحب في غزوه وخمرة نفس

وبالمقارنة بين النصين النثري والشعري نجد ابن موسى قد تفوق على جبران بما ابرز في قصيدته من انسياب في التعبير ، وذوق في اختيار الملفظة الشعرية الموحية ، وما كثف فيها من ظلال تعبيرية تتناسق مع موسيقا البحر ورويه السين بعيدا عن الفحولة التي عرفناه بها .

ومثال آخر هو موشح (15) قاله بمناسبة دخول الخليفة السلطاني حينذاك الى طنجة مترجما عن قصيدة الشاعر الاسباني (رافاييل دوبوس جيورجيتة) يقول في أولـــه :

تحت شمس الربيع ذات الضياء
سرت في عرشك الرفيع اللـواء

فاستعارته من بديع السنـــاء
ما جلت للمدينة الحسنـــــاء

وبالمقارنة ايضا بين النصين العربي والاسباني نجد ابن موسى تفوق على زميله الشاعر الاسباني بما اشاع في الموشح من روح شاعرية شفيفة ورفرافة وعذوبة لفظية مترقرقة تختلف عن النسق القديم الذي يعتمده في عموم اعماله الشعرية .

وفي هذين المثالين ما يؤكد ان ابن موسى يملك طاقة فنية فذة لو انها استغلت امكاناتها الثرارة في استيحاء الجواء الجديدة لقدمت لنا عملا شعريا مكتفا بالرؤى الحية الفنية المعبرة بحرارة عن مدلولات الحياة في امتدادها عبر الاحداث المتنوعة وتواصلها عبر المواقف الكثيرة .

ـ يتبع ـ

تطوان : محمد المنتصر الريسوني

---

(14) القصيدة ضمن ديوانه الذي جمعته وحققته .
(15) الموشح ضمن ديوانه كذلك ، والقصيدة الاسبانية تحت يدي منشورة مع النص العربي في كتاب طبعتـــه عـــام 1361 هـ ـ 1942 م دار الطبع المغربية في تطوان بمناسبة عيد الكتاب .

الاسلام والنصر

بين التدين والقيادة

للواء الركن محمد رشيد خطاب

— 1 —

جاءني أمس كبير مذيعي محطة اذاعة عربية كبرى وقال : « ان كاتبا كبيرا قال عنك بأن على ما تكتبه مسحة دينية » ! !

ومن الصدف أن يزورني قائد من قادة الفدائيين في ذلك اليوم فقال لي بالحرف الواحد : « لماذا تحرص على الناحية الدينية في كل ما تكتب » ؟

وبالطبع كان ما نقله المذيع الكبير الي ، وما قاله القائد الفدائي الكبير ، هو في معرض النقد فيهما مؤمنان بأن القائد لا ينبغي أن يكون متدينا ! !

وكنت احرص على صداقة اخ فلسطيني اعظم الحرص ، لانه من فلسطين التي خالط حبها قلبي ودمي ، ولانه مفكر المعي وعالم جليل ، ولكنني اضطررت الى نبذه الى الابد ، لانه زعم بأن التدين مظهر من مظاهر التخلف ، وان العرب لن يفلحوا ما لم يتخلوا عن الدين .

هذا الصديق يعمل في بلد عربي يتمسك معظم الشعب فيه بالدين الحنيف ، فزعم أن سر تخلف ذلك البلد العربي يكمن في تدين شعبه ، ولكن الذي يبشر بالخير — كما عبر ذلك الذي كان صديقي — هو أن طلاب الجامعة فيه يحتسون الخمرة ، لذلك فالبلد مقبل على التحرر والانعتاق من براثن الجهل والتقاليد البالية ! !

واجتاحني الغضب الشديد ، وزجرته زجرا عنيفا ، وقررت أن اقاطعه لانحرافه عن الطريق السوي .

وتساءل امثال هذا الرجل : « هل يحارب الدين العلم ؟ هل يدعو الاسلام الى الجهل ؟ ماذا تعيب على العقيدة الاسلامية منهجا للحياة وسبيلا الى الحق والفضيلة والخير » ؟

لماذا اذن نتنكر للدين ؟ ولمصلحة من هذا التنكر ؟

ان الايدي الخفية التي لا تريد الخير للعرب والمسلمين ، هي التي تعمل على اشاعة هذه المفاهيم الخاطئة ، حتى لا تقوم قائمة للعرب والمسلمين .

اني اتحدى كل من يستطيع أن يذكر قائدا عربيا واحدا منتصرا لم يكن يتحلى بالتدين العميق ولم يكن يؤمن بالمثل العليا النابعة من صميم تعاليم الدين الحنيف .

لن يستطيع احد أن يذكر قائدا عربيا واحدا كان له في ميدان النصر تاريخ ، الا وهو متدين الى ابعد الحدود .

سيد القادات وقائد السادات الرسول القائد عليه افضل الصلاة والسلام هو نبي الاسلام . ولا ازيد . . .

وقادة الفتح الاسلامي العظيم كلهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن التابعين عليهم رضوان الله .

لقد احصيت عدد القادة الفاتحين ، فكانوا (256) قائدا عربيا مسلما ، منهم (216) من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ، و (40) من التابعين عليهم رضوان الله .

وتوقف الفتح الاسلامي العظيم عام اثنين وتسعين الهجرية ، وكانت خطط المسلمين العسكرية قبل هذا التاريخ هجومية ، فاصبحت بعده دفاعية : تصد هجوم المعتدين ، وتدافع عن دار الاسلام .

ومع ذلك ، فكل القادة الذين نجحوا في صد المعتدين ، كانوا متدينين الى ابعد حدود التدين ، وكانوا امثلة شخصية لرجالهم في التدين والعمل الصالح ، يكفي ان اذكر منهم نور الدين الشهيد وصلاح الدين الايوبي .

— 2 —

سجل لنا التاريخ العربي الاسلامي معارك دفاعية كثيرة خاضها العرب المسلمون دفاعا عن عقيدتهم وعرضهم وارضهم .

ولعل اهم هذه المعارك معركتان : معركة (حطين) التي قادها البطل المسلم صلاح الدين الايوبي ، ومعركة (عين جالوت) التي قادها قطز صاحب مصر .

ومن الصدف ان تكون هاتان المعركتان في الارض المقدسة فلسطين (1) : (حطين) قرية تقع غرب بحيرة (طبرية) على بعد اثني عشر كيلومترا من مدينة (طبرية) على طريق (طبرية — الناصرة) ، و (عين جالوت) بليدة صغيرة تبعد خمسة اميال عن مدينة (العفولا) ، تقع بين (العفولا) ومدينة (بيسان) .

ويمكن اعتبار هاتين المعركتين من المعارك الحاسمة ، لان معركة (حطين) ادت الى استعادة القدس من الصليبيين ، ولان معركة (عين جالوت) ادت الى انقاذ الشرق الاوسط ومصر من الغزو التتاري الكاسح .

ولقد درست هاتين المعركتين دراسة مستفيضة ، فوجدت ان الفضل الاول لانتصار المسلمين على الصليبيين في معركة (حطين) يعود الى قيادة صلاح الدين الايوبي ، ووجدت ان الفضل الاول لانتصار المسلمين على التتار في معركة (عين جالوت) يعود الى قطز والى الاميين الجليلين العز بن عبد السلام وابي الحسن الشاذلي عليهما رضوان الله .

وبمعنى آخر ، ان الفضل الاول في احراز النصر في المعركة الاولى كان للقائد ، والفضل الاول في احراز النصر في المعركة الثانية كان للقائد والعلماء والجنود .

وفي سنة (573) الهجرية اشتبك صلاح الدين بالصليبيين على مقربة من مدينة (الرملة) الفلسطينية ، فهزم صلاح الدين ، وقتل واسر كثير من المسلمين .

وارتد صلاح الدين الى القاهرة ، وقد حزت في نفسه الهزيمة ، واخذ يحشد الجيش ويعد العدة لحملة جديدة .

وغادر القاهرة على راس جيشه الى دمشق حيث امضى هناك زهاء ثلاثة اعوام ، وهو مكب على الاعداد للحرب ماديا ومعنويا بحيث لم تذهب منه لحظة واحدة سدى . وفي خلال هذه الفترة اشتبك مع الصليبيين في عدة معارك استطلاعية لاختبار قوتهم اولا ، وفي معارك استنزافية لانهاك قوة العدو ثانيا ، وفي معارك تدريبية لتدريب جيشه على القتال عمليا ثالثا واخيرا ، فاستطاع في هذه المعارك احراز انتصارات محلية في (طبرية) و (صور) و (بيروت) ، وهزم الصليبيين في (حمص) هزيمة شديدة ، واضطر بلدوين ملك بيت المقدس الى طلب الهدنة ، فعقدت بين الطرفين لمدة عامين .

وعاد صلاح الدين الى القاهرة في منتصف عام (576) الهجرية ، فامضى فيها عاما ونصف عام : برسم الخطط ، ويعد العدة ، ويدرب رجاله ، ويكمل نواقصهم على هدي الدروس المستفادة من معاركه السابقة ، حتى اطمأن الى كفاية قواته القتالية ، ووثق بقابليتهم العسكرية .

وفي الخامس من محرم الحرام سنة (578) الهجرية ، خرج صلاح الدين من القاهرة ، قاصدا العزم على خوض معركة حاسمة يستعيد بها القدس الشريف .

---

(1) ما أجملناه هنا ، فصلناه في كتابنا : بين العقيدة والقيادة ، دار الفكر ، بيروت ، سنة 1972 .

وبقي في دمشق اربعة اعوام ، يحشد المجاهدين من كل مكان ، ويستنفر القادرين على حمل السلاح ، ويعد الخطط العسكرية للقتال .

وفي أواخر المحرم من سنة (583) الهجرية ، خرج في قواته من دمشق ، وسار منها الى (بصرى) ليحمي منها طريق عودة الحجاج ، اذ بلغه أن (رينو دي شاتيون) أمير (الكرك) ينوي الفتك بهم . ولما انتهى عودة الحجاج بسلام سار الى (الكرك) و (الشوبك) وعاث في انحائهما .

ووافته جيوش مصر بقيادة أخيه العادل ، وكانت قوات الشام والجزيرة تتلاحق في ذلك الاثناء ، وتجتمع في دمشق تحت قيادة الملك الافضل ولد صلاح الدين . وسارت من هذا الجيش بأمر صلاح الدين حملة قوية الى ثغر (عكا) لافتتاحه وتخريبه ، فاشتبكت هناك مع الفرنج وفرسان الداوية (فرسان المعبد) والاسبتارية في معركة طاحنة ، هزم على اثرها الفرنج وقتل مقدم الداوية وجماعة كبيرة من الفرسان ، واستولى المسلمون على كثير من الغنائم .

وسار صلاح الدين في قواته جنوبا نحو مدينة (طبرية) فاستولى عليها ، ولكن حاميتها اعتصمت بالقلعة . وكان السلطان يهدف الى استدراج الفرنج لمقاتلته في العراء ، ولكنهم لم يفعلوا ، فترك مدينة (طبرية) وعاد الى معسكره على مقربة منها .

وكان الفرنج قد اجتمعوا في سهل قريب من (طبرية) ، وكان هذا السهل مقفرا فيه عيون ماء قليلة خربها الفرنج ليحرموا جيش صلاح الدين من الارتواء منها .

ولم يكترث صلاح الدين بمشكلة الماء ، لانه كان عازما على مقاتلة الصليبيين واثقا بنصر الله ، فسار في اليوم الرابع والعشرين من شهر ربيع الاول سنة (583) الهجرية نحو معسكر الفرنج .

ولكن الفرنج حرصوا على منع صلاح الدين من السير نحو مدينة (طبرية) وفتح قلعتها ، فتحركوا نحو مدينة (طبرية) يتصدون به الماء ، فوقف الجيش الاسلامي في سبيلهم ، واشتبك الطرفان في عدة معارك طاحنة ، قاتل الصليبيون فيها قتالا شديدا ، الا ان كفة المسلمين رجحت عليهم .

واستطاع صلاح الدين محاصرة الفرنج ، فارتدوا نحو تل بقرية (حطين) القريبة يعتصمون به . ولكن صلاح الدين هاجمهم هجوما صاعقا ، فاشتد القتال ، ودافع الفرنج دفاعا مستميتا ، وردوا المسلمين مرات ، ولكنهم هزموا في النهاية هزيمة شنيعة ، وأسر المسلمون سائر أمراء الفرنج .

هذه المعركة الحاسمة ادت الى استعادة فتح مدينة (طبرية) و (عكا) و (الناصرة) و (قيسارية) و (حيفا) و (صفورية) و (صيدا) و (بيروت) . وتم هذا الزحف المظفر في اقل من شهر ! !

ولكن هدف صلاح الدين الكبير كان استعادة بيت المقدس ، لذلك سار الى (عسقلان) ، لكي يتم عزل بيت المقدس عن البحر . وطوق صلاح الدين هذه المدينة من البر ، وضربها بالمجانيق ضربا شديدا ، حتى استسلمت بالامان في آخر جمادى الثانية سنة (583) الهجرية ، ثم استعاد معظم الحصون والمدن المجاورة .

ويمم صلاح الدين شطر المسجد الاقصى ، فاشرف على بيت المقدس في منتصف شهر رجب من سنة (583) الهجرية ، وكانت تموج بجموع زاخرة من الفرنج الذين قصدوها من سائر البلاد للدفاع عنها .

وحاصر صلاح الدين المدينة المقدسة ، وشدد عليها الحصار ، وتمكن المسلمون من نقب السور . فلما علم الفرنج بخطورة الموقف ، اوفدوا الى صلاح الدين وفدا من رؤسائهم يطلبون الامان .

ودخل المسلمون بيت المقدس في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب (583) الهجرية ، فرفعوا اعلامهم فوق الاسوار وفوق المسجد الاقصى ، وابدى صلاح الدين مع الفرنج منتهى التسامح كما تشهد مصادرهم التاريخية .

كان تعداد جيش المسلمين اثني عشر الف مقاتل في معركة (حطين) ، وكان تعداد جيش الفرنج خمسين الف مقاتل .

وكان تعداد جيش المسلمين في معركة (بيت المقدس) اقل من اثني عشر الفا ، وكان المقاتلون من الفرنج في القدس ستين الفا .

وانتصرت الفئة القليلة على الفئة الكبيرة باذن الله .

كانت اسباب النصر كثيرة على رأسها قيادة صلاح الدين ، لانه وهب حياته للجهاد في سبيل الله ، وكانت العقيدة الاسلامية تملأ نفسه ومشاعره يضطرم بها

ولا يؤمن بغيرها ، وكان وافر الحلم جم التواضع متقشفا فى ملبسه وطعامه ، ينفق كل ما تصل اليه يده فى أغراض الجهاد ومصالح المسلمين ، لا يهتم بشىء من أعراض هذه الدنيا من مال أو قصور أو غيرها ، حتى أنه لما توفى لم يخلف مالا ولا عقارا ، ولم يجدوا فى خزائنه شيئا من الذهب أو الفضة سوى دينار واحد وسبعة وأربعين درهما .

وكان صلاح الدين الايوبى يحمل صناديق مقفلة فى أيام جهاده ، يحرص عليها أعظم الحرص ، ويرعاها أعظم الرعاية .

وظن الذين من حوله من المقربين ، بان هذه الصناديق تخفى فى بطونها جواهر ويواقيت ومالا ، ولكن بعد وفاته فتحت الصناديق ، فوجد الذين فتحوها انها تحتوي على وصية صلاح الدين وكفنه الذي اشتراه من كده ، وكمية من التراب .

وفتحت الوصية فكان مما جاء فيها : « اكفنى بهذا الكفن الذي تعطر بماء زمزم وزار الكعبة المشرفة وقبر النبى صلى الله عليه وسلم » .

« وهذا التراب هو من مخلفات أيام الجهاد ، تصنع منه طابوق يوضع تحت رأسى فى قبري » .

وصنع من هذا التراب اثنى عشرة طابوقة كبيرة تستقر اليوم تحت رأس صلاح الدين عليه رضوان الله فى رمسه ويلقى الله بها يوم الدين .

لقد كان صلاح الدين بعد عودته من كل معركة يخوضها جهادا فى سبيل الله ، يحرص على جمع التراب المتكاثف فوق وجهه وثيابه ويضعه فى صندوق من صناديقه السرية ، وقد استطاع جمع هذه الكمية الكبيرة من التراب التى صارت اثنى عشرة طابوقة (الطوب) ، فكم عدد المعارك التى خاضها جهادا لاعلاء كلمة الله ؟ ! !

مات صلاح الدين فى السابع والعشرين من شهر صفر سنة (589) الهجرية ، أي بعد سنتين من معركة (حطين) وفتح بيت المقدس ، وكان عمره يوم مات ستة وخمسين عاما ، فقال عن موته شهاب الدين المقدسى صاحب كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين : « كان يوما لم يصب الاسلام والمسلمين بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه الا الله تعالى » .

هل كان ينتصر صلاح الدين ، لو صرف كل همه الى فرجه وجيبه ومسكنه وماكله ؟

هيهـــــات . . .

ان الفرق الكبير بين الانسان والحيوان ، هو أن الانسان له مثل عليا يؤمن بها ويضحى من اجلها ، وهذه المثل العليا هى العقيدة .

والانسان يؤثر مثله العليا على متاع الدنيا ، لان تلك المثل هى الباقية ولانها نابعة من الانسانيـــة الحقـــة .

اما الحيوان فهو الذي يؤثر فرجه وعلفـــه واسطبله وهى مناعه فى الدنيا الفانية التى يعيش من اجلها الحيوان وبها اصبح حيوانا .

لكم من البشر انحدروا الى الارض ، فاصبحوا حيوانات بل هم اضل سبيـلا ؟ !

فما عبرة معركة (عين جالوت) التى تفيد العرب والمسلمين فى حاضرهم ومستقبلهم ؟

— 3 —

ما هى عبرة معركة (عين جالوت) لحاضر العرب والمسلمين ومستقبلهـم ؟

فى سنة (654) الهجرية احتل التتار سائر بلاد الروم بالسيف ، واحتلوا بغداد عاصمة العباسيين وقضوا على الدولة العباسية فى المشرق سنة (656) الهجرية ، واستولوا عنوة على (حران) و (الرها) و (ديار بكر) سنة (657) الهجرية ، ونزلوا مدينة (حلب) سنة (658) الهجرية واستولوا عليها ، ووصلوا الى دمشق فى نفس السنة واستولوا عليها ثم تعدوها الى (نابلس) و (الكرك) و (بيـــت المقـــدس)

وقد كان من اهداف التتار الاستيلاء على فلسطين واجتيازها الى مصر ، وكان جيشهم يتقدم كالاعصار الشديد : لا يبقى ولا يذر مدمرا كل قوة تناوئه ، ناشرا الرعب والخراب والدمـار .

وكان على مصر حينذاك قطز ، وكان يخشى على وطنه أن يجتاحه التتار اليوم أو غدا ، وكان التتار فى مسيرتهم الظافرة يتقدمون من نصر الى نصر ، وقد أصبحت مصر قريبة منهم ، وكانوا يطمعـون فى أن يجعلوها ضمن ممتلكاتهم التى امتدت من اقصـــى الشرق الى البحر الابيض المتوسـط .

وجمع قطز رجاله المفكرين ، وسألهم الراي فيما يصنع ، فأشاروا عليه بحرب التتار خارج الارض المصرية ، حتى يبعد عن مصر الخراب والدمار .

واقتنع قطز بهذا الراي ، وقدر انه اذا انتصر على التتار فقد كفى مصر مغبة الدمار ، واذا اندحر أمامهم كانت له أرض الكنانة ملجأ وموئلا .

واستنفر جيش مصر ، وحث الناس على الجهاد ، فلبى نداءه كثير من المجاهدين ، كان على رأسهم العز بن عبد السلام وابو الحسن الشاذلى رضى الله عنهما اللذان شحنا جيش قطز بطاقات معنوية لا تنضب .

وانضم المجاهدون الى الجيش النظامى المصري، وكان هذا الجيش حينذاك قليلا فى عدده ، ضعيفا فى عدده ، واجبه الاول حماية الامن الداخلى وجباية أموال الدولة ، ولم يكن من واجبه الحرب خارج البلاد .

وبدأ الشيخان الجليلان العز بن عبد السلام وأبو الحسن الشاذلى يأمران الجيش المصري قادة وجنودا بالمعروف وينهيان عن المنكر ، ويحثان على التوبة النصوح ، ويزيلان ما علق بالنفوس من أدران ، ويقومان ما أعوج ويصلحان ما فسد ، ويبرزان للمقاتلين فضل الجهاد ، ويظهران اجر الشهادة فى سبيل الله ، ويعلنان درجة الشهداء عند الله ، ويرنمان المعنويات ، حتى شحنا جيش مصر بشحنات معنوية بغير حدود ، بحيث صمم رجاله على ان ينالوا احدى الحسنيين : الشهادة او النصر - - - ولا يغلب جيش يتحلى بمثل هذه المعنويات العالية .

— 4 —

وصل الجيش المصري (عين جالوت) وهى بليدة صغيرة تبعد خمسة أميال عن مدينة (العفولا) فى فلسطين ، وتقع بين (العفولا) ومدينة (بيسان) .

وتحفز جيش التتار للقضاء على الجيش المصري ، فنشبت المعركة بين الطرفين سنة (658) الهجرية .

ومن دراسة قوات الجانبين يظهر بأن لتفوق الساحق كان الى جانب التتار على الجيش المصري فى كل النواحى العسكرية المادية .

ولكن التفوق المعنوي كان الى جانب المصريين على التتار ، اذ كان المصريون يملكون سلاحا سريا بالغ الخطورة لم يحسب له التتار اي حساب ، هذا السلاح هو الايمان العميق بالله والتصميم على النصر او الاستشهاد .

ان كل الحسابات العسكرية تجعل النصر الى جانب التتار بدون أدنى شك .

اولا : كان قادة التتار لهم تجربة طويلة فى الحروب ، ولم تكن لقطز اية تجربة عملية فى الحروب الكبيرة أو الصغيرة .

ثانيا : كانت معنويات قادة التتار عالية ، لانهم تقدموا من نصر الى نصر ، ولم تنكس لهم راية منذ بضع سنين خلت .

وكانت معنويات قطز منهارة ، لانه لم يحارب أبدا على نطاق واسع ولم ينتصر فى حرب .

ثالثا : كانت معنويات التتار متفوقة على معنويات المصريين ، وكان الشائع بأن جيش التتار لا يقهر أبدا .

وقد انتصر هذا الجيش بالرعب فى كثير من المعارك التى خاضها ، وكانت سمعته العسكرية قد ملأت الدنيا .

رابعا : كانت كفاية جيش التتار العسكرية متفوقة على الجيش المصري ، لان هذا الجيش خاض معارك لا تعد ولا تحصى ، لذلك كانت تجربته العملية على فنون القتال باهرة الى أبعد الحدود .

بينما لم تكن للجيش المصري كفاية قتالية نتيجة لتجاربه العملية فى الحرب ، اذ لم يسبق له خوض معركة حربية كبيرة ولم يحرز نصرا فى القتال .

خامسا : كان التتار متفوقين على المصريين فى العدد والعدد ، خاصة بالفرسان الماهرين فى حروب الفروسية ، وكانت شهرة فرسان التتار قد ملأت الآفاق اقداما وشجاعة وتمرسا على فنون القتال .

سادسا : كان التتار متفوقين على المصريين فى تسليحهم ، وكان لاسلحتهم معين لا ينضب نتيجة لما كانوا يملكونه من سلاح وما غنموه من أعدائهم فى حروبهم الطويلة .

سابعا : كان جيش التتار متفوقا على الجيش المصري فى قضاياه الادارية ، اذ كان يستند على البلدان الغنية التى احتلها فى أرض الشام ، بينما كانت قواعد المصريين الادارية بعيدة عنهم ، لانهم

كانوا يعتمدون على مصر وحدها ، والمسافة بين مصر و (عين جالوت) طويلة ، خاصة فى تلك الايام التى كانت القضايا الادارية تنقل على الدواب .

هذا التفوق الساحق الذي كان الى جانب التتار ، له نتيجة متوقعة واحدة ؛ هي احراز النصر على الجيش المصري أسوة بانتصاراتهم الباهرة على الروم والعرب ومختلف الامم والشعوب

ولكن الجيش المصري انتصر على جيش التتار كما هو معروف ، فكيف حدث ذلك ؟

— 5 —

شن التتار على المصريين هجوما كاسحا ، وتقدم الهجوم فرسان التتار المتمرسون على حرب الصاعقة ، فتزعزعت صفوف الجيش المصري ، وتكبدت خسائر فادحة بالارواح ، ثم تراجعت الى الخلف بغير نظام .

وأوشك التتار ان يطوقوا المصريين ، وأوشكوا ان يكتسحوا صفوفهم ، فلما راى قطز ما حاق بالجيش المصري ، صرخ : « وا اسلاماه . . . وا اسلاماه » .

وكان العز بن عبد السلام وابو الحسن الشاذلي قبل المعركة قد عملا عملها البناء فى ايقاظ الشعور الدينى فى الجيش المصري ، فكانت لتلك الصرخة المؤمنة القوية الامينة اثرها العميق فى استثارة القيادة والجنود ، وكان النصر المؤزر للمصريين خلاصا لمبادىء الحرب ولما كان يتوقعه المصريون انفسهم .

وبعد هذه المعركة لم يفلح التتار أبدا ، اذ تكبد التتار فيها خسائر فادحة بالارواح والاموال ، فولوا مدبرين ، وطمع فيهم الناس يتخطفونهم .

ودخل المظفر دمشق ، واستعادها من التتار .

وبعث لطاردة التتار أحد قادته المدعو بيبرس فطبر هذا القائد أرض الشام من التتار حتى اسعاد مدينة حلب الشهباء .

وهكذا استطاع جيش مصر بالايمان الذي بعثه من جديد العالمان الجليلان والشيخان الكبيران العز بن عبد السلام وابو الحسن الشاذلي عليهما رضوان الله ان يحرز انتصارات باهرة على التتار ، وكان الناس قبل ذلك يظنون بان هذا الجيش لا يهزم ابدا ! !

ولقد كان تعداد جيوش العباسيين فى بغداد اكثر اضعافا مضاعفة من تعداد جيش قطز .

وكانت بغداد محصنة تحصينا قويا ييسر الدفاع عنها واثبتت فيها مدة طويلة كفاية لصد المستدين التتار عن اسوارها الشاهقة .

ولكن كان جيش العباسيين يومئذ فى شغل شاغل عن الحرب وعن متطلبات الحرب .

كان قادته قد شغلوا انفسهم بجمع المال والتطاول بالبنيان وحب الشهوات ، وأعرضوا عن واجباتهم العسكرية تدريبا وتسليحا وتجهيزا وضبطا ونظاما .

وكان قادته قد دب بينهم الفساد ، وشاعت بينهم الرشوة ، وهانت عليهم كرامة الناس واعراضهم : لا يعفون عن الحرام ، ولا يخافون الله .

وكان قد نشب بينهم الخلاف على المناصب والاموال واللهو ، فلجأ كل واحد منهم الى مجموعة من الجيش يركن اليها ويقاسمها المغانم والاسلاب .

وكان اولئك القادة لا يتسلمون مناصبهم لكفايتهم العسكرية ومزاياهم الانسانية الرفيعة ، ولتجربتهم الطويلة فى معاناة الحروب ، بل كانوا يتسلمونها لاحسابهم وانسابهم ، او لانهم من (شلة) اصحاب السلطة ، او ممن يخشاهم اصحاب السلطة ، او ممن يقدمون المال الحرام لاصحاب السلطة ثمنا لمناصبهم العسكرية .

اما افراد الجيش ، فكانت كل مجموعة منهم تنتسب لقائد من القادة : تحتمي به ، وتدافع عنه ، وتنال اجرها على اتعابها .

اصبح قادة الجيش رؤساء عصابات مسلحة ، واصبح افراد الجيش عصابات مسلحة ، تعمل لمصلحتها الشخصية بعيدة كل البعد عن مصلحة الدولة العليا .

بالطبع امثال هؤلاء القادة لا يستطيعون اعداد جيوشهم للحرب .

لماذا وقعت الحرب ، لا يستطيعون قيادة رجالهم كما ينبغي .

---

1) انظر تفاصيل المعركة فى كتابنا : بين العقيدة والقيادة .

لذلك كان وجود امثالهم على رأس الجيش العباسي ، من مصلحة اعداء هذا الجيش ، ما في ذلك ادنى شك .

ولهذا كان عدد امثال ذلك الجيش وعدده مهما بلغت ضخامتها غثاء كغثاء السيل .

وجاء جيش التتار ، فواجه في بغداد العباسية جيشا متفسخا : قادته يفكرون بما خلفوه وراءهم من متاع ولا يفكرون في الدفاع عن بلدهم ، وجنوده غير مدربين وغير مستعدين للحرب ، والجنود والقادة ملوثون بالكبائر من الذنوب كان أحدهم جبل اسود كل ذراته وصخوره ذنوب : نسوا الله فانساهم انفسهم .

وبادر التتار بالاتصال المباشر وغير المباشر بالغزاة ، ليضمنوا حماية ارواحهم وملاكهم .

وبادر الجنود الى الهرب ، لانهم لا مصلحة لهم في الدفاع عن مدينتهم العظيمة ومدنيتهم العريقة .

وهكذا أصبحت بغداد وقد غاب عنها حماتها ، فاستسلمت للمتوحشين الغزاة ، حيث قضوا على حضارتها العريقة التي أثارت الدروب للعالم كله قرونا طويلة .

استسلمت بغداد ، لان حماتها تنكروا لعقيدتهم ، تنصروا كل شيء .

ولاقى المتوحشون الغزاة جزاءهم العادل في معركة (عين جالوت) ، لان الجيش الذي قاتلهم هناك ، كان قد خرج من بلده الامين مهاجرا الى الله ورسوله ، ليست له غاية غير اعلاء كلمة الله والجهاد بالاموال والانفس في سبيل الله .

— 6 —

الدرس الذي يفيد العرب والمسلمين هو : اهمية العقيدة في احراز النصر .

ان الطائرات والدبابات والاسلحة المختلفة والعتاد والذخيرة ، كل من الحديد صنعها الانسان ويستعملها الانسان في الحروب دفاعا عن النفس او لتحقيق اطماع توسعية .

ولا يزال الانسان هو المسيطر على كل سلاح وعتاد ، وبدونه لا قيمة لكل سلاح ولكل عتاد .

ولكن الانسان بدون عقيدة تجمع شمله وترص صفوفه وتوحد كلمته وتشيع فيه الانسجام الفكري الذي بدونه لا يكون تعاون ولا اتحاد ، لا قيمة له من الناحية العسكرية .

وهذه العقيدة هي مثل عليا يؤمن بها الانسان ويضحي من أجلها بالاموال والانفس .

وربح الانسان اغلى ما يملكه الانسان ، فمن المستحيل ان يضحي بها الا اذا كانت له عقيدة راسخة واهداف سامية .

وكل الحديد التي هي السلاح والعتاد ، لا جدوى منها ولا فائدة فيها ، اذا لم يستعملها انسان ذو عقيدة راسخة واهداف سامية .

وحين كان العرب قادة وجنودا وافرادا وشعوبا متمسكين بعقيدتهم السماوية ، فتحوا العالم وقادوا الحضارة العالمية .

وحين تخلى العرب عن عقيدتهم ، تداعت عليهم الامم كما تتداعى الاكلة على الثريد .

ولم يكن ذلك من قلة ، ولكنهم يومئذ كثير ، بدون عقيدة .

ترى ! ! أيعقل العرب اليوم هذا الدرس ، فيعودون الى دينهم الحنيف بما فيه من تكاليف البذل والتضحية والفداء ، ليعود اليهم مجدهم وعزهم ؟

أم هم لا يزالون بحاجة الى كثير من النكسات والنكبات ! ؟

موقف الإسلام من التنمية الاقتصادية

للدكتور ابراهيم دسوقي أباظة

للعقيدة والمذهب دور له خطره في حياة البشرية .

فالانسان منذ بدء الخليقة يواجه الحياة وفي قلبه عقيدة ويسعى الى اشباع حاجاته وفي راسه مذهب . . فلا يمكن تصور انسان بلا عقيدة .. ولا يمكن تصور نشاط انساني بلا مذهب .

فالعقيدة والمذهب هما السلاح الذي استخدمه الانسان دائما في تفسير وجوده وتحديد طريقه . . ورسم اهدافه . . كل ما في الامر انه كلما تقدم المجتمع في ميادين العلم والتقنية كلما تغلب دور العقل على العاطفة في توجيه العقيدة بحيث تبدو هذه الاخيرة وكأنها انحسرت وذابت في بوتقة التقنية الانتاجية الراهنة .

وعلى ذلك فوجود العقيدة والمذهب المنبثق عنها لا يعتبر من قبيل الترف الفكري الذي يغشاه العقل للترويح أو المضاربة ولكنه ضرورة حتمية لكل جهد بشري يستهدف التقدم لان عمليات التغيير والارتقاء التي يستهدفها هذا التقدم تتطلب من الفرد نمطا سلوكيا وجهدا نفسيا وجسديا يرقى الى مستوى التضحيات التي تفرضها والمذهب هو الذي يتكفل بتوفير هذه العناصر وملاءمتها مع مقتضيات العملية الانتاجية . . ويثير المذهب لا يمكن ان نتصور للمجتمع انطلاقا على مسار التنمية والتقدم . وهناك منطلقات أساسية نرى ضرورة الاخذ بها للاحاطة بهذا الموضوع الحيوي :

1 ــ جوانب العملية الانتاجية :

فالعملية الانتاجية تنطوي على جانبين لابد من التمييز بينهما : جانب مادي تقني وجانب معنوي انساني . وعجلة الانتاج لا يمكن أن تدور وأن تتقدم دون تفاعل ايجابي بين هذين الجانبين التقنية والانسان .

فالتقنية المادية وحدها لا تكفي لقيام الانتاج وتصعيده بل لابد أن تكون مدعمة بعمل الانسان الخاضع لظروف نفسية وذهنية معينة . . فالتنمية الشاملة اذن . . . لابد لها من تركيب نفسي وذهني خاص يطبع القائمين عليها . . ومن هنا يأتي دور العقيدة والمذهب في صياغة هذا التركيب بصورة تتلاءم مع الجانب المادي من العملية الانتاجية .

2 ــ التعارض بين المذهب والعملية الانتاجية :

والحق أن المذهب يؤدي في التطبيق الى دفع عجلة الانتاج أو تعطيلها تبعا لما اذا كانت المبادىء التي أتى بها قد حظيت بايمان الجماعة أو رفضها وتبعا لما اذا كانت ملائمة أو معادية لمقتضيات العملية الانتاجية .

فكم من مذاهب سقطت في التطبيق بسبب عدم ايمان الجماهير بها ورفضها لها !

غير أن الايمان بالمذهب لا يكفي في حد ذاته لاطلاق التنمية وتأمين استمرارها ، بل يجب أن يكون هـذا الايمان مدعوما بتلاؤم كامل أو شبه كامل بين تعاليم المذهب والجانب المادي من العملية الانتاجية فكم من مذاهب ملكت على الجماهير قلوبها ولكنها سقطت في التطبيق بسبب عدم انضباطها مع الواقع التقنـي للعملية الانتاجية . وفي كل الاحوال قد يكون التعارض بين الجانبين جذريا او جدليا .

وحالة التعارض الجذري أن يصطدم المذهـب في أصل من أصوله بقاعدة أو أكثر من قواعد العملية الانتاجيـة .

والتعارض الجذري على هذه الصورة لا يمكـن حله الا على أسـاس التضحية ببعض أصول المذهب !

أما التعارض الجدلي فيكون عندما تصطـدم تفسيرات المذهب وشروحه بقاعدة أو أكثر من قواعد العملية الانتاجية دون أن ينطوي صلب المذهب على نص صريح يؤدي الى هذا التعارض . وفي هذه الحالة الاخيرة يكون حل التعارض عن طريق تفسير المذهب بصورة تتلاءم مع مقتضيات العملية الانتاجية .

هذا ويعتبر التعارض الجذري في كل الاحوال أشد تعقيدا من التعارض الجدلي لان حله لا يكـون الا على أساس التضحية بأحد أمرين : اما اصل مـن أصول المذهب ، او اصل من اصول العملية الانتاجية واما اعتداء علـى بعض القواعد الفنية للعمليـة وفي هذا أما اعتـداء على بعض تعاليـم المذهب وأمـا اعتداء على بعض القواعد الفنيـة للعملية الانتاجيـة .

3 ـ المذهـب والتركيـب النفسـي :

وعظم الدور الذي يقوم به المذهب يتجلى في عملية البناء النفسي التي يتيحها للفرد في مجتمـع يستهدف التنمية . لان اخطر العقبات في ارتياد طريق التنمية هو ذلك الجمود النفسي الذي يعتري الفرد في المجتمع المتخلف . . وهذا الجمود يتمثل في كل موقف يرفض التغيير ويعارض التجديد في انماط المعيشـة وأساليب الانتاج ، بينما تتطلب التنمية تركيبا نفسيا مرنا يدور في اطار من الاستقرار المشروط .

والتركيب النفسي المـرن هو ذلك التركيـب الذي يستجيب في سرعة لعوامل التغيير فيتفاعل مع هذه العوامل تفاعلا ايجابيا في اتجاه التقدم وبذلك يسمح بمولد ما اسميه بالسلوك الارتقائي عند الفرد اي ارادة الفرد الفاعلة في الارتقاء والتجديد .

أما الاستقرار النفسي المشروط فنعني به أن يعمل الفرد لغده مدفوعا بحافز المكافأة وخوف العقاب اذ بين اغراء المكافأة ورهبة العقاب يتحدد موقفـه النفسي في موضع لا يعرف القلق الكامل ولا الركون الكـامـل .

4 ـ المذاهب الدنيوية والمذاهب الدينية :

والمذاهب . . كل المذاهب تنقسم الى نوعين ، مذاهب من صنع البشر ، ومذاهب من تنزيل السماء . والمتطلع لحقيقة المذهبين الكبيرين اللذين يسودان عالم اليوم . . . الليبرالية والماركسية ليتبين بما لا يدع مجالا للشك بأن كل منها قد اخطأ موازين الكيل في الجماعة . فالراسمالية وليدة الليبرالية قد انتهت في العمل الى التضحية بالمساواة في سبيل الحرية فخلفت خللا اجتماعيا خطيرا بين من يملكون ومن لا يملكون . بينما انتهت الجماعية وليدة الماركسية الى التضحية بالحرية في سبيل المساواة فخلفت في العمل خللا خطيرا في توزيع السلط بين من يملكون كل سلطة (اعضاء الحزب الواحد) ومن لا يملكون اي سلطة (الغالبية الساحقة من الشعب) .

اما المذاهب الدينية فعلى الرغم مما استهدفت له من هجمات ، فلا يمكن انكار دورها الاساسي في بناء حضارات كبرى على مـر التاريخ . وقد لعب الاسلام دورا خطيرا في تشييد حضارة عريقـة لا زالت اصولها راسخة الى اليـوم .

5 ـ الاسلام والتنميـة الاقتصاديـة :

والمتطلع لحقيقة القيم الاسلامية كما وردت في كتاب القرآن والسنة ليدرك عمق الدور الذي يمكـن ان تلعبه هذه القيم في النهوض بالمجتمع المسلم من كبوة التخلـف .

والنظرة الحركية للواقع الاقتصادي المعاصر لتؤكد ارتفاع كل تعارض جذري بين القيم الاسلامية والجانب المادي من العملية الانتاجية ، انما التعارض ان كان ثمة تعارض فهو من النوع الجدلي الناتج عن تفسير المجتهدين . وعلى ذلك يكون حل مثل هـذا التعارض عن طريق الاجتهاد والتجديد للتلاءم مع مقتضيات الواقع الاقتصادي والاجتماعي المتطور .

لقد حرص الاسلام على تهيئة الجانب المادي من العملية الانتاجية عندما حض على العلم ومجد العلماء كما حرص على تكوين الجانب المعنوي من هذه العملية عندما خص المسلم بمجموعة من الانماط السلوكية سمحت ببناء تركيبه الذهني والنفسي بصورة تتلاءم ومتطلبات التنمية الشاملة .

وهكذا يرى الاسلام ان القيمة تكمن في العمل .. فلا قيمة بغير عمل .. وان السعي والمجابهة فرض على الانسان .. وان المثابرة والاقدام شرط اساسي للتقدم والارتقاء .. وان التدبر والتفسير واجب عند الاقبال على مغالبة الصعاب . وفي كلمة فقد منح الاسلام الفرد تركيبا نفسيا مرنا يدور في اطار من الاستقرار المشروط باستقراره النفسي رهين بكده وسعاه .

غير ان الاسلام لم يكتف في تكوين نفسية المسلم بهذه التوجيهات الروحية ، بل دعمها من القواعد الموضوعية ، وذلك حتى تلتقي التهيئة الروحية بالممارسة . ولعل اخص هذه القواعد من وجهة نظر التنمية الاقتصادية ما تعلق بحق الملكية .

فللملكية في الاسلام وظيفة مزدوجة . اذ لها اصل الفرد وظيفة ، ولها قبل المجتمع وظيفة اخرى .

ووظيفتها قبل الفرد تتحدد بالقدر من الاستقلال الذي تضمنه له والقدر من الاطمئنان الذي تحيطه به .

اما وظيفتها قبل المجتمع فتتحدد بالقدر من المنافع التي تكلفها له والقدر من المضار التي تدفعها عنه .

وفي كلمة ، فالمالك ليس سيدا لما يملك .. ولكنه موظف بما يملك فحق الملكية في الاسلام اذن ليس بالحق المطلق . انما هو حق مقيد بتحقيق منفعة الامة . فاذا ما كفت الملكية عن تحقيق منفعة الامة او انطلقت مضرة عليها ، كان لولي الامر ان يتدخل لردها الى وظيفتها الاجتماعية . ومن هنا كان الاستقلال الذي تمنحه الملكية للفرد والاستقرار الذي توفره له مقيدا بحدود هذه الوظيفة .

تلك بايجاز مطلق ابعاد التركيب النفسي الذي كفله الاسلام .. وتلك بعض القواعد الموضوعية المدعمة لها . وما من شك في ان هذا التركيب وهذه القواعد تسهم بنصيب وافر في تحقيق اغراض الشارع من ادراك العدالة بوجهيها .

فطبيعة الملكية على النحو الذي اوردناه تؤدي الى تحقيق العدالة بوجهيها . اي العدالة في توزيع السلطات والعدالة في توزيع الثروات . فهي تؤدي الى تحقيق العدالة في توزيع السلطات عندما ترفض التركيز الكامل للسلطة الاقتصادية في يد الدولة بالغاء حق الملكية .

وهي تؤدي من ناحية اخرى الى تحقيق العدالة في توزيع الثروات عندما تمنع التكديس المفرط للثروة بتخويل ولي الامر حق التدخل للحد من سلطان الملكية واعادة توزيع ثمارها . وهكذا تبدو العدالة الاجتماعية الحقة في ارفع صورها التطبيقية .

6 ـ خاتمة :

اذا كان الواجب يفرض ان اضع امام القارىء تلك الحقائق الكبرى عن موقف المذاهب من التنمية .. فان الواجب يفرض علي ايضا ان اشير في النهاية الى مرجات الرفض التي تواجهها القيم الاسلامية من هذه الزاوية . ونحن نعتبر ان هذا الرفض ناتج عن جهل مزدوج :

جهل بحقيقة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وجهل بحقيقة التراث الاسلامي .

وعلماء هذه الامة ومثقفوها ، مسؤولون مسؤولية كاملة عن تبديد هذا الجهل ، ورد ابنائها الى طريق الاصالة في البناء والارتقاء .

د. ابراهيم دسوقي اباظة

نظرات إسلامية

المرأة في سفر التكوين

د/ سعاد صالح الدين أدلبي

تعالت أصوات الكتاب والمفكرين الغربيين من أجل تحرير المرأة ، ولا زالت هذه الأصوات تتعالى مطالبة بتحرير المرأة رغم ما حققته المرأة الغربية من تنفيذ كثير من مطالبها العامة ، فيما يتعلق بحرية الخروج من البيت ، وحرية التعلم ، وحرية العمل ، وحرية التصرف بنفسها وبمالها وجسمها كما تشاء أو كما يشاء لها الهوى .

لكن مسألة المرأة هي شيء أعمق من كل هذا.. تريد المرأة أن ينظر اليها المجتمع نظرته الى انسان ، انسان لا يختلف عن الرجل في المعنى الانساني ، والانسان مكرم ، فلابد من أن تكون النظرة للمرأة نظرة رفعة وكرامة ، لا نظرة ضعة وامتهان .

ومما لاشك فيه أن الفكر الاوربي والحضارة الحديثة متأثران تأثرا كبيرا بتعاليم اليهودية والنصرانية وهما ديانتان وان كانتا الهيتين بالاصل الا انهما محرفتان ومبدلتان ، وكتب الديانتين مكتوبة بأيد غير أمينة على الوحي الالهي لا يهمها في سبيل الحصول على عرض الدنيا وحطامها اي شيء آخر .

ومهما حاول الباحث ان يجد تفسيرا لتلك النظرة الازدرائية للمرأة عند اتباع الديانتين فلن يجد أصدق من اصل النظرة للمرأة في كتبهم الدينية ، ولا أستطيع أن اسميها بالتوراة والانجيل بل هي أسفار العهد القديم والعهد الجديد .

ويرجع الباحث الى قصة أول امرأة في الوجود الانساني وهي زوج آدم .

وقصة آدم معروفة عند أهل الديانات ، وفيها ان الله سبحانه وتعالى أسكن آدم وزوجه الجنة وأباح لهما الاكل من جميع أشجار الجنة الا شجرة عينها لهما ، ولكن ابليس وسوس لهما بالاكل منها وأغراهما بأنواع المغريات حتى نسي آدم انه عدوه وان الله حذره منه أشد الحذر ، فأكل آدم وزوجه من الشجرة، وكان هذا سببا في اخراج الله عز وجل اياهما من الجنة .

ولكن كيف اغوى ابليس آدم ؟

يروى سفر التكوين أول أسفار العهد القديم ان ابليس أغوى زوج آدم عن طريق الحية ، ثم انها هي التي أعطت آدم من الشجرة فأكل منها ، وبذلك تكون المرأة هي سبب الخطيئة ، وهي سبب غضب الله على البشر وطرده من الجنة ، وهي سبب اللعنة الابدية .

وهنا لسوق من سفر التكوين فقرات من بعض الفصول لبيان نظرة سفر التكوين لاول امرأة من الجنس البشري من خلال أول مخالفة بشرية لنهي رباني .

جاء فى الفصل الاول (الفقرة 26) : « وقال الله لنصنع الانسان على صورتنا كمثالنا ، وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الارض وكل الدبابات الدابة على وجه الارض » .

(27) فخلق الله الانسان على صورته ، على صورة الله خلقه ، ذكرا وانثى خلقهم .

وفى الفصل الثانى حديث عن خلق الاشجار وإباحتها للانسان الا شجرة واحدة :

(9) وانبت الرب الاله من الارض كل شجرة حسنة المنظر وطيبة المأكل ، وشجرة الحياة فى وسط الجنة ، وشجرة معرفة الخير والشر .

(16) وامر الرب الاله الانسان قائلا : من جميع شجر الجنة تأكل ،

(17) واما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها فانك يوم تأكل منها تموت موتا .

(25) وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان .

ونقرأ فى الفصل الثالث كيف كان الاغراء والاغواء متجها لامرأته أولا من طريق الحية ثم كيف أثرت المرأة على زوجها حتى أكل من الشجرة المنهى عنها :

(4) فقالت الحية للمرأة : لن تموتا ،

(5) انما الله عالم انكما فى يوم تأكلان منه تنفتح اعينكما وتصيران كالهة عارفى الخير والشر .

(6) ورأت المرأة ان الشجرة طيبة للمأكل وشهية للعيون وان الشجرة منية للعقل ، فأخذت من ثمرها وأكلت ، واعطت بعلها ايضا معها فأكل .

(7) فانفتحت اعينهما فعلما انهما عريانان ، فخاطا من ورق التين وصنعا لهما مآزر .

(8) فسمعا صوت الرب الاله وهو متمشى فى الجنة عند نسيم النهار ، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الاله فيما بين شجر الجنة .

(9) فنادى الرب الاله آدم وقال له : اين انت ؟

(10) قال : انى سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لانى عريان فاختبأت .

(11) قال : فمن اعلمك انك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التى نهيتك عن ان تأكل منها ؟

(12) فقال آدم : المرأة التى جعلتها معى هى اعطتنى من الشجرة فأكلت .

(13) فقال الرب الاله للمرأة : ماذا فعلت ؟ فقالت المرأة : الحية اغوتنى فأكلت .

(14 — 15) فقال الرب الاله للحية : اذ صنعت هذا فانت ملعونة ..

(16) وقال للمرأة : لاكثرن متاعب حملك ، بالالم تلدين البنين ، والى بعلك تنقاد اشواقك ، وهو يسود عليك .

(22) وقال الرب الاله : هو ذا آدم قد صار كواحد منا يعرف الخير والشر ، والآن لعله يمد يده فيأخذ من شجرة الحياة ايضا ويأكل فيحيا الى الدهر .

(23) فطرد آدم واقام شرقى جنة عدن الكروبين وبريق سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة .

***

لاشك ان هذه الصورة التى يقدمها سفر التكوين هى بذرة الكراهية من الرجل للمرأة ، وخليق بكل يهودى او نصرانى وهو يقرأ هذه القصة فيما يسميه بالكتاب المقدس ان لا تبقى فى نفسه للمرأة ذرة من تقدير او تكريم .

ولا بد من ابداء بعض الملاحظات فيما يتعلق بموضوع المرأة وان كانت النصوص التى قدمتها تفصح عن نفسها بنفسها :

لا شك ان النهى عن الاكل من الشجرة كان موجها بالدرجة الاولى الى آدم ، شاملا له ولزوجه ، فلم يوجه اللوم كل اللوم للمرأة حيث انها هى التى كانت السبب ويكاد آدم يعفى من المسؤولية ؟

وهنا نرجع الى الكتاب الالهى المحفوظ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لنجد فيه النص الحق ، الا وهو القرآن الكريم فماذا يقول الله سبحانه فى القرآن ؟

قال تعالى فى سورة البقرة : « وقلنا يـــا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكـــلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمـــين فازلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقـــر ومتاع الى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » (1) فلم يجعل الله سبحانـــه وتعالى زوج آدم احبولة الشيطان ووسيلته الى ازلال آدم بل جعلهما سواء فى تلك الزلة حيث جاء التعبير عنهما بضمير التثنية « فازلهما الشيطان عنها» وجعلهما سواء فى تحمل المسؤولية وما يترتب على ذلك من نتيجة « فاخرجهما مما كانا فيه » .

وقال تعالى فى سورة الاعراف : « ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين ، وقاسمهما انى لكما لمن الناصحـــين ، فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما الم انهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفرلنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » (2) ، وفى هذه الآيات الكريمات بين الله سبحانه ان الشيطان وسوس لآدم وزوجه مستعينا بالقسم على انه لهما لمن الناصحين فاغترا به وذاقا الشجرة ، والله سبحانه وتعالى يجعل آدم وزوجه سواء فى تلقى وسوسة الشيطـــان وفى الاستجابة بذوق الشجرة المنهى عنها « فوسوس لهما الشيطان » « وقال ما نهاكما ربكما » « وقاسمهما » « فدلاهما بغرور » « فلما ذاقا الشجرة »

وبعد تتبع كلام الله سبحانه فى هذين الموضعين ندخل الى ثالث المواضع من كتاب الله تعالى الذى ذكر الله فيها اهباط ابوينا من الجنة ، وذلك فى سورة طه حيث قال الله تعالى : « فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلـــى . فاكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » (3) ، وهنا نجد ان الله سبحانـــه تحدث عن آدم بالافراد ، انه عهد اليه ، وانه نســـى ، وانه خوطب بان ابليس عدو له ولزوجه . ثم يخبر الله سبحانه عن الوسوسة والمعصية والتوبة : « فوسوس اليه الشيطان » ، « هل ادلك » ، « وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» كل ذلك بالافراد وكأن آدم يتحمل المسؤولية كاملة .

ونلاحظ ان « سفر التكوين » يجعل الغضـــب الالهى منصبا على الحية حيث كانت هى مطيـــة ابليس لدخول الجنة لمباشرة عملية الاغواء بزعمهم ، ولذلك حلت عليها اللعنة وضربت بينها العداوة وبين بنى آدم وجعلت تمشى على بطنها بعد ان كان لهـــا قوائم . اما بالنسبة للمراة فجعل من عقوبتها ان الله يكثر مشقات حملها ويجعل ولادتها مقرونة بالالم ويجعل عاطفتها وانوثتها منقادة لزوجها ويكون زوجها هو صاحب السيادة عليهـــا ! !

جاء الاسلام فخلص المراة من هذه الوســـاوس والهواجس التى توحى للمراة بان مشقة الحمل والم الولادة انما هى عقوبة الهية وان حب المراة لزوجها وشوقها اليه انما هو عقوبه كذلك ، وجعل علاقـــه المراة بزوجها علاقة تواد وتراحم اذ يقول سبحانه : « وجعل بينكم مودة ورحمة » ، كما نفى ان يكون للرجل على المراة مرتبة السيادة التى تعنى علاقة سيد بعبد ، بل جعل له عليها درجة هى درجة القوامة ، فهو القيم عليها بمعنى المسئولية عن كل ما فيه صلاح امرها واستقامة شانها ومئونتها وكفالتها والمحافظة عليها .

***

ولا بد لى فى آخر هذه الكلمة من اشارة سريعة الى اولئك الذين يظنون او يوهمون ان القرآن الكريم من كلام محمد صلى الله عليه وسلم وانه مقتبس من كتب اهل الكتاب فاقول : هل يمكن لبشر كائنا من كان عاش فى صحراء الجزيرة العربية قبل اربعة عشـــر قرنا ان يأتى بكتاب يصحح اغاليط اهل الكتاب وينزه عن تزييفاتهم دون ان تأثر بها ولا بروح عصره ويكون هذا الكتاب من عند نفسه ؟ اللهم لا .

ان القرآن الكريم هو كلام الله سبحانه وتعالى اوحى به الى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعله خاتمة كتبه الإلهية لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه . ولقد رفع الظلم والاضطهاد والحيف والشؤم عن المراة لا لثورة قامت بها النساء او تطور وقع فى المجتمع ولكن لان الارادة الالهية العلية كرمت الانسان من حيث هو انسان ، قال تعالى : « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » (4) ، صدق الله العظيم .

التعاليق :

1) الآيات 25 — 27 .
2) الآيات 19 — 23
3) الآيات 120 — 122 .
4) الآية 1 من سورة النساء .

« فلكن شعبنا موقنا بأن الحسن الثاني يحمل اسم المواطن المكتوب فى حالته المدنية الحسن بن محمد ، محمد الذي جند الترائح وحقق استقلال بلاده ووحدة ترابها . ولا يمكن ان يكون ابنه سائرا على طريقة مخالفة لما سار عليه ابوه وهو الذي قاسم بنقاه وكل ما جاش بصدره من عواطف نحو شعبه ومستقبل بلاده ، والحسن ابن العلوك العلويين الذين جندوا انفسهم لتوحيد الترابه لا للتخلي عنه ، ويستحيل أن يكتب فى صحيفتي أن ابن العلويين سار على غير طريقهم » .

جلالة الملك الحسن الثاني

أهمية الجانب التربوي
في علاج جنوح الأحداث والمراهقين

للأستاذ محمد عبد العزيز الرباغ

ان انحراف الاطفال والمراهقين وحدوث الجرائم منهم ربما لا نحس بخطره الا بعد اكتشاف امرهم من طرف رجال الامن والقاء القبض عليهم واستنطاقاتهم وتقديمهم للمحاكم التي تحكم احيانا بادانتهم وبارسالهم الى الاصلاحيات لمحاولة تهذيبهم وتقويم سلوكهم. ولكننا لو فكرنا جديا لعلمنا ان الامر يكتسب خطورته من الاستعداد للانحراف في طبيعة الطفل قبل ان يصبح الانحراف شديدا وقبل ان يتخطى اطاره العادي الى الاطار الاجتماعي العام الذي يهدد الامن ويفسد الاستقرار ويفوت فرص السلام على الفرد والجماعة .

وجدير بالآباء والمربين والاساتذة والمعلمين والمسؤولين عامة ان يعوا هذه الحقيقة وان يحاولوا معرفة طبيعة الاطفال وكيفية استغلالها في تهذيبهم وتربيتهم وتوجيههم لما فيه الخير لهم وللبلاد .

ان اسباب الانحراف كثيرة جدا ولكن اغلبها يرجع الى الجهل بطبيعة الاطفال والى عدم القدرة على السيطرة على سلوكهم بطرق سليمة لا تعرقل النمو الطبيعي للطفل ولا تحد من نموه النفسي ولا من ابراز عناصره الشخصية التي لا تتنافى مع تلاؤمه الاجتماعي العام . ولهذا كان من الضروري مراعاة الامور التالية :

أولا — طبيعة الطفل في اثبات ذاته

ان اثبات الذات واظهارها صفة انسانية عامة لا مناص لنا من التخلص منها . وطريقة الاثبات هذه تختلف باختلاف المراحل وباختلاف الافراد في مستوياتهم البيئوية او اختلافاتهم العمرية ؛ وقد يجد الذين يريدون اثبات الذات عوارض خارجية متصلة بالعادة او التقاليد او عوارض ذاتية مرجعها الى امراض نفسية او جسدية وتتنوع مواقفهم بتنوع هذه العوارض او تنوع هذه المستويات البيئوية او العمرية ، وفرق كبير بين مواجهة الرجل الراشد لبعض العوائق ومحاولة التغلب عليها بتحليلها وربطها بالتكيفات الاجتماعية وبالحكمة

(1) اقامت جمعية رعاية الطفولة والاسرة مدرسية "حرية المحروسة" دورة تدريبية للمندوبين المتطوعين في شهر دجنبر 1976 واستدعت لهذه المناسبة عددا من الاساتذة لالقاء محاضرات في موضوع الانحراف ، فشاركت بمحاضرتين اما اولاهما فباته واما الثانية فموضوعها « انعدام الجو التربوي في الاسرة واثره في انحراف الاحداث » وسنوافي القراء بها ايضا في عدد آخر ان شاء الله .

لعقلية وبالمقارنة بينها وبين المصلحة العامة وباستخدام عناصر الفكر ووسائل الاقناع والاقتناع وبين ذلك عند الطفل الصغير والمراهق للفرد يحتاجان الى عناية كبرى من المربين لخلق التوازن بين تحقيق رغباتهما وبين تعديل هذه الرغبات ، بكل عملية تدخل القسر والعنف في الحد من اثبات الذات دون مراعاة الجانب النفسي ودون محاولة تفسير السلم لهذه النوازع ودون محاولة التربية بتخفيف الرغبات او العمل على النكوص والاحجام قد تؤدي حتما الى انحراف خطير عند الطفل أو المراهق معا .

ولهذا غلبت ظواهر الانحراف عند الاطفال الذين لم يعيد فيهم هذه الغريزة فاهملوا اما بعطائهم الحرية الى ابعد حدودها فعاشوا مدللين يعملون كل ما ارادوا أو بقهرهم وكبتهم ومنعهم من كل الوسائل التي يشتون بها ذواتهم ويحققون بها شخصياتهم .

ومن هنا كانت طريقة الاعتدال في التربية مهمة جدا لانها وسط بين طريقتين كل منهما ضار الا وهما طريقة الحرية المطلقة وطريقة القهر المطلق

ومن المفروض تربويا ان رعاية هذه الظاهرة النفسية يسأل عنها مباشرة الآباء والامهات ومن يقوم مقامهم من الاولياء في البيت كما يسأل عنها المعلمون والمربون في المدارس ثم سائر افراد الهيئة الاجتماعية في المجتمع .

وبتوزيع هذه المسؤولية لا يهمل يقوم ولا مقصر ولا عاجز ولا فاقد للرعاية في البيت بسبب اهمال الوالدين او بسبب جهلهما او انحرافهما او بسبب وضع الطفل في بيئة سلبية لا تستطيع توجيهه او تهذيب نوازعه الامارة بالسوء .

ثانيا — طبيعة الطفل في ميله الى الاعتداء

هذه الطبيعة قد تكون مرتبطة احيانا بالظاهرة الاولى التي تتعلق باثبات الذات وهي غالبا ما تتصل بغرائز الطفل اللاشعورية قبل تهذيبها من طرف المجتمع . وقد حاول فرويد ابراز الجانب العدواني في نفس الانسان وابراز هذه العواطف اللاشعورية في ظاهرتين عبر عنهما بغريزة الجنس وغريزة الموت وهذه الغريزة الثانية هي التي جعلها منشئة العدوان والعنف في نفس الطفل وخالقة المقاومة والمقاتلة في سلوكه .

ومن الطبيعي أن هذه الغريزة العدوانية قد تصبح عنيفة الى ابعد الحدود وقد تعيش مع الانسان مراحل نموه فتنغص عليه استقراره في ايام شبابه وفي ايام كهولته وبعد ذلك ويتعرض بسبب تعبدها الى ازمات نفسية خطيرة والى امراض عصبية والى انحرافات ومخالفات قد تصل الى حد الاجرام .

ولهذا لا يمكننا ان نتناسى قيمة هذه الغريزة في تهذيب الفرد وتوجيهه وخلق المناسبات الصالحة لتبديد بعض مظاهر العنف والعدوان وتوجيهها توجيها سليما يتعاون فيه المربون مع الجانب المتعلق باثبات الذات وتوكيدها تعاونا يستطيعون به الا يجعلوا بعض الافراد الذين يحملون بذور العدوان يتصرفون فيه تصرف الساديين Sadiques الذين لا تحلو لهم الحياة الا مع العنف الصاخب والعدوان المدمر للاشخاص والاشياء .

ويمكن استهلاك هذه الطاقات في تنظيم الالعاب الرياضية وتوزيع المسؤوليات على التلاميذ داخل الفصول وتهيىء الجمعيات المهتمة بالنشاط الجسمي والفكري والاستغلال الاندية الاجتماعية والثقافية لابراز المواهب وتحقيق المعطيات الطبيعية وتمكينها من الظهور فلا تتلاشى ولا تكبت كبتا يؤدي الى الانفجار .

وقد حاول رجال التربية في العصر الحاضر ربط الدراسة بانشطة موازية للتعليم يحاولون فيها مراقبة هذه النوازع النفسية وتوجيهها توجيها سليما يبعد الاطفال من الانحراف ولا يترك لهم مجال الاندفاع الحاد الذي يؤدي في بعض الاحيان الى استعمال العنف والتدمير .

ثالثا — ميل الاطفال الى الاستقرار النفسي وتعطشهم للحب والحنان

ان عدم الاستقرار في حياة الطفل وفقده للرعاية الكاملة وحرمانه من الحب والحنان يحدث فيه عقدا شتى تجعله مضطربا قلقا لا سلطة له على التحكم من زمام نفسه ولا على التصرف في توجيه ارادته نحو ما يريد . ولهذا لو بحثنا عن اسباب الانحراف

نستجد من بينها انعدام هذه الرعاية او فقدان هذه المودات .

ومن هنا جاءت المسؤولية الكبرى على الآباء والامهات ثم على المربين ثم على المجتمع بكل هيآته

ان دور الاسرة هنا يقتضي الاهتمام بالطفل واشعاره بوجوده وبانه كائن حي مرغوب فيه له قيمته في الحياة ومتوصل الى ذلك عن طريق المحبة وحسن الرعاية فاذا شعر الطفل بانه عالة على من يتولون مرانته وبانه مشكلة من مشاكلهم او بانهم لا يأبهون به ولا يقدرون وجوده فهو يتحدى هذا الواقع ويرد اثبات ذاته بكل الوسائل التي تشعر هؤلاء الذين عاملوه بفتور واهمال ولو ادى الحال الى استعمال العنف والتخريب واذابة الاخرين .

ان الطفل اذا عدم الرعاية يسلك مسلك الجانحين ويصب جام غضبه على ما حوله وعلى من حوله وحينئذ يصعب اصلاحه لانه يكون قد فقد الموجهين الموفقين الذين يبثون فيه مسالك الخير ومبادئ الفضيلة .

وهذا هو السر في ان التربية الدينية تجعل مسؤولية الرعاية مسؤولية جسيمة سواء من الآباء او الاولياء وتحض على حفظ معنوية اليتيم ليلا يشعر بفراغ في حياته التربوية وما احكم قول الله تعالى وهو يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بالآيات التالية (2) : « والضحى والليل اذا سجا . ما ودعك ربك وما قلى ؛ وللآخرة خير لك من الاولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ؛ الم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فاغنى فأما اليتيم فلا تقهر ، واما السائل فلا تنهر ، واما بنعمة ربك فحدث » .

ففي هذه السورة نهي عن قهر اليتيم ليلا يحس بسبب هذا القهر بفراغ روحي يجعله بعيدا عن مناهل الحب ويدعه قلقا متورما وفي ذلكم من العواقب الوخيمة على التكوين الاجتماعي ما هو ظاهر .

ولعل هذه الظاهرة اي ظاهرة الاهمال وعدم الاشعار بالحب هي التي دفعت الشاعر احمد شوقي في بعض قصائده الى ان يقارن بين الطفل المهمل الذي يفقد رعاية والديه بسبب انشغالهما عنه وبين اليتيم فقرر بان فقدان الرعاية اشد ضررا على الطفل من اليتيم الحقيقي فهو الذي يقول :

ليس اليتيم من انتهى ابواه من
هم الحياة وخلفاه ذليلا

فاصاب بالدنيا الحكيمة منهما
وبحسن تربية الزمان بديلا

ان اليتيم هو الذي تلقى له
امـا تخلت او ابا مشغولا

ان رعاية الاطفال ومواساتهم وابراز ملامح المحبة في معاملتهم لمن الضرورات التربوية والاجتماعية التي يجب ان تصاحب المربين في كل حين .

وكم كان يؤسفني وانا استاذ بثانوية مولاي ادريس سنة 1960 م ان ارى احد تلاميذتي يقدم للمجلس التأديبي بسبب اهماله لدروسه وبسبب مشاكسته لبعض اساتذته دون ان يبحث هذا المجلس عن اسباب هذا الاهمال وهذه المشاكسة .

وكنت حينئذ واثقا من ان هذا التلميذ لا ارادة له في تلك النتيجة وذلك السلوك فاحببت ان اعرف السبب بنفسي فقدمت موضوعا انشائيا آنذاك طلبت فيه من تلامذتي ان يكتبوا رسائل لبعض اقاربهم يتحدثون فيها عن نتائجهم ودرجاتهم بكل صراحة فوجدت من خلال تلك الموضوعات هذه الرسالة التي كتبها ذلك التلميذ المعني بالامر (3) .

« استاذي لا اجد لي قريبا اكتب اليه رسالتي الا اخا لا اريده ان يطلع على حقيقة امري ولذلك اوثرك عليه وابوح لك بحقيقة نفسي .

ان نتيجتي في الامتحان سيئة جدا ومرجع ذلك الى ظروفي وامكانياتي فانا طفل يتيم فقد ابويه في حادثة سير وكفلني من بعدهما اخ احسن الي واعانني على متابعة دروسي الابتدائية حتى اذا انتقلت الى القسم الثانوي وجدتني اواجه امرا جللا ذلك ان اخي تزوج بامراة تحسن الدهاء واطمان اليها في

---

(2) هذه الآيات مكية وتمثل سورة الضحى وعددها احدى عشرة آية .
(3) اصل الرسالة مكتوب باسلوب يتلاءم مع مستوى ذلك التلميذ .

معاملتي قاسات وظن انها تعاملني بالحسنى فظلمت الشيء الذي ادى الى اضطرابي وقلقي وشكي في قيمة الحياة فحرمت من حين لآخر اهيم في التفكير وأذهل عن متابعة الدروس واصبحت نتائجي مدحورة ودرجاتي عند الاساتذة ضعيفة وعاملني اكثرهم معاملة قاسية وصرت اوازي بيني وبين نفسي بعامت ان اخلاقي تبدلت وسلوكي كاد يصبح شاذا .

اني اصبحت اكره من حولي . ان الكراهية التي تحملها زوجة اخي الي وانا بريء لم تحل بيني وبين كراهية الآخرين وان كانوا ابرياء .

اني لم اعد قادرا على ضبط نفسي ولا على التحكم في زمامها وان اتفه ملاحظة من اساتذتي الى جعلتني اثور واتمرد واواجههم بالعنف العنيف وكانت النهاية ان قدمت الى المجلس التاديبي لضعف نتائجي وسوء سلوكي حسب ما جاء في بعض الملاحظات المسجلة في الدفتر المدرسي .

استاذي اني لاخشى ان يصبح ما تلوه امرا واقعا فانا قلق مضطرب سريع الغضب بطيء الرضا خشن المعاملة اتوقع عما قريب ان اطرد من المدرسة وان يصبح زمام مصيري بيد العنف والذي سيوجهني نحو الخراب والتدمير » .

ان هذا الاعتراف من طرف هذا الطفل يتلاءم مع قوانين علم النفس وعلم الاجتماع وهو في الحقيقة مدعاة الى اثارة الانتباه من طرف المربين والآباء والاولياء تعلينا جميعا تتبع المسؤولية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بنصحه الا لم يجد رائحة الجنة (4) » .

فلننشر الاوبة المحبة على اطفالنا وعلى كل من نتولى رعايتهم لتخلصهم من العقد ولتبعدهم عن مزالق الضلال .

وليس المراد بالحب ان نكون ضعفا ازاء سلوكهم وان ندع لهم الحرية المطلقة يعملون كل ما ارادوا وانما المراد بالحب ان يشعر الطفل بالاطمئنان وان يحس بالحنان وان يعلم ان مواقفنا في تربيته ليست ناتجة عن حقد دفين او عن كراهية متفجرة او عن دوافع انتقامية ، فالحب رعاية والرعاية تقتضي ان نعد الطفل للحياة السعيدة وان نجعل منه انسانا سويا .

رابعا — ترك الفرصة للطفل لمراقبة اعمالنا الصالحة

ان الطفل مقلد بطبيعته وهو سريع التاثر بمن يجاوره وغالبا ما تتشكل شخصيته بشخصية من حوله ونحن مسؤولون عن اثارة المخاوف في نفسه وعن زرع بذور القلق والاضطراب في سلوكه فاذا اردنا منه ان يكون متزنا مستقرا بمستقبله فلنكن نحن متزنين مستبشرين ولنمارس تربيته بصبر واناة ولنبعد عنه مظاهر انفعالاتنا الحادة قلا نعامله بسوء ولا نرتكب السوء امامه في معاملة بعضنا لبعض .

ان المربي اذا قدر قيمة الشخصية في معاملة الاطفال والمراهقين وعرف قيمة الصبر امامهم فانه لا محالة سيطبعهم بسلوكه وسيعودهم بسرعة على لمسة بحنانه وسيجعلهم صابرين بمسؤولياتهم عارفين قدر انفسهم متحكمين في غرائزهم ولقد نبه المربون الى ذلك في جل قوانينهم واحكامهم .

ففي مقاطعة الينوي بامريكا توجد مؤسسة لتقويم سلوك الاولاد المنحرفين كان يترأسها الاستاذ شازولبونارد الذي اكتسب تجربة من تسيير هذه المؤسسة ادت الى ان يؤلف كتابا قيما عن اسباب الانحراف (5) . قال في كتابه هذا : « يعرف الآباء والمدرسون الذين يفهمون الاطفال ان الصبر في معاملتهم افضل فالمدرس الذي يضطرب اضطرابا

---

(4) يوجد الحديث بداية الباري في ترتيب احاديث البخاري لعبد الرحيم الطهطاوي الجزء الثاني صفحة 177 .

(5) اسم الكتاب المذكور لماذا ينحرف الاطفال ؟ ترجمه الى العربية الدكتور محمد فسيم راقبت واشرف عليه وقدمه الدكتور عبد العزيز القوصي ونشر في العدد الثاني من سلسلة الدراسات السيكولوجية المسماة كيف نفهم الاطفال اخذ النص من صفحة 52 .

ظاهرا عند ما ينتقده تلميذ الفصل والاب الذي يتغيظ كلما حاد الاطفال عن جادة الصواب هؤلاء يعملون فقط على زيادة تعقيد مشكلات اطفالهم ويكون رد فعل هؤلاء الاولاد والبنات على نفاد صبر الكبار هو التبرم منهم والكره الشديد لهم .

لا يستجيب الاطفال استجابة طيبة الى المعاملة الخشنة ، والعقاب الصارم والتاديب لا يحل المشكلة لانه لا يزيل اسباب الانحراف بل يزيد المشكلة تعقيدا » .

ومن خلال هذا النص نعلم أن ضبط النفس فضيلة تعين على التخفيف من عقوبة الاطفال وتسعير سبيل التحكم في طبائعهم وفي توجيههم ولا يستطيع المربي تحقيق ذلك اذا كان جاهلا باصول علم الاخلاق وبقوانين أصول التربية ولهذا كانت العناية بتربية المربين واجبة لان فاقد الشيء لا يعطيه .

مما تقدم نعلم ان جل اسباب الانحراف ترجع اما لجهل الكبار بطبيعة الصغار واما لفساد سلوك الكبار انفسهم أو لفساد الاوضاع الاجتماعية .

ولهذا يمكننا ان نضيف الى ما تقدم اسبابا اخرى للانحراف كاهمال الاطفال وعدم اتاحة الفرصة لهم في تلقي التربية السليمة لضعف مستوى اسرهم او لانفكاك هذه الاسر بسبب انتشار الطلاق او انتشار الخصومات العائلية .

اذن يجب ان تكون العناية بتربية الاسرة ذات اعتبار في المفاهيم التربوية ورحم الله احمد امين الذي يقول : « ليست الامة الا عدة اسرات وليست المدينة الا عدة بيوت والسلوك الذي يسلكه الناشيء في بيته ليس الا صورة مصغرة لسلوكه بعد في امته واذا كان منبع النهر ملوثا تلوث النهر فصلاح الامة وصلاح البلاد دائما هو بصلاح الاسرة » .

ومن الاسباب عدم تيسير التعليم الكافي وترك مجال البطالة في المجتمع مع اكتظاظ بعض الاسر بالاطفال دون ان نجد الوسائل الكفيلة لحماية هؤلاء الاطفال ماديا وتربويا فيكثر التشرد والضياع والاهمال .

ان الفقر مشكلة عويصة جدا تلعب دورها في انتشار اسباب الانحراف . وعلى الامة التي تريد الابتعاد عن التخلف أن تفكر في الوسائل الاقتصادية الكفيلة بابعاد شبح الفقر اللعين عنها لانها بذلك ستيسر المجال الصالح لبناء دولة مجتمع أحسن تجهيز مشتملة على مؤسسات العلم والمعرفة والصحة عاملة على نشر الفضيلة واتاحة تكافؤ الفرص للمواطنين على اختلاف طبقاتهم وحيثياتهم .

ومن اسباب الانحراف عدم انتشار الوعي الكافي بين المواطنين وعدم تحملهم مسؤولياتهم على احسن وجه .

ان المواطنين الذين يحملون هذه المسؤولية يعرفون كيف يستغلون المواقف ويساعدون بما لديهم من امكانيات فيساهمون في انجاح المشاريع الاجتماعية البناءة ويشاركون في التنمية والتوجيه ويعملون على وضع المخططات السليمة وعلى تطبيقها وفق الاختصاصات التي يمثلونها في البيت أو المدرسة أو المجتمع أو على صعيد المسؤوليات الادارية والقانونية في تسيير البلاد .

هذا ولنعلم الآباء والمربون ان الاطفال غالبا ما تتشكل تربيتهم حسب البيئة التي ينشؤون بها وان دور الكبار عظيم جدا في تهذيب الصغار أو في الاطاحة بهم نحو الرذيلة والانحراف .

ان علماء النفس وعلماء الاجتماع ابدوا في دراساتهم وجود علاقة وثيقة في التربية بين الطفل والبيئة مرجعها الى الالتقاط العفوي الذي يتلقاه الطفل مما حوله وممن حوله ؛ هذا الالتقاط الذي يصير امتصاصا لسلوك الآخرين فيطبع الشخصية بالخير او الشر .

وان الخطر لا يكمن في هذا التقليد اللاشعوري الناتج عن العادة والملاحظة والمراقبة ولكن الخطر يكمن حينما تكون القدوة سيئة ويرتد الطفل تقمص شخصية عن ارادة وسبق اصرار فيتعذر حينئذ الاصلاح ولا ينفع وعظ ولا ارشاد ولا وعد ولا وعيد . وفي هذه الحالة يصبح العلاج صعبا ويصير الانحراف مرضا اجتماعيا خطيرا ما كان أجدرنا ان نتوقاه قبل الوقوع فيه فالوقاية افضل من العلاج والحذر خير من الوقوع في المزالق ولهذا يمكننا أن نحدد بعض وسائل الوقاية فيما يأتي :

اولا — نشر وعي كاف بين المواطنين يذكرهم بمسؤولياتهم ويوضح لهم حدودها

ثانيا — العمل على تعميم التربية الجماعية للكبار ، وذلك عن طريق الجمعيات الدينية والاخلاقية وعن طريق المرشدين التربويين ويجب ان نستغل في هذا المجال المساجد والاندية والاذاعة والتلفزة وكل الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الاهداف خصوصا المسرح والسينما لما لهما من التاثير السمعي المباشر الذي يقوم مقام الارشاد المكتوب لدورهما في الدول التي تنتشر فيها الامية عظيم .

ثالثا — الحرص على ابعاد المجتمع عن كثير من المظاهر العبثية التي اصبحت مسيطرة في بعض الفلسفات والتي دعت الى التحلل من القيود الاخلاقية والدينية بدعوى تحرير الفرد من الخنوع والذلة وجعله مثبتا لذاته عن طريق شعوره بوجوده لا عن طريق مثاليات فرضت عليه من الدين او المجتمع .

رابعا — ربط المناهج التعليمية ببعض الدراية العملية الصالحة لمسايرة التقدم الصناعي المعاصر حتى اذا لم ينجح التلميذ في دراساته النظرية استطاع ان يعوض ذلك بتلك الدراية الصناعية فيكتسب بها رزقه ويسير بها عمله وحينئذ لا نكثر العاطلون الذين لا يعرفون كيفية ملء فراغهم وتقل الخطورة التي يحدثها الفراغ مع الجهل والبطالة . ان البطالة والجهل وسوء التكوين اعشاش الرذيلة وبذور التخلف والانحطاط .

خامسا — العمل على ايجاد مدارس للمنحرفين وتوجيههم فتساعدهم على التخلص مما يعانونه من ازمات نفسية او عصبية .

سادسا — مساهمة جميع المسؤولين في التخفيف من اعباء هذا الانحراف كل في واجهته التي يدير فيها اعماله وخير مثال لذلك هذه الالتفاتة التي دعت الى اقامة هذا المهرجان التربوي والذي شاركت فيه هيآت مسؤولة رسميا عن توجيه النشء المنحرف كما شاركت فيه هيآت تربوية حرة تسعى من ورائه الى ابراز خطر الانحراف ووضع الخطط السليمة للعلاج .

سابعا — العمل على التكثير من هذه الندوات التربوية التي تضم رجال التعليم وعلماء النفس والاجتماع والمسؤولين عن القوانين المتعلقة بالجنح والجرائم والمكلفين بالوعظ الديني وبعض الادباء لتكون الدراسة شاملة ولنستطيع تحديد المشاكل ووضع الحلول لها في اطار العلم والدين والقانون .

ثامنا — ان تنشر النتائج الكفيلة بالتخفيف من الجنح وان تتعاون على تطبيقها وتنفيذها واذاعتها كل الهيآت لا فرق بين المسؤولين الرسميين وغيرهم

واننا على يقين ان هذه المجهودات المتنوعة اذا ادخلناها في عنصر التربية فسنصل بحول الله الى التخلص من اعباء هذه الاضطرابات النفسية المؤدية الى جنوح الاطفال والمراهقين والى اجرام غيرهم من المتخلفين علما واخلاقا وسننقل بفضل هذه العناية كثير من المخالفات والجرائم وسنساعد على وضع اسس متينة لمجتمع فاضل آمن وسنعود لاطفالنا في المستقبل ما نرجوه لهم من الاستقرار والرخاء وسلامة الاخلاق .

فاس : محمد بن عبد العزيز الدباغ

إعداد الشباب

للأستاذ محمد حمادي العزين .

كل انسان يكتب الله لـه ان يعيش عمرا مديدا يعرفه الشباب حق المعرفه ، ويقدر قيمته ، ويسعد بالاستمتاع به ، ويتعم بالسعي والكد والجد والتفاني في العمل والانتاج في سنوات ليقيم أسسا متينة لهنائه واطمئنانه وراحته .

والانسان الذى يعيش شبابه قويا ونشيطا ومتفائلا ومرحا يحظى بحياة هانئة ، وصحة موفورة ، وحيوية ايجابية ، وهو اذا عرف كيف يحافظ على شباب روحه وفكره و « جسمه » لا يشيخ ابدا بل يظل دائما شابا ، وان اصاب جسمه ما اصاب من تطورات وضعف ووهن ، وبيوت وكأنه ما يزال في رشد الشباب ، متمتعا بكامل وعيه ، وصفاء ذهن ، وروعة هدوئه .

اما من يستهلك شبابه استهلاكا سيئا فانه غالبا ما يعيش كهولة وشيخوخة تعيستين كئيبتين .

ان الشباب هو الامل ، وهو العمل ، وهو الدعامة الاساسية لوصل مجهودات الحياة الانسانية في كل حاضر بكل ماض وبكل مستقبل كي يستمر وجود النوع الانساني ، وتترابط حلقات تراثاته الحضارية والثقافية ، وتتلاحم تلاحم الاجيال والعصور .

لهذا كان لا بد أن يحظى الشباب باهتمام زائد ، ورعاية دائمة من طرف كل المسؤولين عن اعداد الشبان للحياة اعدادا علميا فلسفيا وروحيا وتنظيميا ورياضيا .

ويعنى اعداد الشباب للحياة تهيئة ورعاية الشبان ليعيشوا في كل عقد من عقود أعمارهم شبانا راشدين ، واعين ، اقوياء ، نشيطين ، عاملين مستعدين لتحمل أعباء المسؤوليات والمهام في كل حين ، وخاصة عندما يكون الوطن في أوضاع حرجة تحفه الاخطار وينادونهم لردها ودحر المعتدين!

ومن غير الشبان يستطيع أن يرد الاخطار عن الوطن ؟ !

ويشهد التاريخ ، وبخاصة في القرن العشرين، ان المواطنين الذين دافعوا عن الوطن وناضلوا من اجل حريته واستقلاله وسيادته كانوا شبانا في ريعان الشباب وعنفوانه .

ان تاريخنا المعاصر الذى سجل صفحات ناصعة البياض لنضالنا في هذا القرن العشرين — الذى مازال لم يتته بعد — يؤكد لنا اهمية الاعتناء باعداد الشبان ليكون كل شاب مستعدا لتحمل المسؤوليات الوطنية بالاضافة الى اعباء حياته اليومية والتزاماتها .

وما دام هذا الاعداد يستهدف تحمل المهام والمسؤوليات الوطنية، فانه يجب أن يجعل من كل

شاب مواطنا وطنيا روحا وفكرا وقلبا ليتصف بكليته على اداء واجبه الوطني .

اجل ان « الوطنية » شرط اصلي في برامج ومناهج اعداد الشبان لتحمل المسؤوليات اثناء قيامهم بتقديم الخدمات للوطن .

ان اداء الواجب الوطني ينجز بروعة عندما يكون الحافز الذاتي والجماعي هو « الوطنية » والالتزام بها .

والاعداد الجيد للشبان يجب ان يتوخى توعيتهم ليتمسكوا « بالوطنية » مهما كانت مغريات الايديولوجيات التي يقرأونها او قد يمكن ان يتأثروا بها .

— ولماذا ؟

— لان التمسك « بالوطنية » يعني الاعتزاز باصالة « الوطن » والتشبث بشخصيته ، والعمل الدائم الدائب على الحفاظ على كيانه ووحدة تراثه ، اما التأثر بالايديولوجيات الاجنبية فانه قد يعني التورط التدريجي في الانجراف الى التبعية السياسية التي تبدأ اول ما تبدأ اعجابا ثم تبعية فكرية ، وهو الامر الذي يستوجب الحذر والحيطة .

وخليق بالفكر الوطني ان يبدع ! وان يبتكر ! وان يخترع ! وان يأتي بالافكار والآراء الجديدة ، والاجتهادات العصرية الحديثة ! لا ان يقلد « كالقرد » او « كالببغاء » فكرا آخر — مهما بلغت عظمته ، مع احترامي لكل فكر وحريته — لمجرد التقليد ، او لمجرد الاعجاب ، او لمجرد الانجذاب مع « الموضة » الوقتية العابرة .

ان الواجب الوطني يقضي علينا ان نلقن الشبان ونحن نعدهم ان يجتهدوا ليأتوا بمذاهب جديدة ، ونظريات واختراعات وابتكارات حديثة مثل غيرهم من اصحاب المذاهب والنظريات والاختراعات والابتكارات السابقين والحاضرين والآتين لانهم بشر واناس مثلهم لا يمتازون عنهم في اي شيء ما عدا بالاجتهاد !

والشبان هم المفكرون الوطنيون الذين يجب على الكبار اعدادهم في اطار مفاهيم الفكر الوطني وسجاياته ، وفي احضان الاصالة الحضارية الوطنية العريقة لينشأوا احرارا مستقلين فكريا محصنين ضد التأثر بمغريات الايديولوجيات الاجنبية البراقة ، الطامعة في ايجاد موطىء قدم لاستغلال وطننا ، واجتياب الوقوع في حبائلها مهما بلغت درجات اغرائها .

وعليه ، فان فكرنا الوطني الحر المستقل الاصيل هو حصننا الروحية والمعنوية التي نسهم بها في اغناء التراثات الحضارية الانسانية العالمية .

وبدونه — اي بدون فكرنا الوطني الحر المستقل الاصيل — تصبح مساهمتنا صفرا ولا شيء بالنسبة لمساهمات غيرنا .

ولكي نبقى ونستمر كما كنا حقيقة في الحياة وفي الوجود الانساني ، ولئلا نضحى مجرد صفر ولا شيء ، او مجرد تابعين وامعات فيهما يجب ان نختار دائما فكرنا الوطني الحر المستقل الاصيل ونتمسك به !

واذا كان فكرنا الوطني الحر المستقل الاصيل قد كون في العهود التي خلت حضارة امتدت اشعاعات اشراقها الى جميع انحاء كوكبنا المعمور ، وبخاصة تلك التي كانت تغط في سبات الجهل والجاهلية ولم يكن لها آنذاك اي قسط من التمدن والعمران والعرفان فانه مدعو في كل آن من كل يوم من ايام حاضرنا الى ان ينشيء حضارة وطنية اصيلة عصرية حديثة جديرة بطموحه ، وعبقريته .

لقد اقام الاسلاف حضارتنا الفريدة في ظروف حياتية اذا قيست بظروف حياتنا الحاضرة يمكن ان توصف بانها ظروف « تقشفية » فهل يصعب على الاخلاف اقامة دعائم حضارة وطنية اصيلة عصرية حديثة في ظروف حياتية تزداد سهولة ويسرا ورفاهية كل يوم ؟ !

والاجابة على هذا السؤال تخص الشبان الكبار والشبان الناشئين الصغار ، واعتقد انها يجب ان تكون ايجابية !

ان فكرنا الوطني الحر المستقل الاصيل ينبغي ان يكون وسيلة غائية لرسالتنا الحضارية التمدينية العمرانية ، الروحية والاجتماعية في حاضرنا

وما دمنا نحيا الحياة ، ونوجد في الوجود الانساني فلا بد ان تكون لنا رسالتنا الحضارية التمدينية العمرانية الروحية والاجتماعية الوطنية الخاصة بنا والمنبثقة من فكرتنا الوطني الحر المستقل الاصيل الذي هو الوسيلة الفائية لتربية شبابنا واعدادهم للحياة ، ومواجهة صروف الايام ، وتحمل المسؤوليات والمهام .

وان رسالتنا الحضارية التمدينية العمرانية ، الروحية والاجتماعية ، ينبغي ان تشمل كل ركن من اركان وطننا ليتم بها كل انسان فيه .

ولهذا فان الشبان مدعون الى بذل الجهود المتظافرة ليستوعبوا اسباب الاعداد التي تقدم لهم ليكونوا قادرين على توصيل الحضارة والتمدين الى كل انسان وكل ركن ومكان في التراب الوطني .

وبدون الالتزام بهذه الرسالة فان حياة الشبان تكون مجرد جري فسال في متاهات السراب !

وخلاصة القول ؛ يجب ان يكون شبابنا نداً لجميع شباب العالم ، وان يقف على قدميه عملاقا في كوكبنا الذي لا يبقى ويستمر فيه الا العمالقة الاقوياء !

« كونوا على يقين بأنكم ستجدون دائما في ملككم وفي خدمكم الحسن الثاني ذلك الشاب الذي عرفتموه منذ نعومة اظفاره ، في قسمه ، وعرفتموه في الشارع ، وفي طائرة المنفى ، وفي موكب الرجوع من المنفى ، عرفتموه دائما سائرا وراء نهج ابيه ، وملكا دستوريا وجاديا على راس جنوده ، وستجدون في الحسن الثاني وبفضل معونة الله وبالتفافكم حوله ذلك الرجل الذي ابى على نفسه ان يخون الامانة ، وان يكون دائما عند حسن ظنكم وقبل كل شيء عند حسن ظن روح والده الذي لم يدخر رحمه الله وقتا لا من ليله ولا من نهاره في سبيل تكوينه حتى يكون الخادم الوفي للشعب الامثل ..

اللهم اني لا اسالك نفسي ولا مريم ابنتي وانما اسالك شعبي » .

جلالة الملك الحسن الثاني

كتب الزواجر والعظات

للوزير لسان الدين ابن الخطيب (1)

تحقيق : دكتور محمد كمال شبانة

سبق أن بدأت بالتعرض لهذه الرسائل من « الزواجر والعظات » بالتحقيق والدراسة ، وذلك بنشر الرسالة الاولى منها على صفحات مجلة « الثقافة المغربية » بالعدد الثالث منها ، وكانت تلك الرسالة من ابن الخطيب الى معاصره وصديقه الشيخ ابن مرزوق ، وهي الكتاب الوحيد الذي أفصح فيه المؤلف عمن بعث به اليه ، وبقيت الرسائل الثلاث تحت التحقيق والدراسة منذ ذلك الحين ، حتى أشار بعض الزملاء الافاضل بالمضي في استكمالها ، فاستجبت رغبة في أن يجد طلاب المعرفة ما يشوقهم نحو هذا اللون من التراث الاندلسي ، لا سيما من كاتب بارز مثل ابن الخطيب .

ولما كنت قد قدمت للرسالة الاولى آنفة الذكر بما اقتضاه الحال ، من بسط لفن أدب الحكمة ، وما يستتبع ذلك من تزهيد في تصرف الدنيا ، وترغيب في الحياة الباقية ، وما كان من سوق لهذا في الادب على مر العصور الاسلامية ... لذلك لا أرى مدعاة لتعود مرة أخرى لهذا التقديم ، لا سيما وأن فحوى الرسائل الثلاث الباقية كاف للتعريف بقصد المؤلف ، وما نهجه من سبيل تبيانا لكل ما تنطوي عليه حكمة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وابتغاء وجه الحق في كل ما يصدر عن المؤمن من قول أو فعل .

فها نحن نقدم اليوم على صفحات « دعوة الحق » الرسالة الثانية من « كتب الزواجر والعظات » لابن الخطيب ، تلك التي ضمنها مؤلفه الكبير الادبي التاريخي « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » وجاءت خاتمة له كما سيتضح من « الرسالة الاخيرة » التي سننشرها مع التتابع بمشيئة الله تعالى .

وجدير بالذكر أن « كتب الزواجر والعظات » هذه تنشر لاول مرة ، وقد اعتمدت في التحقيق على النسخة الكتانية المخطوطة (331 ك) بالخزانة العامة بالرباط للكتاب نفسه « الريحانة » .

وها هي الرسالة الثانية نصا :

« ومن ذلك (1) ما صدر عني في هذا الغرض بما نصه ...

الحمد لله الولي الحميد ، المبدي المعيد ، البعيد في قربه من البعيد ، القريب في بعده ، فهو أقرب من حبل الوريد (142.ب) محيي القلوب للعارفين بتحيات حياة التوحيد ، ومفني نفوس الزاهدين بكنوز احتقار الافتقار الى الفرض الزهيد ، ومخلص خواطر المتفنين من سجون حجون التقييد الى فسيح التجريد . نحمده وله الحمد المنتظمة درره في سلوك الدوام وسموط التأييد — حمد من نزه أحكام وحدانيته وأعلام فردانيته عن مرابط التقليد ، في مخابط الطبع البليد . ونشكره شكر من افتتح بشكره أبواب المزيد . ونشهد أنه الله الذي لا اله الا هو شهادة نتخطى بها معالم الخلق الى حضرة الحق على كنز التفريد . ونشهد أن محمداً عبده ورسوله قلادة الجيد المجيد ، وهلال العيد ، وفذلكة الحساب وبيت القصيد ، المخصوص بمنثور الادلال ، واقطاع الكمال ، ما بين مقام المراد ومقام المريد ، الذي جعله السبب الاوصل في نجاة الناجي وسعادة السعيد ، وخاطب الخلائق على لسانه الصادق بحجتي الوعد (143.أ) والوعيد . فكان مما أوحى به اليه ، وأنزل الملك به عليه من الذكر الحميد ، ليأخذ بالحجز والاطواق من العذاب الشديد ؛ « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ، ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد (3) » .

صلى الله عليه وعلى آله صلاة تقوم ببعض حقه الاكيد ، وتسري الى تربته الزكية من قلوب المواجد الحية على المزيد . فعدت لتذكيري ولو كنت مبصرا لذكرت نفسي ، فمن أحوج للذكر اذا لم يكن مني لنفسي ذاكرا . فيا ليت شعري كيف يفعل في أي وعظ بعد موعظة الله يا أحبابنا يسمع وفي ما ذا وقد تبين الرشد من الغي يطمع ، يا من يعطي ويمنع ، ان لم تتم (143.ب) الصنيعة فماذا تصنع . اجمعنا بقلوبنا يا من يفرق الجمع ، ولين حديدهما بنار خشيتك فقد استعاذ نبيك من قلب لا يخشع ، ومن عين لا تدمع .

اعلموا — رحمكم الله — أن الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها من الاقوال والاحوال ، ومن الجماد والحيوان ، والسنة الملوان ، فان الحق نور لا يضره أن يصدر من الجاهل ، ولا يقصر بمحموله احتقار الحامل ، وانتم تدرون أنكم في أطوار سفر لا تستقر لها دون النهاية رحلة ، ولا تأتي معها اقامة ولا مهلة ، من الاصلاب الى الارحام ، الى الوجود ، الى القبور ، الى النشور ، الى احدى داري البقاء ، أفي الله شك ؟ ! فلو ابصرتم مثاقيل في البريد يمشي ويعرش ، ويمهد ويفرش ، الم تكونوا تضحكون من جهله ، وتعجبون من ركالة عقله ، ووالله ما أولادكم وشواغلكم عن الله التي فيها اجتهادكم الا بناء سفر في سفر ، واعراس في ليلة نفر ، كأنكم بها مطرحة تعثر فيها المواشي ، وتتبرز العيون من حقيرها (144.أ) المتلاشي .

« انما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم (4) » . ما بعد الثقيل الا الرحيل ، ولا بعد الرحيل الا المنزل الكريه أو المنزل الوبيل ، وانكم تستقبلون أهوالا ، سكرات الموت بواكر حسابها ، وعتب أبوابها ، فلو كشف الغطاء منا عن ذرة لذهلت العقول وطاشت الاحلام ، وما كل حقيقة يشرحها الكلام . « يا أيها الناس ان وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور (5) » . أفلا أعددتم لهذه الورطة حيلة ، أو اظهرتم للاهتمام بها مخيلة ، تعويلا على عفوه ، — مع المقاطعة — وهو القائل « ان عذابي لشديد (6) » . أأمنا من مكره

---

(1) أي مما تضمنه كتابه « ربحانة الكتاب » .
(2) الغرض : هو بات « الزواجر والعظات » .
(3) سورة ق ، آية : 16 — 20 .
(4) التغابن ، آية : 15 .
(5) فاطر ، آية : 5 .
(6) ابراهيم ، آية : 7 .

ـ مع المنابذة ـ « ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون (7) » . اطمعا في رحمته ـ مع المخالفة ـ وهو يقول : « سأكتبها للذين يتقون (8) » . أو مشاقة ومعاندة « ومن يشاقق الله فان الله شديد العقاب (9) » . اشكا فيه ؟ فتعالوا نعد الحساب ، ونقرب العقد ، ونتصف بدعوة الاسلام أو غيرها من اليوم (144،ب) تفقدوا عقد العقائد عند التساهل بالوعيد ، فالعامي يدهن الاصبع الى جهة ، والعارف يضمد لها مبدأ العصب .

هكذا ، هكذا يكون التعامي !! هكذا . هكذا يكون الغرور !! « يا حسرة على العباد ، ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون (10) » . وما هذا عما بدا ورسولكم الحريص عليكم الرؤوف الرحيم يقول لكم « الكيس من دان نفسه هواها ، وتمنى على الله الاماني (11) » ، فعلام هذا التغافل ، وبماذا يتأول ؟ اتقوا الله في نفوسكم ، وانصحوها ، واغتنموا فرص الحياة وارجحوها « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ، وان كنت لمن الساخرين(12)» وتستغيث اخرى « هل الى مرد من سبيل » !!! فرحم الله من نظر لنفسه قبل غروب شمسه ، وقدم لغده من امسه ، وعلم أن الحياة تجر الى الموت ، والغفلة (145،ا) تقود الى الفوت ، والصحة مركب الالم ، والشبيبة سفينة تقطع الى ساحل الهرم . وان شاء ، قال بعد الخطبة ..

اخواني ، ما هذا التواني ، والكف بالوجود الفاني عن الدائم الثاني ، والدهر يقطع بالانسي ، وهادم اللذات قد شرع في نقض المباني . الا معتبر من معالم هذه المعاني ، الا اذن تصغي الى مسمعه ، احدثها بالصدق ما صنع الموت . مددت لكم صوتي بأواه حسرة على ما بدا منكم فلم يسمع الصوت ، هو الغروب الآتي على كل دمنة ، فتوبوا سراعا قبل ان يقع الفوت . يا كلفا بما لا يدوم ، يا مفتونا بغرور القدوم ، يا غريقا في بحار الالم ما عساك تقوم ، يا مشتغلا ببنيات الطريق قد ظهر المناخ وقرب الموجود المعدوم ، يا صريع جدار الاجل المهدوم ، يا معلل الطعام والشراب ولمع السراب ، لا بد ان يهجر المشروب ويترك المطعوم . دخل سارق الاجل بيت عمرك فسلب النشاط وانت تنظر ، وطوى البساط وانت تكذب ، واقتلع جواهر (145،ب) الجوارح وقد وقع بك البيت ، ولم يبق الا ان يجعل الوسادة على انفك ، وتقول ..

لو خفف الوجد عني
دموع طالبه ثاري

« كلا ، انها كلمة هو قائلها (13) » ، كيف التراخي والفوت مع الانفاس يرتقب وينتظر !! كيف الامان وهاجم الموت لا يبقي ولا يذر ! كيف الركون الى الطمع الفاضح وقد صح الخبر .. من فكر في كرب الخمار تنغصت عنده لذة النبيذ ، من احس بلغط الحرس فوق جداره لم يصغ بسمعه الى نغمة العود ، من تيقن بذل العزلة هان عنده عز الولاية !!

ما قام خيرك يا زمان بشره
اولى لنا ما قل منك وما كفى

أوحى الله الى موسى ـ صلوات الله عليه ـ ان ضع يدك على متن ثور فبعدد ما حازته من شعرة تعيش سنين ، فقال : يا رب ، وبعد ذلك ؟ قال : وتموت .. فقال : يا رب ، فالآن ! !

راى الامر يفضي الى آخر ، فصير آخره اولا .

اذا شعرت نفسك بالميل الى شيء فاعرض عليها قصة (146،ا) « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة (14)» ، فالمفروح هو المحزون عليه !! أين الاحباب مروا ، فيا ليتني شعري ان استقروا ، واستكانوا ، وله اضطروا ، واستغاثوا

---

(7) الاعراف ، آية 99 .
(8) الاعراف ، آية : 156 .
(9) الانفال ، آية : 13 .
(10) يس : آية : 30 .
(11) رواه الشيخان .
(12) الزمر ، آية : 56 .
(13) المؤمنون ، آية : 100 .
(14) الانفال ، آية : 42 .

بأولياتهم فقروا ، ليتهم اذ لم ينفعوا ما ضـــروا ، فالمنازل من بعدهم خالية خاوية ، والعروس ذابلة ذاوية ، والعظام من بعد التفاضل متشابهة متساوية ، والمساكن تندب في اطلالها الذئاب العاوية !!

صحت بالربع فلم يستجيبوا
ليت شعري اين يمضي الغريب
وبجنبه الدار قبر جديد
منه يستقي المكان الجديب
فاض فيه قلبي عند التماحي
قلت : هذا قبر الحبيـــب
لا تسل عن رجعتي كيف كانت
ان يوم البين يوم عصيب
باقتراب الموت عللت نفسي
بعد "لفت" ، وكل آت قريب

أين المعمر الخالد ، أين الولد ، اين الوالد ، اين الطارف ، اين التالد ، أين المجادل ، اين المجادل !!!

« هل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزا (15) » ، وجوه علاهـن الثرى ، وصحايف (146.ب) تنض ، واعمال على الله تعرض . بحث الزهاد والعباد والعارفون والاوتاد ، والانبياء الذين هدى بهم العباد ، عن سبب الشقاء الذي لا سعادة بعده ، فلم يجدوا الا البعد عن الله ، وسبب حب الدنيا « لن تجتمع امتي على ضلالة (16) » .

هجرت حياتي من اجل ليلى
فما لي بعد ليلى من حبيب
وماذا ارتجي من حب ليلى
تسحرني بالقطيعة عن قريب

وقالوا ما اورد النفس الموارد ، وفتح عليها باب الحتف الا الامل ، كلما قومتها مثاقف الحدود قبح لها اركان الرخص ، كلما عقدت صوم العزيمة احداها طرف الغرور في اطباق . متى ؟ واذن . . ولكن . . ورب !! فافرط القلب في تقلبها حتى افطر .

ما اوبق الانفس الا الامل
، وهو غرور ما عليه عمل

يقرض منه الشخص وهما ماله
حال ولا ماض ولا مستقبل

ما فوق وجه الارض نفس حية
الا قد انقض عليها الاجل

لو انهم من غيرها قد كونوا
لامتلأ السهل بهم والجبل

ماثم الا لغم قد هيئ للمـ
ـوت وهو الاكل المستعجل

(147.أ) والوعد حق والورى في غفلة
قد خدعوا بعاجل وخالوا

اين ذوو الراحات راحت حسرة
اذ جنبوا الى الثرى وانتقلوا

لم تدفع الاحباب عنهم غير ان
بكوا على فراقهم واعولوا

الله في نفسك اولى من ادخـ
ـرت نصحا وعتابا يقبل

لا تتركنها في عمى وحيرة
عن هول ما بين يديها يعقل

حقر لها الفاني وحاول تهـ
ـدها فيه ، وشوقها لما يستقبل

وقد الى الله بها مضطرة
حتى ترى السير عليها يسهل

هذا الفناء والبقاء بعـده
والله ـ عن حكمته ـ لا يسئل

يا قرة العين ويا حسرتها يـ
ـوم يوفى الناس ما قد عملوا

يا طرداء الخالفة ، انكم مدركون ، فاستبقوا باب التوبة ، فان رب تلك الدار يجير ولا يجار عليه ، « فاذا امنتم فاذكروا الله كما هداكم (17) » ، يا طفيلة الهمة ، مسوا انفسكم في زمر التائبين ، وقد دعوا الى دعوة الحبيب ، فان لم يكن اكل فلا اقل من طيب الوليمة . قال بعض العارفين : اذا عقد التائبون الصلح مع الله انتشرت رعايا الطاعة في (147.ب)

---

(15) مريم ، آية : 98 .
(16) رواه الشيخان .
(17) البقرة ، آية : 198 .

عمالة الاعمال » واشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب (18) » .

معاني المجلس ـ والحمد لله ـ نسيم سحر ، اذا انتشقه مخمور الغفلة افاق ، سقوط هذا الوعظ ينقض ان شاء الله ـ زكمة البطالة ، ان الذي انزل الداء انزل الدواء ، اكسير هذا العتاب يقلب بحكمة جابر القلوب المنكسرة عمن كان له قلب . « انما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله (19)» .

(18) الزمر ، آية : 69 .
(19) الانعام ، آية : 36 .

، الهي يا لها من حيرة يضل فيها ! الا ان عديت الدليل ، واجلت من غمرة ، وكيف ـ الا باعانتك ـ السبيل ، تقوس صدأ ـ على مر الازمان منها ـ الصقيل ، وثبا يجنوبها عن الحق المقبل ، امضها القول الثقيل ، وعثرات لا يقيلها الا انت يا مقيل العثار يا مقيل .. انت حسبنا ، ونعم الوكيل .

(يتبع)

د. محمد كمال شبانة

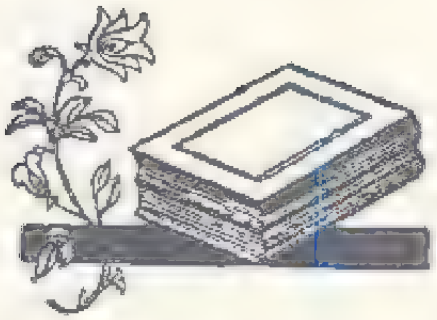

الدولة السعدية

في كتاب

نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي

للأستاذ أحمد توكي

■ من المؤرخين الذين أرخوا للدولة السعدية أبو فارس عبد العزيز الفشتالي في كتابه : « مناهل الصفا في مآثر أهل الشرفا » ومحمد الصغير اليفراني في كتابه « نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي » أما مناهل الصفا فقد طبع ونشر منذ سنوات وقسام بدراسته وتحقيقه الدكتور عبد الكريم كريم وطبعته وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة وهو يقع في 307 صفحة من الحجم الكبير عدا الفهارس الملحقة به .

وأما نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي فقد طبع مرتين .

— الطبعة الاولى تقع في جزئين ، طبعت في انجي بفرنسا سنة 1888 اي منذ حوالي تسعين سنة ضمن « منشورات معهد اللغات الشرقية الحية » صحح عباراته التاريخية السيد / هوداس أستاذ اللغة العربية بباريس . وألحق بالنص العربي ترجمة بالفرنسية للكتاب ، فجاء « نزهة الحادي » في جزئين .

— **أما الطبعة الثانية — وهي التي بين ايدينا —** فتقع في 315 صفحة من القطع المتوسط ، قام بطبعها السيد عبد القادر المكناسي ، وقد بذل وانفق مالا من عنده لاعادة طبع نزهة الحادي عونا للمؤرخين خاصة في هذه الفترة الشائكة التي كثر فيها الرجوع الى كتب التراث واشتدت الحاجة فيها الى مراجعة التاريخ وتصحيحه وتصويبه . ولا ينبغي أن تفوتنا اشارة تقدير وتنويه الى السيد / عبد القادر المكناسي الذي — كما يقول الدكتور ممدوح حقي في تقديمه للكتاب : مارس مهنة التضحية في معارك النشر قرابة نصف قرن ، يخسر فلا يبالي الخسارة ، ويربح فلا يغره الربح ، ويعامل هذا بذلك فيتقبله بايمان المخلص لله وللثقافة ويعيش عاملا راضيا بما قسم الله له . لا يضيق ولا يتبرم » . ونحن نشاطره هذا الراي ونشاركه هذا التقدير على شجاعة صاحب مكتبة الطالب في الاقدام على اعادة نشر هذا الكتاب وهو ليس في حاجه الى التشجيع في خدمه العلم .

ونزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي من أهم وأوفى المصادر والمراجع التاريخية الوثيقة عن الدولة السعدية وسير وأخبار ملوكها الذين حكموا المغرب من سنة 915 الى 1069 هـ . — 1511 — 1670 م . وهي كما نرى الاسرة التي حكمت المغرب لفترة لا تزيد عن مائة وتسعة وخمسين سنة ، يمكن ان نعتبرها في الواقع تمهيدا لحكم الاسرة العلوية الشريفة . واذا استثنينا فترة حكم احمد المنصور الملقب بالذهبي لم يتبق لنا من عصر هذه الدولة الا مجموعة من الاضطرابات والتناحر على الحكم والسلطان ومحاولة الاستئثار بهما الى درجة طلب أحد ملوكها النجدة من البرتغال لمقاتلة عمه . وقد عصف وادي المخازن ومعركته الشهيرة بالطالب والمطلوب كما سيأتي ذكر ذلك في عرضنا لصورة المغرب السياسية والعسكرية كما يقدمها لنا مؤلف كتاب نزهة الحادي .

يمهد محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الافراني النجار المراكشي الرجار لكتابه بمقدمة عن « علم التاريخ » ومكانته وفوائده ، ثم يقول : واني لم ازل منذ علقت تميمة التمييز في عضدي وجعلت سوار الطلب في زندي ، متشوفا الى اخبار الدولة السعدية ، وسائلا : « هل استنشق احد نفحات اخبارها الوردية . . » الى أن يقول : « وقد كنت بدالي ان الم بدولة بني وطاس ، واواخر بني مرين ، بما يكون ذيلا لروض القرطاس ، وروضة النسرين ، غير انت الدولة السعدية عناية أهل زماننا بها اكثر ، والاقتصار عليها لا يكون بها تاريخ الملك ابتر ، وسميت هذا الموضوع الذي حديثه حسن صحيح غير موضوع ، نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي ، وهذه الدولة السعدية وان كان ابتداؤها عام ستة عشر من القرن العاشر ، لكن انما ظهرت واتسعت ايالتها في آخر العاشر واول الحادي ، فلذلك ادرجناها في الحادي وما غاب الشيء فهو له في الحكم محادي » .

الى أن يقول : « واعلم اني الفت هذا التصنيف ، من عدة كتب تزري بزهور الروض المنيف ، وسوف اعين لك في الاخر اسماءهم ، وانصب مدارج الاسالة لمن اراد أن يرقى سماءهم » . ولكننا لا نعثر في آخر الفهرسة على اسماء الكتب التي استعان بها الافراني في تصنيفه ، ومما ورد في غلاف الطبعة : صحح عباراته التاريخية السيد هوداس ، ولا ندري ما نوع هذا التصحيح ، وهل تصرف السيد هوداس في النص الاصلي تصرفا اسقط فيه مصادر النص كما اشار الى ذلك المؤلف نفسه . ونضيف دهشتنا من هذه المفارقات وهذه التناقضات الى التساؤل الذي طرحه الدكتور ممدوح حقي في المقدمة حين قال : « على ان الامر الجلاب للنظر أن المؤلف مغربي والناشر فرنسي والمصحح للعبارات التاريخية فيه فرنسي كذلك . وقد اشار الى ذلك في صدر الكتاب ، فما هو مدى هذا التصحيح التاريخي يا ترى ؟ » .

ثم يخلص المؤلف بعد تقديمه الى صميم كتابه وموضوع تأليفه فيبدأه بذكر الخبر عن نسب السعديين الشريف وما قيل من تنكير وتعريف وعلى هذا النسق يتسع الافراني خيوط تاريخه للدولة السعدية ، متتبعا السياق التاريخي للاحداث ، مستشهدا باقوال الادباء والمؤرخين والكتاب والفقهاء والشعراء في حادثة من حوادث العصر السعدي .

لقد تفرد تاريخ السعديين بعدة احداث تاريخية هامة ، غير ان ثلاثة منها تبرز لنا ملامحها بساطة لامعة :

1 — الانتصار البين على ملسك البرتقال دون سباستيان وجيشه في معركة وادي المخازن ومن تواطأ معه ومهد له الطريق الى ذلك سنة 1578 .

2 — ظهور السلطان احمد المنصور السعدي الملقب بالذهبي ، وكان دوره في عقد هذه الدولة الشريفة .

3 — الفتوح الواسعة التي قام بها السلطان احمد المنصور مثل فتحه السودان الغربي — غانا وتمبكتو — ودخول جيشه ظافرا مدينة تمبكتو .

وهي احداث لا يمكن عزلها عن بعضها ، بل انها مشدودة بعضها الى البعض ، كالسلسلة الذهبية ذات الحلقات لا يمكن كسر حلقة منها دون ان تتاثر باقي الحلقات بهذا الكسر .

حين يبدأ المؤلف كتابه بالتعريف بنسب السعديين يعزو نسبهم الشريف الى خاتم الخلفاء الراشدين علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه وفاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، واتفق على هذا النسب عدد من الاعلام النسابين . وكان الاشراف السعديون يقيمون بدرعة ، نشأ منهم أبو عبد الله محمد القائم بامر الله ، وكانت نشأته نشأة عفاف وصلاح ، حج الى بيت الله الحرام وكان مجاب الدعوة ، لقي جماعة من العلماء الاعلام والصلحاء العظام في وفادته على الحرمين الشريفين ، ثم رجع الى المغرب الذي كان يحكمه آنذاك الوطاسيون الذين تنازعوا في هذه الفترة على السلطان والملك في الوقت الذي كانت هجومات البرتغاليين والاسبان لا تفتر على ثغور المغرب على المتوسط والاطلسي مثل سبتة وطنجة وغيرهما . فقام أبو عبد الله القائم بامر الله على راس جند من انصاره فانتصر على البرتغاليين واجدادهم عن اصيلا والقصر وازمور وغيرها من الثغور ، وكان ذلك عونا له ومهدا مهادا للقضاء على الوطاسيين . وبذلك اقام الملك السعدي بالمغرب الذي كان بداية لمجد هذه الدولة به .

وخلف أبا عبد الله أبو العباس احمد المدعو بالاعرج الذي صرف همته الى تمهيد البلاد واقتناء الاجناد وتعبئة الجنود الى الثغور ، فاستكثر من شن الغارات على لغزاة الطامعين من الاسبان

والبرتغاليين ، فطردهم من عدة نواحي بالمغرب ؛ بيد ان أسباب الملك وعوامله لم تتهيأ كاملة لتأخذ طريقها القويم الى الاستقرار ، فقد تقاتل الاعرج مع اخيه محمد الشيخ ، نتيجة الدسائس والوشاية ، وكان محمد الشيخ : ثاقب الذهن ، نافذ البصيرة ، مصيب الرأي ، حازما في اموره ، فسجن الاعرج بمراكش وتعرض الاتراك لمحمد الشيخ فقتلوه بالسوس الاقصى ، فبايع الناس زيدان بن ابي العباس بسجلماسة ، الا انه لم يمارس الملك والحكم ، فخلفه ابو عبد الله محمد الشيخ ابن ابي عبد الله القائم بامر الله الذي : « نشأ في عفاف وصيانة ، وعني بالعلم في صغره ، وتعلق باهله ، فاخذ عن جماعة من الشيوخ وبلغ في العلم درجة الرسوخ حتى كان يخالف القضاة في الاحكام ويرد عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه ، وكان ممتع المجالسة والمذاكرة ، نقي الشائبة ، عظيم الهيبة ، وكثيرا ما كان ينشد من الشعر هذا البيت :

الناس كالناس والايام واحدة

والدهر كالدهر والدنيا لمن غلبا

وكان حافظا للقرآن ويحفظ ديوان المتنبي وصحيح البخاري عارفا بالتفسير وكانت له آراء صائبة في الحكم والملك » .

وبع بمراكش سنة 951 هـ ، فعبأ جيشه وجند جنده فتوجه به الى تادلا ووادي تول ودخل مكناسة وطلب فاس فتم له ذلك ، ومنها اتجه الى تلمسان فاجلى عنها الاتراك وحررها منهم ، فانتشر حكمه في اعمالها ونواحيها الى وادي شلف ، ثم عاد الى مدينة فاس وقد اتسعت له مملكة المغرب ودانت البلاد كلها . فانصرف بعدئذ الى ترتيب ديوان الملك وتحسين شارة السلطنة وضبط امور الخدم والعبيد الى ان جاءه ابو حسون فاخرجه من فاس وهو من المرينيين .

قال ابن القاضي يصف ابا عبد الله محمد الشيخ الملقب بالمهدي : كان رحمه الله ماضي العزيمة ، قوي الشكيمة ، عظيم الهيبة ، كثير الحركة ، ذا همة عالية واحيا مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة ، وشهامة غالية ، حتى قعد قواعد الملك واسس مبانيه وكان ذا سعد وبخت عظيم الرغبة في الجهاد » . وقد قتل غدرا من طرف الاتراك لما بلغهم ان ابا عبد الله محمد الشيخ : تاقت همته العلية الى بلاد المشرق فكان يقول : لابد لي ان اذهب الى مصر واخرج منها الاتراك من احجارهم وانازلهم من ديارهم » .

وخلفه ابو محمد مولانا عبد الله ابن السلطان ابي عبد الله مولانا محمد الشيخ وكان : ادعج العينين ، مستدير الوجه ، متسعه ، أسيل الخدين ، متشرف الوجه ، ربعة للقصر » . لقب بالغالب بالله ، بايعه اهل فاس ، وكان ذا سياسة وخبرة بالملك ، لين العريكة ، ولما استبد بالخلافة الان الجانب ، وخفض الجناح وسار سيرة حسنة حتى صلحت الرعية وازدانت الدنيا وانتعش الناس . توفي في رمضان عام 981 هـ وخلفه في الملك ابو عبد الله مولاي محمد الملقب بالمتوكل وعرف عند العامة بالمسلوخ ولم تطل خلافته كثيرا وسبب ذلك انه استنجد بالبرتغاليين على عمه ابي مروان عبد المالك ، واستجاب له البرتغاليون نظير شروط ، وكانت هذه مقدمة لمعركة وادي المخازن وارهاصات لها . ووجد ملك البرتغال دون سباستيان في هذه الاستغاثة فرصة سانحة للانقضاض على المغرب والاستيلاء على ثغوره فيه ، فزحف ملك البرتغال بجيش قدروه بمائة وخمسة وعشرين الف مقاتل ، واستدرجه ابو مروان الى ناحية القصر الكبير ، فامر بهدم جسر وادي المخازن حتى يقطع خط الرجعة على ملك البرتغال وجيشه المتوكل . قال الافراني يصف المعركة : « فالتقت الفئتان وزحف بعضهم الى بعض وحمي الوطيس واسود الجو بنقع الجياد ودخان مدافع البارود واشتد القتال وكثر الطعن واستمر النزال ، فلما قامت الحرب على ساق والتفت الساق بالساق توفي عبد المالك عند الصدمة الاولى منه وكان مريضا في محفته ، فكتم سر وفاته عن الجند والجيوش المناصرة له ، ولم يعلم بوفاته الا حاجبه واخوه المنصور ، ولم يزل كذلك والناس في المناضلة ومداناة القواضب واحتساء كؤوس الحمام الى ان هبت على المسلمين ريح النصر وساعدهم الدهر واثمرت كمايم رماحهم زهور الظفر . فولى المشركون الادبار ودارت عليهم دائرة البوار وحكمت السيوف في رقابهم ففروا ولات حين فرار وقتل الطاغية البرتغالي غريقا في الوادي وقصد النصارى للقنطرة فلم يجدوا لها اثرا ، فكان ذلك من اكبر الاسباب في هلاكهم واعظم الحبايل في اقتصامهم » . وبحث في القتلى فوجد من بينهم المتوكل الذي استصرخ ملك البرتغال ، فذهب الطالب والمطلوب ، وابو عبد الله محمد بن عسكر صاحب « دوحة الناشر » وكان من بطانة المتوكل ، وقد تكلم عنه الناس كثيرا ، ونظم الفقيه العلامة سيدي محمد ابن الامام الشهير سيدي عبد الله الهبطي منظومة اشار فيها الى مسالة ابن عسكر وتواطئه مع المتوكل فقال :

ومنهم الشيخ الذي لا ينكر
محمد اخو الدهاء عسكر

فان يكن اتى بثلب ظاهر
فقلبه من الشكوك طاهر

رايته في النوم ذا بشارة
وهيئة حسنة وشارة

قال المؤلف : وكان انقضاء الجمعين يوم الاثنين منسلخ جمادى الاولى عام سنة وثمانين وتسعمائة » ثم قال : « ولما بلغت الهزيمة الى الطاغية الاعظم بعث الى المنصور بعد استبداده بالملك ورجوعه لفاس . . . يلتمس منه الفداء لمن بقي في يده من الاسارى فقداهم وجمع في ذلك اموالا سنية وذكر بعضهم ان الاسارى الذين وقع فداؤهم لما توجهوا الى بلادهم ووصلوا لملكهم قال لهم الطاغية : لم لم تاخذوا القصر والعرايش وتطاون قبل ان يصل ملكهم اليكم ؟ فقالوا امتنع من ذلك الامير الذي امرته علينا فامر بهم فاحرقوا جميعا . غريبة وفيها مضحكة . ذكر بعضهم ان النصارى تمرهم الله لما وقعت عليهم الكائنة المذكورة وفني من فني منهم راى اساقفتهم قلة الروم وخلاء البلاد فاجروا للعامة فاحشه الزنى ليكثر الناسل ويخلف ما هلك منهم وراوا ذلك من نصرة دينهم وتقويم ملتهم ! ! »

وعقب المعركة بويع احمد المنصور الذي كان خليفة لاخيه عبد المالك على مدينة فاس وما والاها . وكان احمد المنصور كما يصفه المؤلف : طويل القامة ، ممتلىء الخدين ، واسع المنكبين ، تعلوه صفرة رقيقة ، ادعج ، اسود الشعر ، اكحل العينين ، ضيق الفلج ، براق الثنايا ، جميل الوجه ، مليح الصورة ، ظريف الترع ، لطيف الشمايل ، حسن الشكل » . كانت ولادته بفاس سنة 956 هـ . ونشا في عفاف وصيانة . وكان والده المهدي — يقول المؤلف — ينبه على انه واسطة عقد اولاده » .

ويخصص المؤلف محمد الافراني من كتابه النزهة اربد من مائة صفحة للحديث عن سيرة الملك السلطان احمد المنصور الملقب بالذهبي بداه بالكلام عن صفاته واخبار عنه ويختمه بالخبر عن وفاته رحمه الله وكيفيتها . فابوابه وفصوله عن احمد المنصور تعتبر بحق كتابا قائما بذاته ، فقد تتبع حياته وسرد سيرته تتبعا وسردا دقيقين لا يغفل عن حادثة صغيرة او كبيرة من الحوادث التي عاشها احمد المنصور . وقد كانت حياة هذا السلطان العظيم حافلة ومثيرة لا يمكن الاحاطة بها ونحن هنا انما نلم ببعض جوانبها فقط وباختصار شديد :

توجه احمد المنصور الى فاس بعد واقعة وادي المخازن فجددت له البيعة ثم سار الى مراكش ، ولم يخالفه في البيعة الا ابنه محمد الشيخ المامون خليفته بفاس ، فلما علم بذلك المنصور سار اليه بجيشه ، فتراجع المامون وترجل عن فرسه واقبل حافي القدم فعفر وجهه بين يدي والده المنصور ثم قبل رجله والمنصور على فرسه . فرجع المنصور بعد ذلك الى مراكش يستعد ويعد جيوشه للفتوح وضم الاقاليم والولايات الى المملكة واخضاعها الى سلطنته ، فاستولى على بلاد توات وتيكورارين واعمالهما ، فنافت همته لبلاد السودان فهيأ جيشا عظيما فتح به السودان الغربي (سنغاي) . قال النشتالي في مناقب الصفا : تكلمة المنصور نافذه فيما بين بلاد النوبة والبحر المحيط من ناحيه المغرب ، وهذا ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله والله يؤتي ملكه من يشاء . ولما فتح عليه ممالك البلاد السودانية حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويحير الناظرين حتى كان المنصور لا يعطي في الرواتب الا النضار الصافي والدينار الوافي وكانت ببابه كل يوم اربعة عشر مائة مطرقة تضرب الدنانير دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلى وشبه ذلك ولاجل ذلك لقب بالذهبي لفيضان الذهب في زمانه » وانشد النشتالي قصيدته :

جيش الصباح على الدجى مندفق
فبياض ذا لسواد ذلك ممحق

وكانه رايات عسكرك التي
طلعت على السودان بيضا تخفق

لاحت وانتهم ليال كله
كعمره صبح في الدجى يتالق

نشرت لتطوى منه ليلا دامسا
اضحى بسيفك ذي الفقار يمزق

ارسلتهن جوانحا وجوارحا
في كل مخلبها غراب ينعق

وسرت فكان دليلهن اليهم
مشحونة عزمك والسفين الازرق

له من الليالي قد جلا احلاكها
نور الغرة من جبينك يشرق

ومنهـــا :

بشـــر ملوك الارض أنـك فاتـح
بالمشرفـى عنـى الولامـا اغلـق

ويعاصل لـك ذو الفقـار ففـرق
مـا جمعـوه وجامـع ما فرقـوا

دامت طيور السعد وهـى غوادر
بالمشتهـى لـك والمسرة تنطـق

مـا دام ذكر علاك فى صحف الثنـا
أصل الفخار وكـل ذاك ملحـق

ثم شرع المنصور فى بناء قصر البديع بمراكش عام 986 هـ. واتصل العمل فيه الى عام 1002 هـ. وقد كتب فيه وعنه شعراء عديدون خاصة منهم عبد العزيـز الفشتالى وابن الابار قيل فيـه :

كـل قصـر بعـد البديـع يـذم
فيـه طـاب الجنى وفيـه يشـم

منظـر رائـع ومـاء نميـر
وثـرى عطـر وقـصر اشـم

ان مراكشـا بـه قـد تـناهت
مفخـرا فهى للعلـى الدهر تسم

وكتب الفشتالى فيه قصائد عديدة تبرز جماله وتناسقه وروعة بنائه وانساقه فى الاعمدة والاسوار والاحواض وغير ذلك . ونورد هنا مطالع قصائـد الفشتالى فى قصر البديع . ومنها :

سموت وخر الدهر دونى وانحطـا
وأصبح قرص الشمس فى اذنى قرطا

وهى قصيدة فى خمسين بيتـا :

ومنهـــا :

جمـال بدائعـى سحـر العيونـا
ورونق منظـري بهـر الجفونـا

ومـن ذلـك :

للـه بهـو عـز منـه نظيـر
لما زهـى كالروض وهو نظيـر

وقولـــه :

معانـى الحسن تظهر فى المبانـى
ظهـور السحر فى حدق الحسان

وقـولـــه :

باكـر لدي مـن السرور كؤوسها
وارض النديـم أهلـه وشموسـا

ومن الاشعار المنقوشة فيـه :

متـع جفونـك فى بديـع لبـاس
ودر على حسنـى حمى الكـاس

وقال بعض الكتاب مما نقش فى عضادتى باب من ابواب البديـع :

يـا ناظـرا بالله قـف وتأمـل
وانظر الى الحسن البديـع الاكمل

واذا نظـرت الى الحقيقـة فلتقـل
السر فى السكـان لا فى المنـزل

ومن أشعار الشاعر الفشتالى المنقوشة ببعـض الابـــواب :

هذي وفـود السعد نحوي تنتمـى
وطلائع البشرى لبابـى ترتمـى

وسمـت الى عنان عرفك مثل مـا
يسمـو الحجيج الى سقايـة زمزم

حطت بمصراع السعـود بشائـر
لاحت علـى الشرفاء مثل الانجـم

اولـى بصنع ان تقـول ولا تبـل
فبديـع احمـد جنـه المتنعـم

وهى قصائد ومقطعات شعرية كثيرة .

وقد اعتنى المنصور بالاحتفال بالمولد النبـوي الشريف والاعياد الاخرى على السنن السنى ، وانشأ عددا من المآثر والعمائر بمراكش وفاس والعرائش وذكر الفشتالى أن المنصور الف عدة تآليف كلها حسنة تدل على براعة قلمه ومن ذلك كتابه « السياسة » ونص خطبة لـه شهيـرة .

وتوفي المنصور الذهبي بفاس ودفن بها لمرض الم به نتيجة مأثره بوباء اسطنبول وطال . وبوفاته بدأت الدولة السعدية في التفكك ، فتنازع أولاده على الملك والسلطان ووقع بينهم في ذلك تهالك وهلك ادى ذلك كله الى انقسام الدولة وانفراط عقدها ووقوعها في دوامة من الاضطرابات والفتن ، فتهيأ الجو لظهور عدد من رجال الاصلاح والدعوة الى الوحدة ، فبرزت الزاوية الدلائية وظهر محمد العياشي والفقيه ابو سعيد العباس أحمد بن عبد الله المعروف بأبي محلي .

كانت وفاة المنصور الذهبي بداية النهاية للدولة السعدية ، فلم يحسن خلفاؤه من ابنائه استغلال وتسيير شؤون الدولة الوطيدة التي بناها المنصور ودعم اركانها وعزز دعائمها ، ونتج عن ذلك — بالاضافة الى ما ذكرنا — تذمر الناس من الاحوال المضطربة السائدة ، فظهرت الحاجة ملحة الى قائد محنك يلم شمل ما تفرق وتصدع من امور البلاد وشؤونها في الداخل والخارج ، ويجمع شتات ما انفرط من عقد الدولة والحكم والسلطان ، ويدرأ الاخطار المحدقة بالدولة والبلاد والعباد خاصة وان اطماع الاجانب بدأت تتجه صوب المغرب في محاولة جديدة للاستيلاء على الثغور ومنها يمتد الى باقي النواحي والبقاع والاصقاع ، فظهر محمد بن الشريف رأس الملوك العلويين الاماجد وسطع نجمه في الافق واتجهت اليه الانظار كقائد يخلص البلاد من الفوضى والاطماع ويقضي على الفتن والاضطرابات والدعوات الانفصالية الاقليمية التي شاعت وانتشرت واستشرت في طول البلاد وعرضها . فعقد محمد بن الشريف عزمه الوطيد على توحيد البلاد وضم الاقاليم والولايات وتحرير الثغور وردّ الاعداء واطماعهم . . فكتب الله له ذلك وأعانه وايده .

ان « نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي » صور وصفية صادقة ودقيقة لتاريخ الدولة السعدية منذ ظهورها على مسرح الملك والحكم الى افول نجمها فيه مع تفاصيل دقيقة — سياسية وعسكرية وأدبية — ولو أن المؤلف في كتابه التزم منهجا تاريخيا حرفيا يعتمد على السرد والرواية والوصف دون التدخل في التحليل ، ولكن هذا مما لا ينبغي محاسبته عليه لانه اتبع منهج معاصريه من المؤرخين والكتاب والادباء والنزهة على اي حال بيان وتبيين لجهود ملوك الدولة السعدية وجهادهم ليسترد المغرب في فترتهم عزه ومجده .

الرباط — احمد تسوكي

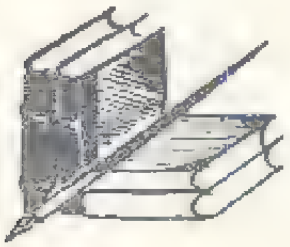

في الشباب ...

للأستاذ عبد القادر القادري

كان الشباب وما زال موضوع اهتمام الفلاسفة والمصلحين والمفكرين والزعماء والادباء والشعراء .

غير ان الذين راعما الشباب وركزا اهتمامهما عليه هما الجنرال الانجليزي لورد روبرت الملقب ببادن باول مؤسس جمعية الكشافة سنة 1908 والمهر عنبر زعيم المانيا النازية . فعندما وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها حذت الدول الاوربية التي خرجت منهوكة القوى من تلك الحرب حذو المانيا النازية فاهتمت بشبابها لاعادة بناء بلادها فانشات وزارات خاصة بالشباب كما حذت المحميات والمستعمرات الاوربية التي حصلت على استقلالها عقب تلك الحرب الضروس حذو مستعمريها السابقين فانشات وزارات خاصة بشبابها فاصبحنا نسمع وزارات يطلق عليها اسم وزارات الشبيبة والتربية .

فمنذ قضى العصر الحاضر على الفكرة العتيقة فكرة ان المسؤوليات الجسام والاعمال الناجحة يجب ان لا يضطلع بها غير الشيوخ بحجة ان الخبرة والتجربة وفهم أسرار الحياة لا تتوفر للشبان . ومهما يقول علماء الاجتماع على اثر الكهول والشيوخ في حالة الوطن من الوجوه الاقتصادية والسياسية والادبية وغيرها فان للشبان في كل ذلك اثرا يبدو في كل منحى من مناحي الحياة . واقرب دليل على ذلك ما لشبابنا من الاثر في تسيير أمور وطنهم والهيمنة على مصالح ذلك الوطن .

ولعل بلادنا العزيزة هي البلد الوحيد الذي يضطلع بمسؤولياته الجسام ملك شاب ووزراء شبان .

واذا قلبنا صفحات التاريخ تجلت لنا ابلغ الامثلة على تصيد الشبان من الاعمال العظيمة والمآثر الخالدة .

هذا محمد الخامس قد ارتقى للعرش المغربي وهو دون العشرين من عمره ، وقاوم الاستعمار وهو ما زال في سن الشباب وارتقى الاسكندر الكبير العرش في العشرين من عمره فلم يكد يبلغ الثلاثين حتى كان قد حمل امبراطورية اليونانية الى اطراف الهند وهذا يوليوس قيصر اعظم قياصرة الرومان فانه كان لا يزال شابا حديث السن حين اقطر بومباي وكراسوس الى مناطرته السيطرة على العالم وجل قادة الفتح الاسلامي كانوا من الشباب الناهض ، وكافح جلالة الملك الحسن الثاني ضد الاستعمار الفرنسي وهو في ريعان الشباب . وقاوم علال الفاسي سلطات الاستعمار الفرنسي وهو في سن الشباب . واعلن محمد بن عبد الكريم الخطابي الحرب على اسبانيا وهو في سن الشباب فاحرز ابهر الانتصارات عليها .

ولنتحول الآن من ميادين السياسة والقتال الى ميادين العلوم والفنون ، فان نيوتي كان في الثالث والعشرين من عمره حين اكتشف قانون الجاذبية

الذي قلب كيان العلوم . وبيتهوفن الف اجمل قطعه الموسيقية وهو دون الثانية والثلاثين ، ومثله موزار واغرب منهما مندلسون الذي الف قطعة موسيقية خالدة وهو في السابعة عشرة من عمره .

اما بين الادباء فيجدر بنا أن نذكر بيرون الذي اشتهر في عالم الادب وهو في الرابعة والعشرين وبدا عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني وعلي امين ومصطفى امين يكتبون في الصحافة المصرية وهم في ريعان الشباب .

ومثلهم من هذا القبيل كثيرون يضيق عنهم المقام .

وانه ليكفينا ان نذكر ان جل محرري الصحافة المغربية من الشباب الناهض .

هذا وقد قيل الشيء الكثير عن الشباب ولا يستطيع مؤرخ أو كاتب ان يجمع كل حكم الاقدمين واقوال الحكماء في الشباب غير اننا اخترنا الاهم فيما قيل في ذلك ونسرده هنا بمناسبة عيد الشباب.

● قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

اغتنم خمسا قبل خمس :

شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل مرضك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك .

● وقال سيدنا علي كرم الله وجهه :

راي الشيخ خير من جلد الشباب.

● وقال امير الشعراء احمد شوقي :

الشباب ايام آذار ودولة العذار واعنة الاوطار وليلة العرس في هذه الدار . سنه كالطيف سراها وكقبلة الخلس حلم كراها ونشوة يتلفت المستفيق لا يراها . وجنة لو خير العقبل (المجنون) بالعقل اشتراها . العشق في غير جناحه طائر لا ينهض به جناح . والكأس من غير راحة غيبة الساقي بليدة الراح . والمال في غير خزانته غريب ويتحول عن قريب . رؤيا الوارث في نومه وشغله في يومه وملك يده في غده . السلطان والدولة والامكان والصولة والملك وكل ما حوله ..

● وقال ايضا :

يا شباب الديار مصر اليكم
ولواء العرين للاشبال

كلما روعت بشبهة يأس
جعلتكم معاقل الآمال

هيئوها لما يليق بمتحف
وكريم الآثار والاطلال

● وقال ايضا :

ربا وطني لقيتك بعد يأس
كأني قد لقيت بك الشبابا

● وقال الفيلسوف الالماني جوته :

ان مصير اية امة في اي دور من ادوار حياتها ليتوقف على افكار شبابها الذين تقل اعمارهم عن خمس وعشرين عاما .

● وقال كولريدج :

ماأظلم هذه الدنيا واشد كآبتها اذا خلت من الشباب وما ألمها واشد عقوقها اذا خلت من الشيب .

● وقال ريختر :

شباب الروح خالد والابدية هي الشباب .

● وقال شيشرون .

يسرني ان يكون عند الشباب شيء من رزانة الكهول ووقارهم ، واغتبط للكهول اذا توافر فيهم من صفات الشباب قدر محمود ، لقد افلح من اتبع هذه القاعدة ! ! انه سيهرم جسده اما عقله فيظل فتيا .

● وقال عمر الخيام :

اطفىء لظى القلب ببرد الشراب
فانما الايام مثل السحاب

وعيشنا طيف خيال قتل
حظك منه قبل فوت الشباب

وقال ابو تواس :

ولقد انهزت مع الغواة بدلوهم
واسمت سرح اللهو حيث اساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه
فاذا عصارة كل ذاك اثام

وقال ابن حازم الباهلي :

ويسلبه الشيب سرخ الشباب
فليس يعزيه خلق عليه

وقال مسلم بن الوليد :

الشيب كره وكره ان يفارقني
اعجب بشيء على البغضاء مردود

يمضي الشباب ويأتي بعده خلف
والشيب يذهب مفقودا بمفقود

● وقال الشريف الرضي :

الا اين ذاك الشباب الرطيب
ام اين لي بيض ايامه لا

مشى الدهر بيني وبين النعيم
ظلما وغير من حاله

● وقال البحتري :

خلق العيش في المشيب وان كا
ن نظيرا في الشباب جديده

● وقال ايضا :

وارى الشباب على عصارة حسنه
وجماله عددا من الاعداد

● وقال ايضا :

شرح الشباب اخو الصبا واليفه
والشيب تزجيه الهوى وخفوفه

● وقال الشريف المرتضى :

لا تطلبي مني الشباب فما
عندي شباب والشيب قد وندا

اين شبابي وقد انفت على اثنين
سنا وجزتها عددا

فمن بقي عندي البشاشة واللـ
ـهو وبعض النشاط ما وجدا ...

وقد مضى من يدي وفارقني
ما لا اراه براجع ابدا ...

● وقال ايضا :

سقى الله ايام الشبيبة ريها
ورعيا لعصر بان عني من عصر

ليالي لا يعدو جمالي منيتي
ولم تردد الحسناء نهيي ولا امري

وليل شبابي غارب النجم فاحم
ترى العين عسري فيه دهرا بلا فجر

واذا انا في حب القلوب محكم
وافئدة البيض الكواعب في اسري

● وقال ابن الرومي :

لا تلم من يبكي لشبيبته
الا اذا لم يبكها بدم

عيب الشبيبة غول سكرتها
مقدار ما فيها من النعم

لسنا نراها حق رؤيتها
الا زمان الشيب والهرم

كالشمس تبدو فضيلتها
حتى تغشى الارض بالظلم

ولرب شيء لا يبينه
وجدانه الا مع العدم ...

● وقال ابو تمام :

لو راى الله في الشيب فضلا
جاورته الابرار في الخلد شيبا

● وقال الشاعر المصري محمود غنيم :

علمت ان في الحمى شبابا
ينتزع الثناء والاعجابا
ويسمع الصم اذ اهابا

شاهدته وقد مشى اسرابا
يفتل للصناعة الاسبابا
مرتديا من طهره جلبابا
منتضيا من عزمه قرضابا

● وقال أمين نخلة :

كنا الغصون الخضر في
وكانت الدنيا لدينا

كنا الغصون الخضر في
روض الملاحة والتوينا

● وقال علال الفاسي :

كل صعب على الشباب يهون
هكذا همة الرجال تكون

● وقال الرئيس الامريكي السابق كندي :

ان الشباب الامريكي مائع منحل مترف غارق في الشهوات وانه من سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين بسبب انهماكهم في الشهوات وانذر بان هذا الشباب خطر على مستقبل امريكا .

ورحم الله الشاعر الذي يقول :

جل من قلد الفرنجة منا
قد أساء التقليد والتمثيل

فاخذنا الخبيث منهم ولم نقتـ
ـبس من الطيبات الا قليلا

يوم سن الفرنج كذبة ابريـ
ـل غدا كل عمرنا ابريلا

نشروا الرجس مجملا فنشرنا
كتابا مفصلا تفصيلا

● وقال آخر :

شبابنا من طينه
في كل واد قد سلت

ان لم نوجه سيره
اهلكنا كما هلك

وقانا الله جميعا الحادثات في سواد الشباب وبياض الشيب على السواء .

عبد القادر القادري

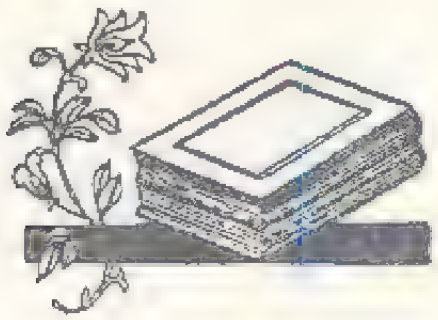

تربية الشباب في الإسلام

للأستاذ محمد بن محمد العاصي

الشباب في جميع المستويات والأوضاع ، أحوج ما يكون محتاجا ، أكثر من سواه ، الى التوجيه السليم ، والتربية المتزنة المتناسقة ؛ وذلك سعيا وراء تهذيب المتناقضات في نفسه ، وإرشاده الى الطريق السوي القويم .

وهذا الظمأ الى الاستقامة ، يكون أكثر الحاحا في الشباب ، لانه في ربيع العمر ، فهو أكثر تفتحا على نور الحياة بما فيها من مغريات ومشاتن ، وهو كالمرآة الصافية تنعكس على صفحتها شتى الصور والمشاهد بكل دقة وأمانة . ولعله من اللائق بالشباب أن يشاهد نفسه في تلك المرآة بالشكل الذي يروقه ، ويحسن به ان يكون عليه ، وهذا يقتضي من الشباب الرياضة البدنية والروحية في آن واحد . فالرياضة البدنية تقوية للجسم ، وتنشيط للعقل ؛ والرياضة الروحية وسيلة للتغلب على الهواجس والمغريات والمتناقضات . والموازاة بين هاتين التربيتين تتعهد الجسم غلا يفتر ولا يذبل ، كما تتعهد الروح فلا تهون ولا تخور ولا تنهار . والجمع بين المزيتين فيه من الوجاهة والفائدة الشيء الكثير . فاذا قوي العقل تغلب على شيطان الشهوة ، وقويت الروح عكبحت جماح الجسم ، فاذ ذاك يتم التعاون بين الجسم والروح على انتهاج الخير وتفهمه والعمل به ، والحث عليه . وهذا هو راي الاسلام في التربية القويمة للنشيء ، تلك التربية التي توازن ،

والسيطرة بالعقل على الشهوة ، بحيث ينال الجسم حظه من العناية والصيانة والقوة والاشراق ، وتأخذ الروح نصيبها من التوجيه الصالح ، فتصبح وقيرة الزاد للسير في موكب التقدم والازدهار ، وبدون الجمع بين الجانبين الايجابيين من التربية ، من حيث النظرية والتطبيق ، تصبح التربية قاصلة في تأدية الامانة المنوطة بها ، وتصير نتيجتها سلبية ، فارغة المدلول من جميع المعاني .

قال الله تعالى في كتابه العزيز : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؛ انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا »

فالانسان ليس ملاكا معصوما اي روحا لا شهوة فيها ، وليس حيوانا مجردا لا عقل له ولا تمييز ، وليس جمادا لا يتحرك ولا يعي ما حوله . بل انه روح وجسد معا . وكثيرا ما يكون الانسان طائشا في تصرفاته ، أو متقاعسا كسولا متخوفا مما عسى أن تلده الايام . ولهذا اصبح لا مناص من التربية القويمة المتزنة المتناسقة المنسجمة روحيا وبدنيا ، حتى تكون الامشاج والامزجة في الانسان ذات تآلف وذات انتظام وتكامل فيما بينها ، لا تضطرب ولا تختلط بدون توافق فيهما

بين وظائفها الطبيعية . وهذا ما دفع بعلماء التربية والاجتماع في كل الاجيال والعصور الى تكريس جهودهم وطاقاتهم من اجل استجلاء السر في الانسان ، ذلك المخلوق العجيب الغريب ، وتربيته وتأديبه وتهذيبه ، والتلطيف من غلواء المتناقضات فيه ، ليكون سلوكه سويا قويما رشيدا .

فالرياضة البدنية لا تخلو من فائدة ومزية ، لانها تتغلب على السجايا المتنافرة والمتناقضة عند الانسان ، نظرا لكونها تملأ فراغ الوقت الثالث ، وتقوي الجسم وتنشط العقل . الا انها لا تكفي لما يتطلبه الانسان من تغذية الروح ، تلك التغذية التي تواكب فطرته وتهذبها وتصقلها ، والا لصار اشد بطشا وضراوة في المجتمع من الوحوش والاسود والسباع .

فاذا تضمنا سير الجسد والروح في درب واحد ، بحيث يصبح العقل كابحا للشهوة ومتعاونا مع الجسد ، وتصير الروح هي الاخرى معيارا لاستقامة سلوك الاعضاء في البدن ، فاذ ذاك تكمل الفائدة كما يتوخاها الاسلام في تربية النشء وتوعيته ، ذلك النشء الذي نريده رزينا ثابتا متعقلا رصينا . فالاتزان يقتضي من النشء الاسلامي ان يكون عقله مسيطرا على شهوته ، حتى يأخذ الجسم والروح كلاهما نصيبه من الزاد حتى يساير ركب الحياة من دون تخلف أو ادنى تقاعس . وبقدر اهمال الجسم او الروح في مضمار التربية ، نرى احدهما عاجزا عن مواكبة الآخر في معركة الحياة الحسية والمعنوية .

ومع الاسف ، نلاحظ في اجيالنا الحاضرة انحرافات لها ما بعدها من آثار عميقة في المستقبل القريب او البعيد . ذلك ان الانحلالات والميوعات لم تشمل شبابنا فقط ، وانما عمت شباب العالم بصورة تبعث على الكثير من القلق والتساؤل عن العصير ! وكما يشهد بذلك عمالقة الفكر البشري . والساسة الكبار الذي يديرون دفة شؤون الدنيا بأسرها ، فان الشباب قد انجرف حقيقة في اقبح دوامة من الاستهتار والاستخفاف بالقيم والمثل العليا التي تعتز بها الانسانية كافة في مشارق الارض ومغاربها فخذ ما شئت من عجز او تملص ، وخذ ما شئت من شذوذ جنسي كاسح للفتيان والفتيات ، وخذ ما شئت من قوانين صالحة لجنس القرود ، وخذ ما شئت من تيه وضلال واباحية لا تحدها حدود ، ولا يتملكها حياء ولا خجل ، ولا تزداد مع الايام الا عتوا وتفشيا وطغيانا ، كأن المجون واللا اخلاق والفسوق والفجور اصبح كل ذلك امرا طبيعيا لا لوم فيه ولا استخفاء ولا غضاضة . اما المصلحون والمرشدون والوعاظ والمربون ، فقد باتوا حيارى كأنهم ايتام ، لا حول لهم ولا قوة امام هذا الداء الذي يستفحل ، والمصيبة التي تستشري ، والتيار الذي يجرف كل ما هو امامه ، والاعصار الذي يأتي في كل مكان على الاخضر واليابس ! فكيف يقومون اذن بوضع حد لهذه الحالة المزرية من الانزعاج والقلق والانهيار ؟ !

ان الدواء الناجع ، والترياق الشافي ، والاكسير الوحيد ، والبلسم الفريد ، هو الاسلام . وهو في متناولنا اجمعين كبارا وصغارا . الا اننا ننفر منه او نتجاهله ، لاسباب نحن ادرى بها من سوانا . فما علينا الا ان نشمر عن ساعد الجد ، ونسد الطريق على كل اعوجاج وانحراف ، ونعود الى الذات والاصل ، ولا نكون كمن قال فيهم الشاعر :

ومن العجائب والعجائب جمة ،
قرب الدواء ، وماء اليه وصول

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ،
والماء فوق ظهورها محمول

فكيف يوجد الدواء قريبا منا ، وتقضي الحياة كمدا والما ، وحسرا وانتقاما ؟ وكيف يكون السر فينا . والكوثر منبجسا من ديننا الذي هو اقوم الاديان ، ومن مذهبنا الذي هو مذهب الفطرة ، ثم نهيم على وجوهنا في بيداء المتاهات ، ومغازات المهاليك والموبقات ، كالجمال التي تحمل الماء ، وهي تموت عطشا ؟ ! ابدا ! هذا ما لا يكون ، ولن يكون !

ان الاسلام هو دين الخطة المثلى ، والتربية القويمة ، والمنهج الرشيد ، وفيه النجاة عن الآفات . وهو الحصن الحصين والسد المنيع ، والضمانة الكبرى للنظافة الحسية والمعنوية ، وتعزيز الخلق الرفيع ، وتهذيب الروح . وهو الضامن للمزيد من العافية الشاملة للعقل والجسم معا ، وهو الذي يجعلنا نتشبع بعزة النفس ، حتى لا نكون عبيدا للنزوات والشهوات والمغريات والسموم اللذيذة ،

وهو الدين الذي اعتنى بالانسان وتربيته عناية خاصة ، منذ نشأته الاولى ، وواكبه في شتى اطوار حياته ، حتى يصبح رجلا سويا يضطلع بشؤونه ، فينفع نفسه وامته ، ويؤدي الدور الموكول اليه في حظيرة الانسانية كافة .

ان المدرسة الاولى والاساسية في الاسلام هي المسجد ، فهناك تنفتح نفس الطفل ، وتتهذب روحه حينما يدخله مرارا وتكرارا لاداء الصلاة ، فتصير النظافة والطاعة والنظام من ابرز عاداته ومقوماته وتنأى روحه عن الاخباث كيفما كانت ، فيتحسس مواطن الاستقامة وحسن السلوك ، ويتجنب مواطن الزلف والعثرات والهنات ، ويتجنب الثلم والثغرات ، لانه متصل بمولاه المتصف بكل كمال ، والمنزه عن كل نقص . والمقام يقتضي النظافة والطهارة والوضوء ، ويقتضي النظام والطاعة واستواء الصف خلف الامام ، ويقتضي تلبية نداء المؤذن عندما ينادي لاداء الفريضة خمس مرات كل يوم ، ويقتضي التعود على كل مناهج الخير منذ السن المبكرة ، لان من شب على شيء شب عليه ، والعادة طبيعة ثانية ، كما يقال .

جاء في الحديث الشريف : « مروا اولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر . » والاستقامة المتاصلة تقتضي ذلك في المنطق السليم . والضرب نوع من الزجر والتاديب البدني الذي يلجا اليه المربي حينما لا يفيد الاقناع ، وتكون المعاملة باللين غير ذات فائدة وجدوى ، واذا كان الضرب مؤديا الى النفور والتعقيد ، فانه لا مناص منه لردع بعض النفوس التي لا تنصاع للخير والفلاح والصلاح بسهولة . فهناك قوم لا يدخلون الجنة الا بالسلاسل في ايديهم وارجلهم واعناقهم . وما دامت الغاية هي تقويم ما اعوج من الاخلاق ، واصلاح ما فسد من الطبائع والغرائز ، فكل الوسائل حسنة على قدر الامكان . والشدة والحزم والصرامة طرق ضرورية في بعض الاحيان عند الاقتضاء .

والمسلمون الاولون لم تكن لهم من مدارس سوى المساجد التي كان الطفل ينهل من عرفانها ويكرع من معينها ، ويستفيد كثيرا من علومها وآدابها . وهناك يتعلم القراءة ، والكتابة التي تمكنه من حفظ القرآن . ولا تكون صلاته صحيحة الا قراءة بالتالي وبدون لحن ولا خطأ ولا نسيان ، وهناك يتعود على النظافة والطاعة والنظام ، ويتفتح ذهنه ، وتتنور بصيرته فيلمس عن كثب ماهي روح الجماعة ، وما معنى الاتحاد والتضامن والائتلاف حول كلمة الله والامتثال لاوامره وجنب نواهيه . كما يتعود على الآداب العامة كما ورد في الحديث الشريف : « البسوهم السراويل ، وفرقوا بينهم في المضاجع » ، خصوصا وان الطفل يتأهب لولوج مرحلة عنيفة شديدة من حياته ، هي مرحلة البلوغ والمراهقة . والطفل يدرج على ما كان عليه ابواه . اذ السلوك ينبعث منا نحن الآباء ، وينعكس على تصرفات ابنائنا الذين هم نسخة طبق الاصل منا ، لاسيما وهم فلذات اكبادنا تمشي على الارض .

ولله در من قال :

وينشأ ناشيء الفتيان منا
على ما كان عوده ابوه

ولا يريد الانسان ان يكون احد احسن منه ، الا ابنه ، خلقا وخلقا على جميع الاصعدة والمستويات .

ومرحلة المراهقة مرحلة صعبة جدا ، يكتنفها الكثير من الاضطراب النفسي والقلق العصبي ، وهي بداية الهياج والانحراف وتمزيق جميع القيود ، ومحاولة اجتياز جميع الحدود . فالمراهق لا يقيم وزنا للامور وعواقبها ، فتراه لا يلوي على شيء ، ويستهين بالقيم المثلى والفضائل العليا ، وتلك نتيجة حتمية للقلق المضطرم في النفس ، والصراع المحتدم في اصعب مرحلة للشهوانية البهيمية ذلك الصراع الذي يستعر اواره ، ويبلغ ذروته عندما يكبت الانسان انفعالاته ، او عندما يرتكب خطيئة او يقترف اثما . وفي خضم ذلك الصراع وتلك الانفعالات ، تاتي التربية الاسلامية لتنقذ الموقف ، وتتناول بالعلاج موطن الداء .

واذا كان الانسان يعاني الكثير من الكبت النفسي والجنسي ، فان الاسلام هنا لياخذ بيده حتى لا يتعقد وينحرف وتصبح حياته عذابا اليما وجحيما لا يطاق ، وينظر الى نفسه وكانه قد صار عبئا على اسرته وعلى المجتمع الذي يعيش فيه .

فالكبت النفسي هو عيب الانسان الجبان الخوف الضعيف الرعديد ، الميال للانعزال

والانطواء والانكماش والاختفاء عن الانظار ، فتراه لا يغشى المجالس ، ويتهيب من قول كلمة الحق ، ويخشى البوح بما فى طوية نفسه وخبايا ضميره ، وحاشا للاسلام ان يرضى لذويه تقيصة الكبت النفسي ! فانه على النقيض من ذلك حث اتباعه على الشجاعة الادبية وتمثلها فى نفوسهم . وقد نص الحديث الشريف على ان افضل الشهداء كلمة حق عند سلطان جائر . . وان سيد الشهداء هو حمزة بن عبد المطلب ، وهو ايضا رجل قام الى امام جائر ، فامره ونهاه فقتله ... ويروى انه لما ولى سيدنا عمر بن عبد العزيز الخلافة — رضى الله عنه — جاءته وفود المهنئين ، فتقدم غلام ، فقال له : تاخر انت ، وليتقدم من هو اكبر منك سنا . فاجابه الغلام بكل صراحة : يا امير المؤمنين ، او كانت الخلافة تعطى بموجب التقدم فى السن ، لكان فى الجماعة من هو اولى بها منك .. انما المرء باصغريه : قلبه ولسانه ! فتقدم الغلام ، وتاخر الباقون ... وحينما كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد تولى الخلافة خطب فى الناس مهيبا بهم ان يؤيدوه اذا كان على صواب ، وان يقوموه اذا كان على خطأ . فنهض اعرابي وقال له بكامل الشجاعة : والله او انحرفت عن الصراط المستقيم لقومناك بسيوفنا ! فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقومني بسيفه ! وهكذا ، فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وطاعة العباد لا تكون الا فى طاعة الله . اما ان كان الامر يتعلق بمعصية الله ، فلا طاعة ولا اذعان ، ولكنه تاديب وردع وجهاد لاعلاء كلمة الله ! ... ويروى ان سيدنا عمر الفاروق خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يمر فى الطريق ، والصبيان يلعبون ويمرحون ، ففروا ، الا صبي واحد بقي مكانه ، لم يتحرك . فساله عمر : لماذا لم تفر كبقية اصحابك ؟ فقال الصبي بكل ثقة وصدق : لم اقترف ذنبا فاخافك ، وليست الطريق ضيقة فاوسعها وافسحها لك . فسر عمر من اجابته ، وفرط ذكائه ، وسرعة بديهته ، ورباطة جاشه ... ووقف عمر يخطب ذات يوم قائلا : ايها الناس ، اسمعوا واطيعوا ، فوقف اعرابي وقال : لا سمع ولا طاعة يا ابن الخطاب ! فساله عمر : ولماذا ؟ فقال الاعرابي : وزعت علينا الغنائم ثوبا ثوبا ، واراك تلبس ثوبين ، فمن اين لك الثاني ؟ فالتفت عمر الى ولده عبد الله ، وطلب منه ان يوضح الحقيقة ، فقال عبد الله : رايت ثوب ابي قصيرا ، فاعطيته ثوبي يصنع منه ازارا . فاقتنع الاعرابي وصاح قائلا : اما الآن ، فنحن نسمع ونطيع !

هذه بعض الجوانب المشرقة من التربية الاسلامية القويمة التى لا تحابي ولا تداري ، فتقول للمحسن : احسنت ! وتقول للمسيء : اسأت ! من دون مواربة ولا نفاق ولا تصنع ! وبهذا الاسلوب الناجع حارب الاسلام الكبت النفسي ، واستأصله من جذوره ، ومنح الفرد فرصة التعبير بصراحة عما يجيش به وجدانه من خواطر وملاحظات ، من غير فزع ولا رجل ولا خوف .

اما عن الكبت الجنسي فانه اشد وقعا واعظم خطرا على النفس ، لانه صراع حاد وعنيف بين اشباع الشهوة والرغبة ، وبين الخوف من الوقوع فى الاثم وارتكاب الفاحشة واقتراف الجريمة . ولا تتوقف تلك الحرب ، ولا يخبو اوارها ، ولا يحمد سعيرها ، حتى تتغلب الشهوة على الخوف ، او ينتصر الخوف على الشهوة . فاذا ما تغلبت نزعة اشباع الرغبة الجنسية ، كان الانحراف المخرب المدمر الذي يكتسح كل الحدود والسدود ، واذا ما تغلبت نزعة الخوف من ارتكاب الجريمة ، كان الكبت والقلق والاضطراب . ولذلك سارع الاسلام الى علاج هذا المشكل الخطير ، فامر الشباب بالزواج المبكر ، فقال النبي (ص) : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج فان ذلك اغض للعين ، واحفظ للفرج ، ومن لم يستطع ، فعليه بالصوم ، فانه له وجاء » (بكسر الواو) اي وقاية . واول سبب من اسباب تسهيل الزواج وتيسيره ، خفض المهور ، لان المغالاة فيها ينفر الناس من الزواج ويزهدهم فيه . فالشارع الكريم جعل الصداق خاتما من حديد ، او آيات من القرآن يحفظها الزوج لزوجة ، او حفنة من شعير ، او ما فى مقابل ذلك من الاشياء الزهيدة التي ترمي الى ابعاد شريفة وغايات نبيلة . وكلما كان الصداق قليلا ، الا وكان الزواج اكثر بركة ويسرا فى المؤونة ، لان قلة التكاليف تسهل الزواج فى الشباب المبكر . واذا كان الشارع الحكيم قد وصف الدواء للعاجزين عن الزواج ، وذلك بحضهم على الصوم ، فلان الشيطان اللعين يجرى من الانسان مجرى الدم . والجوع والعطش يضيق المجارى

على الوسواس الخناس الذي يوسوس فى صدور الناس . ثم ان الاسلام قد امر بغض البصر والحياء، لان العينين نافذتان من نوافذ الشيطان ، وهما صلة الوصل بين القلب والشهوة التى تضطرم نيرانها فى النفس . واذا كان الاسلام قد حرم الاختلاط بين الجنسين ، فلاجل الحيلولة دون تهييج نار الشهوة وتاجيجها . ولم تغفل ملتنا السمحاء بالجانب الخلقى والتربوى الروحى لملء اوقات الفراغ عند الشباب . بل ان اهتمامها البليغ بهذه الناحية ذو فائدة قصوى، ما دام الكبت الجنسي هو التعقيد النفساني بعينه ؛ لانه صراع داخلى خطير ، له مقدماته واسبابه ونتائجه ، فلا تعالج الامراض النفسية الا نفسانيا . ولهذا ترى الاسلام يعد من يحفظون فروجهم بالجنة وما فيها من حور عين ، ونعيم مقيم . ويعد من امسك لسانه عن السوء والزور والفحش باحسن الجزاء عند الله تعالى . فقد جاء فى الحديث الشريف قول المربى الاعظم سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من ضمن لي ما بين لحييه ، وما بين فخذيه ، ضمنت له الجنة . » ويتجلى من هذا ان الرجل لا يكون تام النضج وكامل الرجولة ، الا اذا كان شجاعا يسيطر على شهوته ، ويكبح جماح نفسه ، ولا يكون عبدا لنزواته وشهواته ، ولا آلة مسخرة او دمية يلعب بها شيطانه .. ان درجة الانسان ارفع واسمى بكثير من الحيوان المجرد . والغاية التى نشأ من اجلها ، فوق الحيوانية الصرفة . فهو خليفة الله فى الارض ، وانما اودعه الشهوة لتعمر بها الارض بالنسل الحلال ، لا ليعيث فيها فسادا وفسوقا وفجورا وتخريبا . والله طيب لا يأمر الا بالطيب وهو منزه تنزيها مطلقا من الخبث والخبائث ، والنقص والنقائص ، والعيب والمعايب . ان الشارع الحكيم قد أخذ بيد الانسان وهداه الى النور والهداية ، الى الملأ الاعلى ، ليستنقذه من شوائب الارض ، وليخلصه من اخلاط الاثم والرذيلة ، وليسير به الى الاستقامة والفضيلة . فاهتم اهتماما خاصا بالروح ، من دون ان يهمل حقوق الجسد الذى هو وعاء الروح . فلم يحرمنا من ترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، بمعنى انه لا خير فيمن تتغلب روحه على جسمه حتى يكون راهبا — اذ لا رهبانية فى الاسلام — ، ولا خير فيمن يتغلب جسمه على روحه حتى يصير وحشا ضاريا ، وحيوانا عشوائيا ، فانت انسان بروحك، لا بجسمك فقط . وان لروحك عليك حقا ، كما ان لبدنك عليك حقا ، وان لاهلك عليك حقا ، وان لامتك عليك حقا ، فلا بد من العدل والاعتدال فى كل شيء ، حتى تتحقق الفائدة المرجوة .

ولعله من الاجدى والافيد ملء الفراغ بالمحافظة على الصلوات فى اوقاتها ، او بالقراءة المفيدة ، او ممارسة الالعاب المباحة ، او مجالسة الاصدقاء الصالحين وملازمتهم . فالصلاة صلة الوصل بين العبد ومولاه . فاذا حافظ عليها المؤمن وادامها فى اوقاتها ، نال ربح الدنيا والآخرة . قال الله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين » وقال : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله اكبر » وقال : « ان الصلاة كانت على المومنين كتابا موقوتا » .. والصلاة تاخذ مكانتها العظيمة فى النفس ، ولا شك انها تملأ اعمق فراغ فى الحياة ، وهى تصرف عن الشر ، وتغرى بالتامل والتدبر ، والانابة والخشوع، ولها حلاوة ولية حلاوة فى القلب ! فهى تعوض عن لذة الشهوة العابرة ، وتسوق المؤمن فى درب المتعة الباقية .. فاذا ترك المؤمن اللذات الآثمة خوفا من الله تعالى وابتغاء مرضاته ، فانه يزداد قربا منه ، وخصوصا اذا ازدانت صلته بخالقه توثقا بالنوافل التى يتقدم بها اليه .

قال تعالى فى حديث قدسي : « ما تقرب الي المتقربون بشيء احب الي مما افترضته عليهم ، ولا يزال عبدي يتقرب الي بالتواصل حتى احبه ، فاذا احببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشي بها ، ولئن سالني لاعطينه ، ولئن استغفرني لاغفرن له . »

هذه بعض فوائد الاشتغال بالصلاة والاكباب على ابعادها وخلفياتها القريبة والبعيدة فى تهذيب النفوس وصقل الارواح وتطهير القلوب ، ورياضة الجوارح . ويزداد ذلك قيمة وشانا عند الشباب المسلم المستقيم ، خصوصا وان من السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله ، شاب نشأ فى عبادة الله ، لانه يعتاد فيما يعتاد من السجايا والفضائل، صون السمع واللسان عن الغيبة والنميمة والخوض فيما لا يعنى ، وحفظ البصر من النظر الى المحارم ، وتقصي عورات الناس وزلاتهم وعيوبهم ، الى غير

ذلك مما تنطوى عليه الصلاة من آداب تبعثه من خشية الله ومراقبته فى السر والعلن ، لان الصلاة سلوك مع الله ومع العباد . وانما الدين المعاملة .

ومن بين الوسائل الناجعة كذلك للحد من سكتات الكبت الوجدانى ، القراءة المفيدة ، فهى من اهم الاساليب لملء الفراغ عند الشباب ، اذ يسدون بها ثغرة عظيمة ، وتقيهم من الوان الزلق والانصياع للنزعات والمباهات . ولا بد ان تكون القراءة بعيدة كل البعد عن الادب الرخيص الذى الماجن المبتذل ، لان المراد بها الصلاح لا الفساد . فالى جانب انماء الرصيد اللغوى والاتساق وتوسيع آفاق الافكار وازدياد راسمال المعلومات العامة والمعارف من شتى الاصناف والمستويات ، نرى القراءة المفيدة خير جليس واحسن انيس . فالكتاب المفيد يبعد عنك الوحدة والوحشة والغربة ، وهو اخلص صديق واوفى شقيق ، وهو محدث صريح ، ومنادم مليح وكثيرا ما تزينه الصور التوضيحية . فاذا سألته اجابك عن كل ما يريبك او تحتاج الى معرفته ، وهو الناطق بلا لسان ، والمحتوى لالوان البلاغة والبيان . فكم يروى من رواية ! وكم يقص من حكاية ! وكم يروي من آداب واشعار ، وكم فيه من بدائع الجوهر المختار ! فالعلم فيه ينتقل من السطور الى الصدور ؛ وكم فى الاوراق من تهذيب وبعث للاذواق !

ومن اجل تركيز وترسيخ القراءة المفيدة فى نفوس شبابنا ، علينا ان نبعد عنهم الكتب الهزيلة المسمومة التى قد انتشرت — للاسف — انتشار النار فى الهشيم ، اذ نرى الثقافة عليها ممن يقرأونها بكل نهم وشغف ، والحقيقة انها سم فى دسم ، فبدلا من أن تهذب الشباب وتربيه تربية صالحة ، تراها تجيب اليه الجانب الجنسى الخطير وتغريه بالانحراف بشتى الطرق والمناهج ، وتستغل جانب الفراغ فيه لتأخذه اخذا الى الرذيلة والفسوق والعصيان . وذلك ما يقضى على كل المعانى الخيرة والقيم الانسانية النبيلة التى تنوخاها من القراءة المفيدة ... فلماذا لا نرغب شبابنا فى تلاوة القرآن الكريم ؟ ولماذا لا نبين لهم بأن الله أعد لقارىء القرآن اجرا عظيما ، وان كل حرف منه بعشر حسنات ؟ فقد ورد عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : « لا اقول (الم) حرف ، بل اقول : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » . والسؤال المحير حقا هو : لماذا ينصرف الشباب عن تلاوة القرآن وفيه كل ما يحبون ويشتهون ؟ فان أرادوا قصة الغرام والحب والهيام ، فما عليهم الا ان يقرأوا سورة سيدنا يوسف عليه السلام .. حتى يتعلموا كيف يكبح الانسان جماح غرائزه ، ويتحكم فيها بشجاعة وثبات ، ويترفع عن العبودية والخنوع للشهوات ، وحتى يتعلموا اننا المدلول الحقيقى للعفة والشرف والفضيلة والوفاء وطهارة الضمير ، والاعتراف بالمعروف والجميل . قال تعالى : « ولما بلغ اشده آتيناه حكما وعلما ؛ وكذلك نجزى المحسنين . وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الابواب ، وقالت هيت لك ! قال : معاذ الله ! انه ربى أحسن مثواي . انه لا يفلح الظالمون . » فكل من قرأ بامعان هذا القصص السماوى الرفيع ، فانه يتراجع عن كل نية سوء او انحراف فى القول او العمل ، يقينا منه بان الله لا يصلح عمل المفسدين ، ولا يهدي كيد الخائنين .

وان اراد شبابنا المسلم القصص التاريخية ، فليقرأوا فى القرآن قصة نوح وابراهيم عليهما السلام ، وقصة موسى وهارون عليهما السلام ، مع فرعون ، وقصص اصحاب الاخدود ، وما جرى للانبياء والرسل مع امهم واقوامهم ، وما لاقوا من عنت ومضايقة ، وما بذلوا من تضحيات بالنفس والنفيس فى سبيل تبليغ الدعوة واعلاء كلمة الله ؛ وان اراد شبابنا كذلك ان يطلعوا على العلوم ، فليقرأوا ما شاءوا عن الاقتصاد ، والاجتماع ، والتنظيمات الحربية ، وتخطيطات الاسرة ، والاكتشافات الطبية ، والسياحة فى الآفاق ، والمغامرات فى اعماق المحيطات وفى الاجواء الفضائية العليا ، وغزو الكواكب الاخرى ، الى غير ذلك من الموضوعات التى تناولها القرآن الكريم فى غير ما آية ، والتى له قصب السبق فيها ، وتلك من معجزاته الباهرة ! وان اراد شبابنا الجانبين الادبى والفنى ، فليقرأوا ما شاءوا من القرآن ، فانهم سيجدون فى كل كلمه من كلماته ، وفى كل سطر من سطوره ما تهتز اليه اذواقهم ، وتهواه افئدتهم ، وتصبو اليه نفوسهم .

والاضافة الى هذا وذاك ، ها هى السيرة النبوية العطرة بين ايديهم مشحونة بمواقف

البطولة ، ومملوءة بقصص الشهامة والكرامة ، والبطولة والرجولة والاخلاق العالية . ولا يرى الاسلام اي مانع من قراءة اي كتاب فيه استفادة للخير والحق . فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها . وعليك ان تأخذ الحكمة ، ولا يضرك من اي وعاء خرجت .

واما عن ممارسة الالعاب المباحة ، فقد صب الاسلام اهتمامه على الجانب الجسمي من الانسان ، كما أولى عنايته السابغة للجانب الروحي ، لانه لا خير فيمن تغلب روحه على جسمه حتى يصبح راهبا منكبا انكبابا كليا على العبادة ، ولا خير فيمن يتغلب جسمه على روحه ، فيصبح كالحيوان الاعجم لا عقل له ولا ذوق . ولا بد من التكامل بين الروح والجسم حتى يصبح الانسان انسانا بكل ما في الكلمة من معنى . ولذلك اجاز الاسلام واباح كل الالعاب التي تقوى جسم الانسان ، وترجع على نفسه بالتهذيب والتأديب والتربية القويمة . فقد ثبت في الحديث الشريف أن المؤمن القوى خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف . وورد في الحديث الشريف ايضا : « علموا اولادكم السباحة والرماية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا . » كما اباح الشارع الكريم المسابقة سواء للرجل او المرأة على القدمين او بأية وسيلة من وسائل الفروسية ، واشار اليها بكل ذي حافر كالخيل ، او ذي خف كالبعير . ولقد سابق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم زوجه عائشة رضي الله عنها فسابقها فسبقته بعد ان سبقها في المرة الاولى . فقال صلى الله عليه وآله وسلم : هذه بتلك . وصارع النبي (ص) ركامة ثلاث مرات ، وصرعه صلى الله عليه وسلم ، حتى اضطر ركامة الى الاسلام .

وعليه ، فالدين الاسلامي الحنيف قد أباح للشباب أن يملأوا فراغهم بكل ما يعود عليهم بالخير والنفع جسمانيا ونفسانيا .

واما عن اختيار الاصدقاء ، فان الصديق هو المرآة الصافية التي تعكس صورة صديقه . فقد قيل : « قل لي من تصاحب ؟ اقل لك من انت » لان من خالط الطيبين كان طيبا ، ومن انتسب الى الخبثاء كان خبيثا . . ومن خالط العطار نال من طيبه ، ومن جالس الحداد نال السواد ولفح النار . وعلى كل حال ، فالاخيار لا يشقى بهم جليسهم ابدا ، بل حتى الحديث بينهم يهذب الاذواق ، ويعطي القدوة الحسنة ، ويهدي الى السلوك القويم . ولله در من قال :

عن المرء لا تسأل ، وسل عن قرينه
فكل قرين للمقارن ينسب

والصديق الحق ، هو من قال فيه بعضهم :

ان اخاك الصدق من كان معك
ومن يضر نفسه لينفعك

حتى اذا ريب الزمان صدعك
شتت بك شمله ليجمعك !

فاختيار الصديق وانتقاؤه واجب ، فما كل الناس يصلحون للصحبة والمعاشرة ، فاربما كانت الوحدة خير من جليس السوء :

الزم الوحدة تسلم ، لم تعد في الناس خلة
ان ود الناس أضحى لنفاق او لعله
فانبذ الاصحاب الا صاحبا يدعوك لله

وهذا مصداق للحديث الشريف الذي ورد فيه قول العربي الاعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم : « خير الاصدقاء من اذا ذكرت الله أعانك ، واذا نسيت ذكرك » .

وكثيرا ما يتحول الصديق الى عدو مبين ، اذا لم تكن الصداقة قائمة على صفو السريرة ونقاء الضمير وطهارة القلب ، لان ما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل . وكل شيء في الحياة آئل الى فناء ، الا الحب في الله ، وفي كل ما مصدره غير المادة الزائفة . ومهما يكن من امر ، فان الصديق الوفي كنز ثمين في الحياة ، حلوة كانت ام مرة .

فقد قال بعضهم :

المرء في زمن الاقبال كالشجره ،
والناس من حولها ، مادامت الثمره

فاذا غاب عنها حملها انصرفوا ،
وخلفوها تقاسي الحر والغبره !

ولطافة المعشر ، وحسن الخلق ، والسعي في نفع الناس وقضاء اغراضهم في الحق لا في الباطل ،

والتعاون معهم على البر والتقوى ، لا على الاثم والعدوان ؛ كل ذلك مجلبة لصداقة الناس وحبهم وعطفهم ومودتهم . ولذا كان ليس من الممكن أن يكون الانسان صديق الجميع ، — لان ارضاء الناس كلهم غاية لا تدرك — ، فمن الاجدى والانفع أن يكون صديقا للاخيار حتى يعد منهم . فان التشبه بالكرام رباح ، كما قيل .

فالصديق الذى يعينك على الطاعة والاستقامة ، والصديق الذى يذكرك بالله ، ويردك عن المعصية ، ويصدك عن الانحراف والعصيان ، ويغلق دونك ابواب الشيطان ، هو الذي تلزمك مصاحبته ، لانه يؤنس وحشتك ، ويملأ فراغك ، ويدلك على الخير ، ويبعدك عن الشر ، ويرشدك الى الصراط المستقيم .

على ان الشباب المسلم يجب أن يبقى دائم الحذر واليقظة والتبصر والاناة فى اصطفاء اصدقائه ، فقد قال ابن الرومى :

عدوك من صديقك مستفاد ،
فلا تستكثرن من الصحاب

فان الداء اكثر ما تراه
يحول من الطعام او الشراب

اذا انقلب الصديق غدا عدوا
مبينا ، والامور الى انقلاب

ولو كان الكثير يطيب ، كانت
مصاحبة الكثير من الصواب

ولكن ، قلما استكثرت الا
عثرت على ذئاب فى ثياب

فدع عنك الكثير ، فكم كثير
بعان ، وكم قليل مستطاب

فما النجح الملاح بمرويات ،
وتلقى الرى فى النطف العذاب

واذا لم ينجح المرء فى اختيار اصدقائه ، لانهم لم يبادلوه وفاء بوفاء ، ومحبة بمحبة ، فالدواء عند الامام الشافعى رضى الله عنه ، حيث قال :

اذا المرء لا يرعاك الا تكلفا
فدعه ، ولا تكثر عليه التاسفا

ففى الناس ابدال ، وفى الترك راحة ،
وفى القلب صبر للحبيب ولو جفا

فما كل من تهواه ، يهواك قلبه ،
ولا كل من صافيته لك قد صفا

اذا لم يكن صفو الوداد طبيعة ،
فلا خير فى ود يجىء تكلفا

ولا خير فى خل يخون خليله ،
ويلقاه من بعد المودة بالجفا

وينكر ودا قد تقادم عهده ،
ويظهر سرا كان بالامس قد خفا

سلام على الدنيا اذا لم يكن بها
صديق صدوق ، يصدق الوعد ، منصفا !

هذه بعض المناهج والطرق التى تفضى بها الاسلام على الكبت والفراغ الذي هو شر مستطير ، وداء خطير . قال الشاعر :

ان الشباب والفراغ والجده
مفسدة للمرء اي مفسدة !

واذا ما ترتب على ارتكاب ذنب ، او اقتراف جريرة ، او اجتراح مخالفة ، ادنى عقدة نفسانية ، فان الاسلام قد عالجها بما يضمن للنفس خلوها من الارتباك والاضطراب ، لان الله عفو حليم ، غفور رحيم ، يقبل التوبة عن عباده . وهو يحب التوابين ، ويحب المتطهرين . فرحمته سبقت غضبه ، وعفوه ارجى على عقوبته . فقد جاء فى الحديث الشريف : « ان الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل . » والله الخالق البارىء المصور اعلم من الانسان بما يصلح نفسه ، وهو يفسح له المجال دائما اذا نسي او اخطأ . « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا . انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » — « والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم . ومن يغفر الذنوب الا الله . ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . »

وكل انسان لا يخلو من خطأ . فلكل مجواد هبوة ، ولكل سيف نبوة . والكمال لله وحده دون سواه . فقد بشر الله المؤمنين على لسان نبيه سيدنا محمد (ص) اذ قال : « كل بني آدم خطاؤون ، وخير الخطائين التوابون » وقد جاء في الحديث القدسي : « وعزتي وجلالي ان لم تذنبوا وتستغفروا لاذهبن بكم ، ولأتين بقوم يذنبون ويستغفرون فاغفر لهم . » وعليه ، فالاسلام يمنح الاطمئنان والثقة والامل الرحب ، كما يمنحنا القدرة والشجاعة على مواجهة المشكلات بعزم وصبر واحتساب ، من دون ارتباك ولا تعقيد . والاسلام يجب ويمحو ما قبله . ان الحسنات يذهبن السيئات . والاسلام يجعل لصاحبه مخرجا ونوبة مما عمل من سوء ، ويحل عقدة الجريمة من نفس الانسان ، حتى يصير قويا قادرا على افادة وطنه ودينه ، نافعا لمجتمع الذي يعيش فيه . وبذلك يبني الاجيال القادرة على الوقوف في وجه الصعوبات ، وتذر المعوقات والعثرات ، وصد الاعداء ، والانتصار على الاهواء ، وتحقيق ما تصبو اليه الامة من عزة وكرامة ومجد وسؤدد .

ان الاسلام راعى بدقة مراحل تكوين الانسان وتربيته بمنطق سليم . فاذا ما اجتاز المرء مرحلة المراهقة التي هي اصعب واخطر مراحل التكوين العقلاني والنفساني في الحياة ، فانه يصبح في طور النضج والاعتدال الفكري الذي سهذب فيه الغرائز ، ويتأنى التصرف بالاناة والحكمة والاتزان . اذ يصبح الانسان يحكم عقله وبصيرته وادراكه الباطني ، ويتمعن في الظروف والملابسات التي تحيط به ، وتتأمل وتجيل الفكر في عجائب الكون وغرائبه وما فيه من مخلوقات واسرار . جاء في كتاب الله عز وجل : « قل انظروا ماذا في السماوات والارض » . — « ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون . » — « الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك . انما يخشى الله من عباده العلماء . ان الله عزيز غفور . »

بهذه التوجيهات السماوية التي يطلع بها القرآن الحكيم يتفتح العقل البشري كتاب الكون الفسيح ، ليتدبر ويتمعن ويتأمل ، ويستنبط السر والمغزى والدرس الذي ترمز اليه تلك الآيات الكريمة ، ليستفيد منها الانسان ما يغمره بالرشاد والخير ، والتوفيق والهداية . لان مجرد النظرة العابرة الى الاشياء لا تكفي . فالكون العظيم يستوجب النظرة الفاحصة المنقبة المستوعبة ، حتى يدرك عظمة الله ، وكمال قدرته ، واتقانه لتدبير الكائنات ، ان النظرة الواعية هي احسن وسيلة واقوم طريق للوصول الى الحقائق ، لان الاكوان لها اسرار وخلفيات وابعاد تكمن وراءها . والمؤمن المتبصر يستشف ويستخلص منها ما لا يحصى من العبر والآيات .

ولنا في اسلافنا الامجاد اسوة حسنة ، اذ يحققوا المنهج التجريبي للعلوم حيث لهم فضل استطاعوا بالنظر الثاقب ، والبحث والتقصي ، أن الاسبقية والنبوغ والتبريز فيه بالنسبة لزمنهم . ومن عؤلاء العباقرة الافذاذ الجغرافي البارع ، الشريف الادريسي ، والرحالة الذي اتقن علوم البحار (ابن ماجد) ، وفريد عصره في علم النباتات والعقاقير (ابن البيطار) ، وصاحب المقدمة الرائعة في علم طبقات الارض — الجيولوجيا — (البيروني) ، ومؤلف احسن كتاب عن الحيوان (الجاحظ) ، وكاتب اعظم مقدمة في علم الاجتماع والتاريخ (عبد الرحمان ابن خلدون) وكذلك المؤرخ الاجتماعي الكبير (ابن الازرق) ، والطبيب العالم المشارك في شتى فروع العرفان ، (ابن سينا) ، والبحاثة النابغة في علوم البصريات (ابن الهيثم) ، وفارس الميكانيكا الاول (ابن فرناس) ، والطبيب الجيسوبي مخترع الجبر (ابو بكر الرازي) ، وسواهم من مئات الآلاف من الجهابذة الاعلام الذين سمح بهم تاريخ الاسلام ، والذين يجب ان يكونوا لنا قدوة صالحة في الاخلاص والتفاني والتقشف والتهذيب ، اذ هم من بين ملايين المشاعل التي انارت درب البشرية ، وبيضت وجه الاسلام والعرفان في العالمين .

ان التربية الاسلامية ذات شأو عظيم ، وغاية مثلى ، فهي تريد للامة المسلمة جيلا بريئا في طفولته ، واعيا في شبابه ، مستقيما متزنا رزينا . والمقصد النبيل للاسلام هو السهر على رعاية شبيبة مؤمنة طاهرة ، تعاف الجمود والتواكل ،

والفراغ والتعقيد ، لا اضطراب ولا ارتباك ولا حيرة في سلوكها ، تعرف الهدف الذي تسعى اليه ، تتشمر عن ساعد الجد ، وتحدد غايتها تتعمل لها باخلاص وتفان . ان الاسلام يريد أن تكون للشباب رجولة كاملة تتسم بالادب والشجاعة ، والعقل والنضج ، وتتصف بالخلق الرفيع ، البعد عن السفاسف والنوافه ، والتشور ، والقوقعيات . ان التربية الاسلامية ذات المناهج الواضحة ، هي وحدها المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها الا هالك . فعلينا ان نقدر هذا الكنز الذي بين أيدينا حق قدره ، فهو مصدر قوتنا وتراثنا ، وهو النور الذي يسري في عقولنا ، ويبث فينا روح الرجولة الفاضلة ، تلك الرجولة التي غرست في أجدادنا النخوة والشهامة وقيادة العالم ، والتي منها نقتبس اليوم الضوء والدفء ، للخروج من المازق الذي نتخبط فيه ، ولمحو العار ، وازالة الفضيحة التي لن تزول الا باستعادة أولى القبلتين وثالث الحرمين المسجد الاقصى الذي بارك الله حوله ، وبالقضاء على عصابات الفساد والتخريب الصهيونية ، وتحرير فلسطين المسلمة ، ورجوع الحق "لاوى الى أهله .

فلمثل هذا فليعمل العاملون ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . ولله الامر من قبل ومن بعد .

« لقد اتصف هذا النظام الملكي منذ قرون بالشجاعة الكافية ، تلك الشجاعة التي تعرف الرحمة والرأفة ، تلك الشجاعة التي لا تنبني الا على العدل وعلى العدالة تلك الشجاعة التي يتقدمها السراي الذي هو اساس كل عمل ناجح في هذا الشأن » .

جلالة الملك الحسن الثاني

الدعوة الإسلامية

للأستاذ محمد بن علي الكتاني

دق احد الاخوة الكرام ناقوس الخطر ، في مقال نشر على أعمدة هاته المجلة الغراء ، نبه فيه الى الخطر المحدق ، الذي يواجه الدعوة الى الله ، والى الاهوال التي توشك ان تلم بالمسلمين اذا هم لم يوحدوا صفوفهم ويعمل قادتهم لمواجهة هذا السيل العارم من العراقيل التي توضع في طريق الايمان والعقيده ، وانه ما لم يعمل المفكرون عملا جديا ، لمواجهة الحقائق بالدرس والعلم والنظر ، فسيأتي وقت تستفحل فيه المصائب ، وتتكرر النكبات .

وانه في سبيل هاته المواجهة يجب الا ننسى انفسنا ، وان ندرس احوالنا دراسة وافية وواعية ، وان نتعرف على مواطن الضعف ونحاول اصلاح الاعوجاج بكل وسيلة ممكنة ، حتى تكون انطلاقتنا انطلاقة مستمرة وهادفة ، تصل بنا — في نهاية المطاف — الى النتيجة المطلوبة . وان طريق الدعوة طريق شاق ومتعب ، يتطلب جهدا مستمرا ، ودراسة متقنة ، وتقييما دقيقا لكل الخطوات ، واخيرا التنسيق والتنظيم والعمل الجماعي ، والصبر والبعد عن الشقاق ، وكل ما من شأنه ان يفتت القوى ويحطم البنيان .

وهذه صرخة يجب ان نأخذها مأخذ الجد ، وان نعي غاياتها واهدافها ، وان نتبصر عواقبها وما تفضي اليه ، فقد اعتدنا ان تعتبر مثل هاته التحذيرات مجرد نداء عابر ، أو صيحة روتينية سرعان ما تتلاشى في خضم الاحداث ، ويطويها النسيان ، فلا نتحرك الا اذا داهمتنا الخطوب او وقع عطب ما .

ان موضوع الدعوة الاسلامية موضوع مهم وخطير ، لا يكفي ان نجعله في التخطيط ، او نستهين بقيمته اعتمادا على الحاسة الدينية المتوفرة ، او نتفاءل كثيرا بوجود حركة انتعاش اسلامية ، تتجلى في بعض الاوساط ، وضمن بعض الهيئات ، وفي نطاقات متسعة في أرجاء العالم الاسلامي . . .

ان خصومنا لنا بالمرصاد ، يتتبعون التحركات ، ويرصدون الانتفاضات ، ويترقبون الانتكاسات ، ويدفعون في التنظيمات ، ويبحثون عن الثغرات غير متوانين ولا متكاسلين ، مسفرين احيانا عن نواياهم ومتسترين في غالب الاحوال ، فاذا لم نأخذ الامور بحزم ، وظللنا كل واحد منا يغني على ليلاه ، وكل حركة او تنظيم يسير في الاتجاه الذي يرضيه ، وربما في اتجاه معاكس للآخر ، فسيأتي وقت نصبح فيه غرباء الوجه واليد واللسان !

واود ان انبه في البداية — لكي تتضح الرؤية وتنجلي الامور — الى الدور الذي تقوم به المجموعة العلمية التي وكل اليها امر الاشراف على الدين ونشر الدعوة ، والدفاع عن العقيدة ، وتنوير الافكار فيما يرجع الى السلوك والاخلاق ، وكل ما من شأنه ان يجعل امور الناس تسير سيرا حسنا ومستقيما ، فان هذا الدور — رغم اهميته — يستصغره الكثير من الناس ، ويهملون آثاره ونتائجه ، ويستنقصون من قدر القائمين به والمتحملين لمسؤوليته ، مع انه — بالاضافة الى غيره — أمر حيوي وضروري لنجاح كل دعوة .

ورغم انه لا توجد رهبانية في الاسلام ، ولا نظام طقوس يشبه الذي يوجد عند غيرنا من معتنقي الديانات الاخرى ، أو المؤمنين بايدلوجيات وتنظيمات عقدية ، حيث ان كل معتنق للعقيدة الاسلامية مطالب بان يصفي دينه وعقيدته ، ويتجنب كل ما يفسد هاته العقيدة شكلا ومضمونا ، لان الحلال بين والحرام بين ، لكن من الضروري ان يختلف الناس في مفهوم الاشياء

وان توجد مجالات تتيه فيها العقول ، وتضطرب فيها الافهام ، ولابد من وجود حصانة علمية ، ووعى قانونى يزيل الاوهام وينير الطريق ، ويبرز الحقائق دون غموض او اضطـــراب .

من هنا كان وجود العلماء ضروريا لفهم الدين وتوضيحه ، وابراز معالمه والذب عن حياضه ، وانارة الطريق امـــام معتنقيه والمتشبثين به ، كـــى يزدادوا ايمانا بقيمه ومبادئه ، ويطمئنوا الى أهدافه وتشريعاته خصوصا وان هناك قواعد شرعية مضبوطة ، نسمع عنها كثيرا ، لكن عند التطبيق يقع ما يقع ، بـــل يستغلها البعض استغلالا سيئا ، تنفيذا لمصالحهم ، وتدعيما لآرائهم ، كالقولة المشهورة « الاسلام صالح لكل زمان ومكان » وكالقاعدة المعروفة : « الضرورات تبيح المحظورات » .

ورغم صدق هذه المقولات وانضباطها مع أحكام الاسلام وتعاليمه ، الا أننا فى حاجة الى جهد جماعى لاستغلال ذلك استغلالا مناسبا ومفيدا ، لصالـــح المجموعات الاسلامية المنتشرة فى كل صقع من اصقاع الدنيا ، بحيث لا نخرج القولة الاولى عن مضمونها ، ونخالف — اعتمادا عليها — تعاليم الاسلام التى لا لبس فيها ولا غموض ، بدعوى مسايرة العصر والتكييف مع الزمان ! ولا نستغل الثانية للتحلل من المحرومات والابتعاد عن الواجبات بدعوى الضرورة العارضة ! وعلينا أن نكون متيقظين فنقف فى وجه المتحلل الذى لا يراعى اي شىء ، والمتشدد الذي قد ينحرف عـــن القصـــد .

من هنا كان من الضروري ان نفهم انفسنا اولا ، وان نصلح اوضاعنا قبل أن نتوجه لاصلاح اوضاع الآخرين ، وان نفهم ديننا الفهم الدقيق والواعـــى ، كى نتخذ العدة لمواجهة الانحراف ونقاوم الشر بأسلحة مناسبة ، ونزيل الزيف والبهتان ، بوسائل معقولة ، ونقف امام التحديات بصمود ، وقد اعددنا للمعركة كل ما تتطلبه من خبرة ومعرفة وتجربة ، ووسائـــل النجـــاح .

صحيح أن بعض العلماء والمفكرين والمومنين فى جل الاقطار الاسلامية ، يقومون بجهود مكثفة من أجل الدعوة ، ويتحركون تحركات نشيطة فى كل المجالات ويحاولون التوفيق بين العلم والدين ، ويبذلون كل ما فى طاقاتهم لتحرير العقل من اوهامه ، والانســـان من نزواته ، والحد من جموح الشباب الثائر الذي أغوته الدعايات الباطلة والايدلوجيات المسيطـــرة ، والمغريات المادية الطاغية ، والافكار المستـــوردة الضالة ، لكن هذه الجهود — وان كانت مثمرة — الا انها مبعثرة وغير منظمة ، بل احيانا تكون غير هادفة او تقوم بحملات وقتية حين يكثر الخطر أو يدق ناقوس الفتنة ، او يدعو داع لاسباب معينة ، حتى اذا مرت الازمة وخبا اللهب ، عاد الكل الى طروسه وبروجه ، وسكنت كل نأمة وخمد كل شعور .

وصحيح أن العالم الاسلامى يتوفر على طاقات فكرية خلاقة ، وان اصحاب هاته الطاقات مؤهلون للقيادة والتوجيه وبامكانهم تعميق الرؤية وتوضيـــح الصورة بكل أبعادها وظلالها ، وفرض الحقائق بطريقة معقولة وباساليب مقنعة . . . وصحيح انه توجد هيئات ومؤسسات تحمل مشعل الاصلاح وتسطر فى أهدافها بنودا وتضع فى مخططاتها فصولا ، وتعمل جادة لتوسيع نطاقها وتنويع نشاطها ، لكن — مع الاسف — عنـــد التنفيذ لا يظهر أي اثر ، وسيبقى المجال مفتوحـــا أمام الانحراف والشذوذ والحقد والتطلعات ، ويظل الباب مغلقا امام التحركات الهادفة والخدمة الجماهيرية . . . لا اريد هنا ان استصغر من قيمة العمل الذي يحصل ، ولا أن احتقر من قيمة العاملين المخلصين ، لكنى أريد أن اشير الى أن العمل الفردي مهما كانـــت نتائجه ومهما اعطى من مردود ، فلن يصل الى حصيلة العمل الجماعى المنظم والمحكـــم .

الى متى تظل الهيئات الاسلامية والمجموعـــات المثقفة والعلماء وسائر المنظمات تعيش هذه العزلة والعالم يتحرك والدنيا تقفز والحضارات تدفع كـــل يوم بجديد ، بل تصدر الينا كل ساعة ما يذيب الجليد، ويتلفل المزازين وحطم المثل والمبادىء .

الى متى واصحاب الفكر — عندنا بالخصوص — تحركاتهم تحركات روتينية محضة وبحسب المناسبات ، كأن لم يكن المغرب السباق الى كل المجالات ، المجلى فى كل الميادين ، الواعى بمسؤوليته عبر العصور ، المقدم لكثير من عباقرة الفكر وجهابذة المعرفة .

نحن نومن الا خلاص لهذا المجتمع الانسانـــى من الضياع والضلال ، الا بالالتزام بما أوجبه اللـــه وفرضه ، وان رسالة الاسلام هى فى نفس الوقـــت هدف ووسيلة ، وان الحرص على البحث والدرس فيما شرع الله ، وسن رسوله ضرورة لازمة لبناء مجتمع فاضل ومثالى ، واننا برجوعنا الى جذور الفكر الاسلامى

نستوعب ونستنبط ، نستطيع أن نمكن أمة الاسلام من مكانتها اللائقة بها ، وأن نجعلها رائدة للحضارة الحقيقية ، لا مقادة وتابعة ، ولا يتم هذا الا بتطوير الهيكل العلمي وازالة النشوز التي تطغى عليه ، وباحياء الفكر الاسلامي بنشر كتب اعلامه ودعاته ، وباحياء الاصالة الاسلامية .

نريد أن تهتم الكليات والمجامع الاسلامية بدراسة النظم الاسلامية عامة ونظام الحكم في العقيدة الاسلامية ، والاقتصاد والادارة والمعاملات والسياسة وكل مجالات القوة التي دفعت المسلمين الى مصاف العظمة في عهود الخلفاء والسلف الصالح .

نريد أن نعيد عهد الفقهاء الاكاديميين الذين كانوا يبحثون وينقبون ويستنبطون دون تحجر أو تعصب أو ميوعة بطبيعة الحال ، ورغم أن دعوة الاجتهاد والرجوع الى احياء هذا العنصر فيها مثال ومقال قد لا يتسع له المقام هنا ، لكن استعمال الرأي في نطاق التشريعات والقوانين ، وفي اطار النصوص الصحيحة والمقبولة منها لا يجادل فيه أحد ، خصوصا اذا توفر التكتل الممتاز والعقلية الخصبة والملكة الخلاقة .

جهود العلماء والمفكرين لا تخضع لمقاييس محددة وما انفكت الكتب تسترعي كثيرا من المشاكل التي تعترض سير العالم الاسلامي ، لا أريد أن أتعرض لكثير من الامثلة ، والامثلة حقا لا تعد ولا تحصى ، لكني أستعرض بعض النقط ، هناك — مثلا — مشكل الربا الذي يجب أن يحدد تحديدا دقيقا ، وأن نوضح في شأنه الحقيقة الاسلامية دون التواء ، وأن يعالج على ضوء العقيدة لا على ضوء الواقع ، وعلينا أن نبحث عن الحلول الجذرية لتلافي أخطاره ومشكله ، اما أن يظل التعامل به على هذا الشكل الخطير ، ويظل الناس يعيشون في متاهات لا نهاية لها ، بين من يحلل عناصر مثه ، وبين من يحرم ، فتلك هي الطامة التي يتحمل وزرها علماء الاسلام قاطبة. يجب أن يعقد مؤتمر على الصعيد العالم ، وتدرس فيه المشكلة دراسة واعية وموضوعية ويتخذ القرار الحاسم الذي لا يصادم العقيدة ويتمشى مع روح الاسلام واهدافه .

هناك التقويم الهجري والفوضى التي تنشأ اثناء التطبيق ، وكيف تتضح كيفية الاعتماد على الرؤية وما يتعلق بالمسألة من كل جوانبها الفقهية والفلكية . اما أن نرى قطرا اسلاميا يصوم يوم كذا والآخر يصوم بعده بيومين أو بقطر بيومين ، فهذا ما يدعو الى البلبلة ، اذ ليس اختلاف المطالع يستوجب كل هذا التفرق الواسع ! !

هناك مشكل تطبيق الشريعة الاسلامية تطبيقا كاملا ، استنادا الى الدساتير الاسلامية التي تنص أول ما تنص على أن دين الدولة الرسمي هو الاسلام ، فكيف نوفق بين ذلك والواقع ، وكيف نحارب القوانين الوضعية التي سدت علينا المسالك ، واستحوذت على كل التشريعات !

هناك مشكل الاختلافات الفقهية وكثرة الاقوال والآراء التي تجعل الخلاف أحيانا بين المذاهب يكاد يكون جوهريا ، مع أن الاصول واحدة والاساس الذي اعتمد عليه لا يخرج عن مصادر التشريع المعروفة ، ويكون أحيانا الحديث النبوي صريحا كل الصراحة ، ومع تقديرنا لاجتهادات العلماء والاعلام ، وايماننا بنيتهم العلمية ويقينهم الصادق وحرصهم على خدمة الدين ونشره ، فان وجود هاته الاقوال وعلى الاخص بالنسبة للتلاميذ هؤلاء المجتهدين الكبار ، يبعث نوعا من الاضطراب ، وعلى الاخص في وقت نحن أحوج ما تكون فيه الى وحدة الصف ووحدة الرأي ، فلا اقل من أن يتفق علماء الاسلام على موسوعة فقهية منتقاة ، ويعمل على تنفيذها ، وبذلك نتلافى — شيئا ما — هاته العراقيل التي نقف في وجه الباحث المعاصر الذي لم يتعود على هذه المنهجية !

في الحقيقة لا أريد أن اتابع تعداد المشاكل التي تعترض طريق الصفاء الروحي ، وتضييع وقتا كان يجب أن نصرف في توسيع الدعوة وتوضيح أهدافها ، لان توحيد الجهود وتنظيم القواعد أمر ضروري للنجاح ، فاذا كنا حقا نريد القيام بهذه المهام الملقاة على عاتقنا ، واذا كنا نريد القيام بها على الوجه الاكمل ، فيجب أن نعد أنفسنا اعدادا كاملا ، وعلينا أن نتجنب الصعوبات والعراقيل التي ظهرت أثناء التطبيق ، وأن تكون عاملين ومنتجين في كل تصرفاتنا ، حتى لا يجد الاعداء وسيلة للنيل منا ، وحتى تكون دعوتنا في مستوى الغاية التي نستهدفها ، وهي اعلاء كلمة الله وتحقيق الطمأنينة والفضيلة ، ونشر الاخاء والمحبة بين الجميع ، وليس ذلك علينا بعزيز اذا عرفنا كيف نستغل الظرف الذي نعيشه ونستفيد من الخيرات والتطور والامكانيات لمحاربة كل زيف وتسفه كل مخطط يريد محو وجودنا وابعادنا عن الساحة .

فاس : محمد بن علي الكتاني الحسني

خير الدين الزركلي

المجاهد الأديب الدبلوماسي .

للأستاذ محمد بن أحمد الشاعر

لن يبعث فينا اليأس والقنوط ما نراه في يومنا — نحن الامة الاسلامية — من تخبط وانحراف وانزلاق ... فالزيغ ليس قاعدة في سلوكنا وانما هو شذوذ ، ليس من صميم حقيقتنا وانما هي تشور ، على هذا ، قد يكون من بين المتخبطين والمنحرفين والمنزلقين اليوم ، أهل رشاد واستقامة وهداية غداً ، فان لم يكن ذلك منهم فسيكون من أبنائهم ، والا فمن أحفادهم ، أو أحفاد احفادهم !

ان أمتنا الاسلامية قامت على أسس ثابتة من العقيدة والسلوك القويمين ، فالنبي صلوات الله وسلامه عليه ادى رسالته الخالدة كاملة وافية بعيدة الاثر ، والخلفاء الراشدون والتابعون — رضي الله عنهم — ادوا دورهم بكل ما يستطيعون من وفاء وتفان واخلاص ، واولو الامر — بعد ذلك — قاموا بدورهم ايضا بكل ما في مكنة بشريتهم من الجد والاجتهاد والاباء والصمود .

وجاءت الامور بعد ذلك عن حالها ، ووقع بالامة الاسلامية ما قدر لها من العجز والخلل والضعف والانكماش ، لكن الاصالة بقيت ثابتة متحدية ، حتى اننا لم نعدم في اي عصر — حتى في العصور التي تسمى عصور الانحطاط — اميرا شهما ، او مصلحا غيورا ، او عالما مجتهدا جريئا ، او اديبا ملتزما جهير الصوت . . على هذا كان العجز والخلل والضعف والانكماش ، ولم يكن الانهيار ولا الذوبان ولا الفناء .

نحن نعلم ان عدة حضارات وامبراطوريات انقرضت : الفرعونية منها والفنيقية واليونانية والرومانية ، وصارت اياما واخبارها تروى من قبيل الاساطير ، في حين ان الامبراطورية الاسلامية لم تضمحل ، لم تذب ، لم تندمج ، بل انها صمدت ، ثم أخذت تتجدد آدابا وعلوما وفنونا وعمرانا وتحضرا ...

ان اتصال حلقات المجد الاسلامي منذ عهد النبوة وحتى الآن لسر من اسرار الوجود ، وخفية من الخفايا التاريخية الكبرى . ان الايام — ولا شك — لتذخر منه لعهد آت ، ربما تطغى فيه الموجات الالحادية الجاحدة الكافرة بكل القيم ، الا بقيمها المادية الجاثة الحقود ، وربما تسود فيه الاساليب الرأسمالية بخططها المسيطرة ، المطبوعة بالانانية ، والتي تهيمن بفرديتها العاتية ، فتستغل كل الجهود ، وكل المواهب ، وكل القدرات ، وكل القوى لمصلحتها الخاصة ... وعندئذ لا يبقى من علاج سوى الاسلام ومبادئه .

ان الحلقات النورانية التي ابقت هذه الامجاد متصلة بمثلها افراد ماجدون وجماعات فاضلة ، كل فيها يتسم بالتفضل والاريحية وتكران الذات ، والتضحية باصدق معانيها ... فجدير بنا أن نذكرهم بما هم أهل له من الخير ، وان نترحم بنبضات قلوبنا وحرارة مشاعرنا على الكثرة الكاثرة التي انتهت من الدنيا ، وانتقلت الى جوار ربها الكريم ،

وندعو للقلة القليلة بمثل ذلك ، ليمد في أجلها ، ويهبها العون والسلامة .

احد هؤلاء الماجدين غادرنا منذ شهور ، وترك حسرة عميقة في النفوس ، ذلكم هو الراحل المرحوم الاستاذ الفاضل السيد خير الدين الزركلي ، المناضل ، المؤرخ ، حافظ الامجاد ... لا نقول عنه انه كان (دوليا) بسبب أن أصله من قطر عربي ، وانه نشأ وتعلم في آخر ، وغامر وناضل في ثالث ، ونال مكانة سامية في رابع ، واستطاب المقام في خامس ، هذا الخامس الذي هو قطرنا السعيد المغرب ، المغرب الذي أمضى فيه عدة سنوات بردة سفير ، سفير سياسي ، وسفير أدبي ، وسفير انساني رقيق الشمائل ، طيب العشرة ، كبير المقام ... لن تعطيه الصفة (الدولية) لان رابطة الديانة الاسلامية والرابطة القومية لمتن من كل الروابط الاخرى واعمق واصدق .

ثلاث وثمانون سنة هي عمر الفقيد ، وكانت عامرة ، نافعة ، آخذة من الخلود باسباب متينة :

- جهاد في سبيل الامة العربية ومقاومة للاستبداد والاستعمار .
- مهام سياسية وادارية مع البيت الهاشمي ، الذي كان يمثل في فترة من الفترات امالي الامة العربية .
- نشاط صحافي متواصل ، تمثل في اصدار عدة صحف ، الواحدة بعد الاخرى .
- فيض من الشعر العذب الرصين ، تغنت به الاجيال .
- مهام سامية في التمثيل الدبلوماسي لدى الجامعة العربية ولدى الامم المتحدة ، ولدى بعض الدول ، آخرها تمثيل السعودية الشقيقة بالمغرب .
- صقل الموسوعة الخالدة (الاعلام) ، واعدادها نهائيا في ثلاثة عشر جزءا لتوضع في سجل الخلود للامة العربية الماجدة .
- تدعيم الفن القصصي بقصة شعرية تحت عنوان (ماجدولين والشاعر) وملحمة قصصية شعرية (العذراء) في مائة وتسعة عشر بيتا ثم قصة تمثيلية تحت عنوان (وفاء العرب) .

الم نقل انها حياة حافلة مزدهرة ثرة ، متنوعة المواهب خيره العطاءات ، يقل نظيرها ...؟ لقد حرت العاده ان بعض العلماء والباحثين يعتذرون بشؤونهم عن الخوض في المعامع الاخرى ، وان رجال الجهاد والانغمار السياسي يقضون ايامهم في الترصد والمقارعة والجدل ، وقلما يتيسر لهم الابداع والبروز في الميادين الاخرى ، وان رجال الدبلوماسية يستغرقهم العمل الدبلوماسي ، وان كان لهم من انتاج فكري فانه قليل ومحدود ، ما اشبه بزهر البرتقال البديع الفواح ، الذي لا تراه الا اسابيع معدودة كل حول ... بينما رجلنا الفذ انكب — رغم اعبائه — على قرض الشعر ، وتحبير النثر ، حتى اصدر كتاب (الاعلام) الذي احد من اشاعر اربعين سنة !

واني لاتصور المعاناة الكبيرة التي عانيها الكاتب وهو المؤرخ الباحث المحقق فيما يتعلق بالمراجع والتي تعد بالمآت ، انظروا لانحتها في الجزء العاشر من الكتاب المذكور ، ان مصاحبتها او ملازمة القرب منها — وهو الدبلوماسي الكثير التنقل — امر عسير ، وتركيا بعيدا امر اعسر واكثر مضايقة ... ولكاتبي بالكاتب الماجد متحمل كل صعب وعسير في سبيل موسوعته ، بل موسوعة الامة العربية .

وان شئنا الحقيقة قلنا ليست موسوعة الامة العربية بل هي موسوعة الامة الاسلامية الصامدة ، وموسوعة كل من له صلة بهذه الامة من قريب او من بعيد ... لقد وجد ان آثار هذا المجد مبعثرة بين الكتب والفهارس ، او موضوعة بين ايدي مستشرقين واشباه مستشرقين يجيدون البحث والاستقصاء ، ولكنهم لا ينسجمون روحيا ونفسيا وعقليا مع تلك الامجاد ، فهم ان كتبوا فانما يكتبون ما يعن لهم ، يكتبون وكفى ، مجتهدين في ان يتغلبوا على عواطفهم وميولاتهم ... فكيف لا يتقدم غيور نبيل مثله ، ومناضل اهدر دمه مرتين ، عندما حكم عليه الفرنسيون بالاعدام ... كيف لا يتقدم للقيام بهذه المهمة ؟ بلى ، لقد تقدم ، وتحمل العبء ، وكان الله في عونه ، والتوفيق في ركابه .

ويذكر الناس الاستاذ الزركلي مقرونا اسمه بكتاب « الاعلام » وينسون فيه الشاعر الذى هز المحافل والمجامع بأشعاره ، والهب المشاعر وحرك الغيرات الوطنية ، وترك أبياته ومقاطعه ومقطوعاته تسير على كل لسان . اقرأوا هذه المقطوعة :

يـــا زمـــان

متى ترى تبسم لى ، يا زمان !
الاحسان !

اسلمتنى لا انس لى ، لا امان !
للحدثان .

عيناى ، لما تبرحا — تجريان
تضاحكان

ابكى ربوعا ، لا تطيق الهوان
زهر امتهان !

* * *

ابكى ديارا ، خلقت للجمال
ابهى منال

ابكى تراث العز ، والعز غال
صعب المنال !

ابكى نفوسا ، قعدت بالرجال
عن النضال !

ابكى جلال الملك كيف استحال
الى خيال !

* * *

ما لرحابى ، وجنان الرحاب
آضت بباب ؟

ما لبنيها ؟ كلهم فى اكتئاب
اسرى عذاب !

اين اولو طعانها ؟ والضراب
اين الحراب ؟

ما بال شيب عربها والشباب
غير غضاب ؟

* * *

ضاعت بلادى ، يا زمان الصغار
والاندثار !

الناس يبنون ، وما فى الديار
غير البوار !

اما ترى الغرب تعى ومار
فوق البحار ؟

وامتى هوية فى انحدار
بئس القرار

* * *

اين بنو هاشم الاولون ؟
اين البنون ؟

اين بنو امية الفاتحون ؟
يستقمون !

اين بنو العباس ، اهل الفنون ؟
يحتكمون !

اين بنو فاطمة الغابرون ؟
هل يبعثون ؟

* * *

يا زمن الشؤم سقيت الشآم !
كاس الحمام

القبلتان اشتكتا والسقام
معا نسام

الى متى نبقى اسرى انقسام ؟
ونستضام ؟

* * *

المقطوعة — كما رأينا — ذات روي شعري حديث ، ولكن الموضوع طافح بالغيرة والحماس واستنهاض الهمم ، ولا عجب ولا استغراب فالشاعر ليس — في كل حين — من الخياليين التجريديين المحلقين في الاجواء ، ولا هو من المتاقلين بالاقوال ... خذوا هذه أيضا :

وطني ، طال بكائي ... والأسى مما عراكا
أترى تنعم سمائي ... وكما أهوى أراكا ؟
حاولوا مسك بأس ... وء ، وهموا بأذاكا
أبعد العز والمنعـ ... ـمة يبقون رماكم !
انا لا أعشق ، مما عشـ ... ـق الناس ، سواكا !
فيك محياي ، ومنوى ... أعظمي تحت لواكا

وتقدم رجل القضية العربية الاحرار أرواحهم فداء لأوطانهم ، لما علقوا على المشانق ، أو وجهت فوهات البنادق الى صدورهم الفتية ... انهم معه على نفس الخط ، والاحكام التي نزلت عليهم قاسية نزلت عليه كذلك انما الاجل تراخى عليه ، وفاضت عنه الحسرات على الزملاء الهالكين :

تنعى نائب العرب شبانها
فتجدد بالنعي احزانها !

بكى كل ذي عزة تربه
فتهاج نزارا وعدنانها

وهل لوم الحر ان لا يثور
ويدفع للحرب فرسانها ؟

فجائع ، هن حديث القلوب
وهيهات تستطيع سلوانها

والشاعر ، ككل ذي ضمير حي ، يشارك الانسانية آلامها واحزانها ونكباتها ، ولذلك كتب هذه القصيدة الخالدة ، التي تداولتها الاجيال ، كهولا وشبانا ، وحتى الاطفال اخذوها محفوظة في مدارسهم :

لم تغب يا قمر !

لم تبق يد الحادثات ولم تذر
فعلى م تضحك في سمائك يا قمر ؟

أرأيت نائبة عنى أزاحمها ؟
فأتاة بغورها وحجابها
خلابة بدلالها وعذابها
فلابة بحديثها وخطابها
ذهب الزمان بمالها وشبابها
وتفردت بأنيقها ومصابها

فاجتك شاكية تصاريف القدر
وظلت تضحك في سمائك يا قمر !

أرأيت بين عساكر الاغلام ؟
مرسلا أو مستجد نظام
ما كان يعرف بهجة الايام
حتى رماه من الفوادح رأمي
فهدت اليه توارع الآلام
فبكى الفراق مودعا بسلام

عهد النبوغ وصوغ آيات العبر
ونعمت تؤنسك الكواكب يا قمر !

أشهدت من غسق الظلام غريبا ؟
ملأ الفضاء تفجعا ونحيبا
نادى أحبته ، وعاش كئيبا
قلق الجنان على الزمان عشوبا
والدمع يجرح مقلتيه صبيبا
يرعاك مضطرب الجوانح والفكر
وتنيه في خيلاء كبوك يا قمر !

ومعاقرا خمر الصبا يترنح
كالظبي يسكن في الرياض ويسرح
يلعو بزورقه الصغير ، ويسبح
في سلسل كالنور ، أو هو أوضح
تزنت به هوج العواصف تطرح
فهوى ... ووجه الموت أكدر أكلح
وله على صفحاته جدوله أثر
وحلوت ، ترعى في نجومك يا قمر !

أسعفت أنات الجريح ممددا ؟
يطوى الليالي ، لا يقر مسهدا
لا العيش طالب له ولاالشقاق الردى
يمسى ويصبح شاكيا متنهدا
ضمنت ثواه ، نما بطيء تجلدا
ونعايت الزفرات ان تتصعدا

غنى الجفون وقل : حسبك يا غير !
وسهرت تبسم للكوارث يا قمر !

أشهدت من كرة الشتاء كتائبا ؟
وأسنة وحماجة وثوائبا
حيشان ، كل حب بدمي حابا
يطاحنان ، تساعدا وتقاربا
هد يثن ! وذاك نفسي صاخبا !
وبح الحطائم ، كم بجر معاطبا

بني التنوس ، وأنت تهزأ بالخطر
ويغرك الالق المحبب يا قمر !

أرعاك ميتش شكا الم الطوى !
ومروع ضل السبيل ، وما غوى
ومتوج ، عنت الجباه ، له هوى ...
عن عرشه ، لا الملك دام ، ولا التوى
ومسود مستسلم لهوى الغوى
ومعذب لفراقه بادى الجوى

وتسوت ، هل قنعت ضلوعك من حجر ؟
لم تحتجب ، لم ترث ، لم تف يا قمر ! !

نفثات حرى من صدر عامر بالشعور الانساني الدافق ، وهو شيء معهود في المثقف العربي الاسلامي ، الذي لا يعرف أي معنى للتحجر والجمود العاطفي والتفكير الاقليمي الضيق ... فمنذ كان وهو المتجاوب مع الثقافات الاخرى الفارسية منها والهندية واليونانية في القديم ، ومع الثقافات الفرنسية والانكليزية والاسبانية وغيرها من العصر الحديث ... هذا مع الاجانب ، أما التبادل الثقافي في انحاء العالم العربي فشيء فريد من نوعه في انحاء الدنيا كلها ، حتى ان البحراني يكتب فيجد لكتاباته صداها عند المغربي ، ويكتب التونسي فيقرأ له العراقي على بعد الديار ، انهما الاخوة الفكرية والوجدانية الثابتة ، رغم تقلب مظاهر الاخوة الاخرى !

في هذا النطاق رويت لشاعرنا الابي المخلص هذه الابيات من قصيدة طويلة ، تضمنت عواطف غالية نحو بلادنا وأهلنا ، وما غلاء هذه العواطف الا كونها صادرة عن شخصية عزيزة غالية :

أحب بلاد الناس ، للناس ، موطن
كصلق زلال الماء ، يجدى ولا يكدى

وأشرهها عندى حمى يقظ النهى
بيثب على رشده ويصحو على رشد

سماء ، رباط الفتح ، في كل منتأى
سمائى ، ولو أوغلت في النند والهند

ومن نسيم ، الرقراق ، نشوى ولا طلى
وفي شاطئيه نفحة الرند من النجد

ولى في ، سلا ، اخوان صدق ، وحولها
الى رشاقة ، صانوا وصنت لهم عهدى

ومن كان ودى منهم ما عرفته
فهل انا مخلص لهم ودى ؟

وان الذى عند الاحبة منهم
تعمت بلقياهم ، من الشوق ، ما عندى

شكرا ايها الماجد ، انك رأيت فينا أكثر مما ترى في انفسنا ، واننا لنعتز بكلماتك الطيبة ، لانها تابعة عن ضمير صادق .

أيها الراحل الكريم :

ان هذه الربوع من وطنك الاسلامي — العربي الذى وهبته جهادك وراحتك ، علمك وأدبك ، قلمك ولسانك ، لباقتك ومروءتك ، سموك وتواضعك ... ان هذه الربوع لتحفظ ذكراك ، وترسل — على بعد الديار — ابتهالات الرحمة والرضوان الى ضريحك الطاهر ، سائلة الله واهب الثواب والغفران ان يجزيك خير الجزاء ، وان يسكنك فسيح الجنان ، مع النبيئين والصديقون .

محمد بن أحمد الشماخو

مأساة الخنفسة ببلادنا

الأستاذ عبد الحق المريني

« مرت مطاحن الحروب في العقد الاول من القرن العشرين تسحق البشرية وتدمر مدنيتها وظهرت آلات الدمار والابادة الجماعية تلتهم الاخضر واليابس » . وعندما وضعت هذه الحروب أوزارها غدا الانسان متذمرا من تبعاتها فارتمى — « لكي يتخلص من شيطان الحرب الذي جثم على صدره » — في خضم حضارة آلية مادية بمعزل عن كل فضيلة ودين وقيم ومثل واخلاق . فوقع هذا الانسان فريسة لانحرافات جارفة وفلسفات جامدة اضلته الطريق السوي وزحزحته عن فطرته ووافقه الاصيلين واسقطته في حضيض البهائم فاصطدم بالمادة والوجودية والالحاد والحيوانية فلصقت به ونفذت الى روحه فاعدمتها ، وتركته مضطربا حائرا فلقا يهيم في كل واد ، وصيرته آلة مسخرة بدون ارادة او وازع او ايمان . فكان مولد « الخنفسة » وكان ميلاد « الخناقس » !

فما هي الخنفسة اذا ؟ هي موجة من الالحاد والتمرد واللامبالاة والانحلال الخلقي والاباحية في الجنس والخنوثة والتنكر لمبادىء التربية والقيم الاخلاقية — زاحفة — تلتهم الشباب التهاما . ومن هم الخناقس ؟ انهم المتمردون على كل فلسفة ودين وخلق ومجتمع ، انهم العاصون المتسكعون المدللون ، انهم المنطلقون نحو السراب ، التائهون على وجه البسيطة ، السابحون في خيالها ، انهم « ابطال ماساة « بشرية تنكروا لاسس المجتمع الانساني وهزؤوا بمؤسساته واخلاقه وارادوا العودة الى الحياة البدائية استخفافا بالنظم والمجتمعات والطبيعة الانسانية المتحضرة » . انهم الجبناء المتخاذلون الذين ركنوا الى الفراغ والسكينة وفروا من مواجهة الواقع ولجاوا الى المخدرات والافيون ليبعدهم عن التفكير في مشاكل الحياة القاتمة ويصعد بهم الى جو الاحلام الواهية .

فما بال بعض شبابنا المغربي ينمو هذا النمو المعوج و « يتخنفس » « وقد أطلق شعره ومارس الاباحية وعبر عن يأسه بالتزفار الكهربائي » . وهو ليس وليد حضارة مادية مجردة او فريسة قلق مستمر من شبح الحرب والفتنة او ضحية ماساة خانقة ؟ .. انه التقليد الاعمى لكل وارد من الخارج قد سهل لجرثومة « الخنفسة » التسرب الى بعض البيوتات فحطمت اصالتها ، وافسدت اخلاقها ، وهدمت كيانها ؛ انها التربية المنحرفة في البيت والشارع ، انه التوجيه المتنكر لشخصية الامة وتاريخها ومقوماتها وحضارتها ؛ انه تناسي واغفال كل فضل لهذه الامة على ابنائها ؛ انها دعوة الانسان — الغير الموجه الوجهة الصالحة — الى ما ينير غرائزه ويشبع رغباته الحيوانية في الثورة على كل قانون ، في الثورة على كل تاريخ وقديم ، في الثورة على كل فلسفة ودين ...

ان هذا السيل الجارف من الانحلال الديني والخلقي لا يمكن صده الا بتخطيط بعيد المدى

لتربية وطنية رصينة من أجل التمسك بقواعد الاخلاق والدين ، والايمان بعظمة الماضي وأصالة الحاضر ، ونبذ كل تافه رديء لا يقوم على المنطق السليم ، وابعاد شبح المذاهب « الرخيصة » المستوردة من الخارج ، ورفض الانجراف مع « الهاربين الحيارى المضطربين اللامنتمين العائمين في حياة بوهيمية سافلة » ، المستهترين بكل نعمة وفضيلة .

ان حضارتنا وقيمنا ومقدساتنا وتقاليدنا تأبى أن تحتضن مثل هؤلاء « الخوارج » عن سنن الطبيعة وناموس الحياة وقوانين التطور الحضاري والفطرة التي فطر الله الناس عليها . بل انها تحتم خلق جيل مغربي مؤمن ثابت ، مفكر واقعي ، ثائر على التخلف الفكري ، داع الى الخير والمحبة ومخطط للمستقبل الجميل ، منادٍ الى العمل المثمر البناء السليم .

ان الدواء لهذا الداء هو العودة الى أضياء الايمان : « الايمان بوجود قوة الله كمصدر للحياة » ، والايمان « بالدستور الخلقي الالاهي الذي سنه الله في كتبه المتعاقبة » ، والايمان بالحضارة الانسانية والاطمئنان الاجتماعي والسعادة الاسروية . ولله در أحد المفكرين حيث قال : « ان أقسى أشكال الضياع ، ضياع عن طريق الله ، وأجمل صورة العودة ، عودة الانسان الى رحاب الله ، وما أروع العودة الى الايمان بعد الضياع في مسارب الالحاد ومتاهات الضلال » ولكن ، أنك لا تهدي من أحببت ... ولكن الله يهدي من يشاء !

الرباط : عبد الحق المريني

قصة فكاهية :

قنبلة ذرية

صنعت بمراكش

للأستاذ أحمد عبد السلام البقالي

تحت عنوان (شاطىء الغيب) يضع الكاتب قصصا سمعها من رواة موثوق بهم ، تدور احداثهـا فيمـا يسميه علماء الغيب (بمنطقة الفسق) أي المنطقة الواقعة بين الحقيقة الملموسة ، وعالم الغيب ، أو عالـم الروح والماورائيـات .

ورغم ان هذه القصة يطغى عليها الطابع الفكاهي ، فالحدث الرئيسي فيها واقعي يحكيه ويؤكده عدد من اهل مراكش الذين عاشوه ، وخصوصا أصحاب الحرف من الصناع التقليـديين .

لن ادعي ان هذه القصة واقعية .. فهي مـن النوع الذي تقول عنه انه أغرب من الخيال .. ومـع ذلك فالسي « العربي الخليفي » يقسم براس امه انها وقعت في ايام شبابه وهو مستعد للحلف في محراب الجامع الكبير ، وتكحيل عينه بنقارتها ..

لن تستطيع تكذيب رجل يفعل كل هذا ..

التقيت بالسي « العربي الخليفي » على شاطىء البحر . كان الوقت مساء صيفيا جميلا ، وكنت عائدا من مشيتي اليومية الى كهوف الجنوب حين لمحت دخانا كثيفا وراء صخرة قرب الماء تسميها « حجرة مـرزوق » .

ومنذ طفولتي وانا معجب بالنار .. تجذبـني اليها كما كانت تجذب الانسـان الحجـري الاول ، ويفتنني منظر لهبها والسنته تتراقص دائبة باهرة ..

وصعدت الصخرة ، واشرفت من فوقهـا على مكان الدخان ، فاذا السي « العربي الخليفي » متكئا في جلسة شاعرية يدخن « السبسي » وينظـر الى الافق الاحمر في نشوة صوفية خاشعة ..

وتشجعت لاشعره بوجودي ، ثم قلت :

— السلام عليكـم ..

والتفت الي ، فاظهرت المفاجأة لرؤيته :

— ؟ السي العربي ؟ كيف حالك ؟

ونظر الي بعينين شبه مقفلتين نظرة بعيـدة ، ورد بابتسامة مسخـرة :

— سلام .. وعلى الله .. وبركاته .. أشخ — بارك ، أودي ، أش — شريف ؟

— الحمد لله .. هذا منظر جميل ..

— حقيقة .. الم تسمع قول الشاعر : شمس الاصيل .. يالالان ، يالالان .. ؟

وبدأ يترنم بمقطوعة من الآلة .. وفي هذه اللحظة انضم الينا صديقي « السي حماد » الذي كان هائما بين المروج يبحث عن « المراين » والاخطبوط ، ولم يصادف حظا ..

نزل بساقيه العاريتين دون ان يسلم .. كان يحمل عصا غليظة في يده فوقف ينظر الى السي « العربي » نظرة من يحاول البحث عن شتيمة مناسبة ، ثم قال لي ، وهو يشير اليه بعصاه :

— ماذا تفعل مع هذا ؟

قلت :

— الله يأودي .. السي العربي .

وقاطعني قائلا :

— كنت أظن انك فاتحا « ماكينة غناء » قديمة فاذا بهذا يغني لك « الالة » ..

وبدأ يشير نحوه بالعصا كأنه يريد ادخالها في بطنه ، والآخر يرفع يده على مهل ويقول :

— انعل الشيطان السي حماد .. ان .. ان .. انعل الشيطان أودي ..

واخيرا توقف .. السي حماد عن المناوشة ، وقال له :

— احك للاستاذ ما كنت تحكيه لابي بالامس ..

فقال :

— ماذا حكيت له ؟

والتفت الى « السي حماد » وقال :

— هؤلاء الحشاشون ينسون اسماءهم .

والتفت اليه :

— كنت تحكي له عن الحلم الذي رأيته ليلة امس .

ورفع السي « العربي » رأسه وقد تذكر :

— أيه الحلم . انت لم تصدقني على اية حال ، لماذا اذن احكيه لك ثانيا ؟

— سنحكيه للشريف ..

ونظر « السي العربي » الي ثم الى البحر وسكت . فنخسه « السي حماد » في ضلوعه بيده ، فصاح هذا بصوت خافت مكبوت :

— الله — ضلوعي .

والتفت يقول ويشير الى « السي حماد » :

— اشهد عليه ! الشريف .. امشي في حالك الله يهديك .. ابعد عني .

ونظر اليه « السي حماد » ثم اختطف عمامته وهدده برميها في البحر وهذا واقف يمد يديه ليتلقف العمامة ويستعطفه الا يرميها :

— ! انعل الشيطان « السي حماد » انعل الشيطان أودي .

واخذت العمامة من « السي حماد » فارجعتها الى صاحبها ، وودعنا « السي حماد » مهددا انه ذاهب الى « القرية » وعائد بعد لحظة .

— وجلس « السي العربي الخليفي » ينظر الى البحر ويتمتم بكلام لا اسمعه .. واخيرا انحنيت عليه أنصت وقلت :

— اه ! هل تخاطبني « السي العربي » ؟

والتفت الي قائلا :

— كنت اقول لك عن « منامة » الامس ..

— ايه .. اريد ان اسمعها ..

— « منامة » عجيبة .. لقد بعثني الله هنا فوق هذه الصخرة ، والبحر صامت كأنه لجين ساكن ، وفي لحظة هدوء وتأمل بعث لي الله انسانا على فرس ابيض ، لابسا حلة بيضاء وقد اشرق وجهه نورا حتى اضاء ما حوله ..

قلت أنا : ما ترى من كان ذلك ؟

قال : والله لا ادرى .. الله اعلم .

قلت : سيدي احمد المرزوق ، تعتقد ، هذه صخرته ..

قال : لا ، لا ، لا .. هذه صخرة مرزوق الحوات .. صانع الاوتار ، أوتار « الجمبري » من مصارين القطط وليس « الولي الصالح » الذي تعرف ..

قلت : اذن هو سيدي احمد المتسور .. ضريحه هناك خلف السور .

قال : لا أبدا .

قلت : اذن مولاي عبد القادر الجيلالي .. انت من اتباعه ، اليس كذلك ؟

قال : « شاى الله » امولاي عبد القادر . ولمس بيده جبينه وفمه وصدره ـ ولكنه ليس هو ..

قلت : وكيف عرفت انه ليس هو ؟

قال : هل يخفى على وجه مولاي عبد القادر الجيلاني ؟ وانا اراه كل صباح في دكان « سي المختار الحجام » ؟ .

قلت : مولاي عبد القادر في دكان السي المختار الحجام ؟

قال : اعني صورته ، الصورة التي هو فيها بلحيته السوداء راكبا على فرس اسود وهو يفلق رأس السبع بسيفه المسلول .

قلت : كنت اظنه سيدنا علي ..

فنفى ذلك براسه قائلا :

ـ سيدنا علي يرشق راس الغول ، بسيفه المرشوق . وفي صورة اخرى يجلس وعلى يمينه سيدنا الحسن وعلى يساره سيدنا الحسين .

قلت : ! .. كيف اذن يخفى عليك ؟

قال : هذا الذي بعث الله لي في المنام له لحية بيضاء كالحرير ..

قلت : اذا لم يكن مولاي عبد القادر الجيلالي ولا سيدي العربي غيلان ولا ، ولا .. اذن لم يبق الا سيدنا « دكدعة ابن الاكيغ » .

وملت بوجهي حتى لا يلاحظ قرب انفجاري .

قال : مستغربا ومشمئزا : من هو هذا ؟

قلت : سيدنا « دكدعة ابن الاكيغ » ؟

قال : وماذا كان ؟ الكعكعة او ما اسمه ؟

قلت : لا ادري .. لعله كان رجلا طويلا بلحية بيضاء يظهر للناس في المنام ..

قال : لا .. لا .. لال ..

قلت بجد : « السي العربي » لم يبق الا الحبيب صلى الله عليه وسلم .

فقال : صلى الله عليه وسلم .. ولكني اعرف وجه الحبيب من احاديث السيرة ..

فقلت متحديا : اذن لم يبق الا الحق سبحانه .

فرفع عينيه نحو السماء قائلا : ما اجله ، واعظم شانه .

ونظر الي طامعا في ان اصدقه وقال :

ـ لا ادري أوالله الشريف ، من كان ذلك الذي بعث الله الي .. والذي انا منه على يقين هو انه صاحب مقام رفيع ..

قلت : الحاصل .. ماذا فعل لك ؟

قال : رايته آتيا يركض فرسه الابيض على سحابة بيضاء من جهة الشرق .. وحينما اقترب مني وانا كما بعثني الله جالسا على هذه الصخرة ، نادائي بصوت جهوري عظيم : « يا فلان » قلت : « نعم يامولاي » قال : « اقترب مني .. » .. قلت : « حاضر يا مولاي » قال : « مد لي يدك » قلت : « ها هي يا مولاي » ومددت يدي اليه مبسوطة هكذا.

كان « السي العربي » يحكي وعيناه مغمضتان وهو باسط كفيه الى السماء .. وفي نفس اللحظة خرج « السي حماد » الذي كان مختفيا خلف الصخرة ينصت الى حديثنا ، فوضع اصبعه الوسطى في كف

السي العربي قائلا :

— هـــذا ما اعطـــاك .

وافاق السي العربي من نشوته الربانيـــة على حركات السي حماد الشيطانية .. وما كاد يفتح فمه بالاحتجاج حتى نزلت على كفيه ضربة شديدة مـــن عصا السي حماد ، الذي قال :

— هذا جزاء من يكذب على الله .

فصاح السي العربي بصوت خافت مكبوت :

— ايما يمـــا .. ايدي يسدي يـــدي .. اولد الحـــرام .

وحاول أن ينهض من مجلسه لينتقـــم لكرامته فارجعه السي حماد الى مكانه بدفعة على رأســـه ؛ ورفع العصا يهدده بالضرب اذا حاول القيام ..

وهنا تدخلت فانتزعت العصا من يد الـــي حماد، ودافعته في محاولة لرد الاعتبار للسي العربي الذي كان يحاول الخروج من ضباب الـــبسي بطريقـــة اضحوكة كيشوتية ! مضحكة ..

ووقفت بينهما ، وكلاهما يحاول ، غير جاهد ، الانقضاض على الاخر ..

وفي اللحظة نفض السي العربي الخليفي جلبابه الصوفي ، واعاد عمامته التي كانت حول عنقـــه الى مكانها من رأسه ، ووقف يمد يده الى السي حمـــاد ليراها بجميع ما طبع عليها عمر كامل من الخزازة من بوء وتعليبات ، مبهما ومهددا :

— لا تستهين ياولد « السي العربي » بهـــذه اليد .. ففي امكانها صنع قنبلة ذرية !

فاستشاط السي حماد مرة اخرى وصاح :

— ها هو يعود مرة اخرى الى اضاليله !

ثم رفع عصاه ونادى ، وكأنه يخاطب جمهورا من امواج البحـــر :

— اجهـــزوا عليـــه .

ورفع طرف جلبابه ، فعض عليـــه ، وحـــاول الارتماء على السي العربي فدخلت بينهما مرة اخرى، وقلت للســـي حمـــاد :

— دعنا نسمع اولا قصة القنبلة الذرية .

فوافق السي حماد مشترطا :

— وبعدها مباشرة ادق رأسه بهذه !

وتوجهت الى السي العربي الخليفي الذي كان يراقب تطور الوضع من خلف ضبابه الكثيف ، وقلت:

— ماذا تعني بامكانك صنع القنبلة الذرية ؟ هذا ادعاء خطيـــر .

فقال متحديـــا :

— ورغـــم ذلك فهو الواقـــع .

قـــت : وكـــف ذلـــك ؟

فقال مشيرا الى السي حماد :

— اذا امنتني من شر هذا الصعلوك حكيت لك .

فالتفتت الى السي حماد واخذت منه العصا ، وقلـــت :

— لا خوف عليك منه الآن .

فعاد الى جلسته الاولى ، والتمس عدة تدخينه من قرابه الجلدي ، فملأ السبسي بالكيف ، واشعله وقيدة ، واخذ يدك حبات الكيف داخل التقـــف بعلبة الوقيد ويتكلم في آن واحد ونحن نستمع اليه مبهورين بطقوس اشعال السبسي الدقيقة .

قال : منذ ازيد من ثلاثين سنة .. وكنت يومئذ صانعا شابا ماهرا في خزارة البلغة هنا في مدينـــة اصيلة ، قدم على دكاننا رجل يلبس ملابس غريبة .. ملابس مغربية ، ولكنها غريبة وسلم علينا ، وكلمنـــا بلهجة مغربية غريبة كذلك .. وسألناه من اين هو ، فقال من مراكش . فدعوناه للجلوس معنا ، وشرب الشاي ، فجلس مسرورا ، واخذ يحكي لنا عن بلده الذي لم يكن احد منا قد زاره في ذلك العهد .. وقال لنا انه هو نفسه خزاز كبير هناك ، لذلك يهمه معرفة اهل حرفته في المدن الاخرى ..

وكان رجلا لبقا ، وسريع البديهه ، مليح الفكته، خفيف الظل ، فاستحليتا مجلسه ، ودعوته للعشاء والمبيت عندي ، فقد كنت أعيش وحدي مع الوالدة . واستطاب هو صحبتي وكلامي ، فقد كنت اجيب على نكاته وفكاهاته المراكشية بنكاتنا الاصيلية العريقة .. الى جانب انه استلذ (تذريحة) الكيف على طريقتنا (الكمامية) !

وضحكت انا ، فتمطى السي حماد لتناول العصا من يدي ، قائلا :

— انه يربح الوقت فقط وليس له ما يقول !

فاستعجلته انا ليدخل في الموضوع ويترك الاستطراد ، فقال :

— الحاصل به .. يا سيدي .. بات الرجل عندي تلك الليلة ، وفي الصباح كنت أتهيأ لأشد الرحال معه الى بلده مراكش . فقد قال لي عن مراكش ، وجمال مراكش ، وحلاوة اهل مراكش ، وكيف سيتذوقون نكتي ، ويعجبون بسمتي ، وكيف سأصبح غنيا في أقرب وقت ووسوس لي ، يا ولدي يا الشريف ، كالشيطان ..

وتنهد ، ومص من السبسي طويلا ، ثم قال :

— الحاصل به ، يا سيدي ، أتممت اجراءات السفر في يومين .. وأخذت جواز السفر ، وصحبت الرجل الى بلاده مراكش ، على متن القطار ..

« وكانت مراكش فعلا كما وصفها جنة خضراء يانعة ، وسط وادي من النخيل والزيتون والأسوار الحمراء ، والصهاريج والخضران » .

« وأجمل من ذلك كان مجتمع مراكش المنظم ، واسواقها العامرة بالسلع المغربية الجيدة الصنع .. وكان الصناع ينعمون ببحبوحة من الرفاهية والرخاء .. بضاعتهم رائجة رابحة كل الناس يلبسون الجلباب والبلغة ، والقفطان والدملج والخلخال وغير ذلك مما تنتجه اليد المغربية الماهرة .. ولم تكن بعد قد تفشت موضة الملابس الافرنجية واحذيتهم المقفلة ..

المهم انني وجدت نفسي في أحد دكاكين الخراز المراكشي الذي كنت ادعوه مولاي ابراهيم ، اعمل بجد ، واتمتع بصداقة الزملاء الجدد الذين وجدت نفسي بينهم وكأنني عشت معهم طول حياتي ..

« وذات يوم من ايام الله ، اقبل على السوق جماعة من السواح .. ولم اكن قط قد رايت مثلهم .. فلم يكونوا اوروبيين .. بل من بلاد (اليابان) .. اي ما وراء بلاد الصين وسد ياجوج وماجوج .. فقد كانوا صفر الوجوه من غير مرض ، منحرفي العيون ، قصار القامة ، غريبي الكلام حين يتحدثون فيما بينهم . وجاء منهم من قعد معنا في الدكان يصورنا بالالة السينمائية ونحن عاكفون على العمل ، ويسأل عن المواد التي نستعملها ، ومنهم من يتذوقها بلسانه .. وفي النهاية اشتروا عينات كثيرة من كل ما نصنع ، وذهبوا ..

« ومرت شهور على تلك الزيارة .. وذات يوم راجت اشاعة قوية بين اهل مراكش ، وخصوصا بيننا نحن الصناع ، وهي أن مركبا ضخما قد رسا على ميناء الدار البيضاء محمل على متنه مئات الآلاف من ازواج البلغة المغربية المصنوعة في اليابان ، يعرضونها للبيع بأقل من نصف الثمن في الاسواق المغربية ..

« وفزع الناس .. فقد كان رخاء مراكش ، بل وحياتها كلها مبنية على اكتاف صناعها فاذا انهارت الصناعة زالت مراكش ، وجاع الناس ، وتشتتوا بحثا عن ارزاقهم في ميادين اخرى لا علم لهم بها ..

« ودار نقباء الصناعات الاخرى على الدكاكين والحوانيت يدعون الناس للتجمع بالجامع الكبير لقراءة اللطيف لدرء هذا الخطر الاصفر المريع .

« واقفل الصناع دكاكينهم ، وتبعهم التجار والباعة ، والخضارون والجزارون والعلماء وحتى المتسولون .. وامتلات ارجاء الجامع الكبير وازدحمت بآلاف البشر ، وارتفعت اصواتهم باللطيف والابتهال والدعاء ، وآيات القرآن ..

« وحين انتهوا من قراءة اللطف وقف فقيه جبلي مسن ، فطلب من الجميع ان يرفعوا اكفهم للسماء ، واخذ يدعو على ياجوج وماجوج الذين يريدون افقار المسلمين بدعوات تقشعر لها الابدان .. واخذ يكرر رافعا يديه ووجهه الى السماء مغمض العينين في خشوع :

اللهم لا تذر على الارض من الكافرين ديارا .. اللهم انزل عليهم الصواعق ! اللهم ارسل عليهم طيرا

ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل فتجعلهم كعصف ماكول ! اللهم احرقهم بنار غضبك ! « ان الذين ياكلون اموال اليتامى ظلما انما ياكلون فى بطونهم نارا .. ! »

« وكنت انا رافعا يدي هاتين الى السماء ، وقد تشوك لحمي ، ووقف شعري ، وانا اقول « آمين » .

« وخرجنا من المسجد ونحن مطمئنون الى أن الله لا بد مستجيب دعواتنا .. فدعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب .. وكان الفرنسيون قد ارتجوا من هذه المظاهرة الضخمة فارسلوا الجنود والبوليس الايطاليين لحصار المسجد .. ولكنهم فكوا الحصار حين راوا ان المظاهرة كانت سليمة ..

« ومرت ايام قلائل على ذلك ، وسمعنا ان باخرة اليابان قد منعت من انزال بضاعتها المزورة بميناء الدار البيضاء ..

« ومرت ايام اخرى ، فسمعنا على امواج الاذاعة الخبر المريع .. خبر سقوط القنبلة الذرية على اليابان واحتراق مئات الالاف من اليابانيين بالاشعاع الذري الجهنمي .. وذهبت ذلك المساء الى الجامع الاعظم ، فوجدته مزدحما بعدد هائل من الصناع يصلون صلاة الشكر لله على ان استجاب لدعائهم .. جاؤوا من تلقاء انفسهم ، ودون ان يدعوهم أحد لذلك .. »

وسكت السي العربي الخليفي لحظة لينظر الى مفعول قصته على وجوهنا ، ثم قال رافعا كفيه لنراهما :

— ومنذ ذلك الحين وانا انظر الى هذين اليدين نظرة أخرى .. فقد عرفت بالتجربة ان فى امكانهما ، لو توفر الايمان ، صنع القنبلة الذرية ، وارسالها الى اعدائنا ، ولو كانوا فى أقصى الارض ..

ويظهر ان القصة كان لها مفعول مهدىء على السي حماد الذي كان قابلا جدا للايحاء .. فاستغرق فى التأمل ونسي عصاه وطبعه العدواني ..

وكانت الشمس قد غربت ، ولم يبق من آثارها الا شفق دامي كلوحة هائلة تطبق سائر الافق الغربي.

، واخرجت السي حماد من خدره يقولي :

— اعتقد ان الوقت حان لنلقي بهذه العصا فى البحر ..

وحين لم يمانع طوحت بها نحو الامواج التي كانت تتحرك ببطء ورشاقة ورتابة ازلية ..

وافترقنا ذلك المساء ، وانا موقن من ان (السي حماد) لن يتجرأ بعد اليوم على ادانة السي العربي الخليفي ، صانع القنابل ، ومخرب الحضارات.

ولكن حدسي خاب .. ففي تلك الليلة بالذات، وانا خارج من السينما ، وجدت جوقة من المتفرجين، وفي وسطهم السي حماد قابضا على السي العربي الخليفي من الخلف ، مطوقا لذراعيه حتى لا يتحرك ، وهو يعضه من اكتافه وظهره ، والآخر يتلوى ويصيح بصوت واهن :

— الله .! الله .! الله ظهري ! الله اكتافي ! اشهدوا عليه ، آعباد الله ، اشهدوا عليه ..

والسي حماد يقول بين العضة والعضة :

— الا تخجل ايها المتاخر من الدعاء على بلد عظيم كاليابان ؟

ويعضه بحنق ثم يعود :

— تبا لك ! لو لم تكن متخلفا لدعوت الله ان يعطيك العقل ، بدل ان تدعوه ليخرب بلدا جميلا كاليابان !

ثم يفرز ذقنه فى ظهره ، وهذا يحاول التملص دون جدوى ..

ووقف شرطي من اهل المدينة يوسع الحلقة ، ويحافظ على النظام ، ويتفرج على المباراة الازلية بين السي العربي الخليفي والسي حماد دون ان يتدخل .. فهما فى نظره ، فوق القانون !

احمد عبد السلام البقالي

• قصة قصيرة :

غضبة الموسيقار

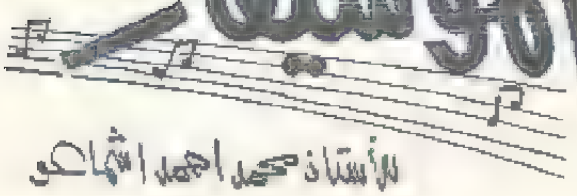

للأستاذ محمد احمد الشامي

جماعة من الناس على وشك الرحيل ، والفلك على اتم استعداد لبدء الرحلة ... وهنا يقف الفنان على شاطىء البحر ... ان الوقت ليس وقت استلهام الطبيعة ، ولا لحظة تصيد لحن شارد ، وانما هو موقف اقدام على مجاهيل ، مجهول وراء مجهول .

كاد ان يقول للبحاره اصحاب السفينة ، وهو يرى السحب تتلاحق في السماء ، من جهة الغرب الى جهة الشرق ... كاد ان يقول لهم :

— الا يمكن ان تؤجلوا الرحلة ، الى ان يكون الجو اكثر صفاء والبحر اتم هدوءا ؟

ولكنهم كانوا جادين في عملهم يتقلون الامتعة ، ويساعدون المتنقلين من العدوة الجنوبية (المغرب) الى العدوة الشمالية (الاندلس) ، آخذين بايديهم ، او مساعديهم على تحويل الاثقال او حاملين العاجزين منهم على اكتافهم . وهم في حركاتهم الجدية تلك — والابتسامة مطبوعة على شفاههم — يعمرون القلوب بالثقة وطول الامل . وانطلقت الفلك باسم الله مجراها ومرساها ...

وتجمد كل مسافر حيث هو ، مستسلم لنوم وما هو بنائم ، ممتلئا بترديد البحارة للتبركات المنغمة بجاه النبي ، وجاهرين باهازيجهم باصوات قوية رنانة ، متناوبين على ذلك فيما بينهم ، هؤلاء من الامام واولئك من الخلف ، في نغمة قوية عامرة بالرجولة والاقدام والثبات . وغلبت على الفنان حرفته فوضع النغمة في طبقتها الموسيقية الملائمة ، واخذ يرهف السمع ليدرك معاني الالفاظ ، ولكنه لم يستطع ذلك لان الالفاظ كانت عامية ، وفجاة ، ودفع للملل غير الهاتفون المتنغمون اهزوجتهم ، ودخلوا في اخرى بنغمة احلى واخف حركة والطف ايقاعا . وعاد الفنان فصنفها من جديد ، مرضيا نزعة متاصلة. لا تكاك له من تحكمها ! ولتنظر ان تعلو اصوات المسافرين بالغناء ابتهاجا بالرحلة وتيمنا بها ، ولكنهم احسوا انهم ضعاف كاشد ما يكون الضعف ، امام جبروت البحر الزاخر وعظمته ، وتوهموا انه من نوع تلك المخلوقات التي تتربص بمن يجابهه قوتها ، بالحيلة او بالمبارة والاعتداد بالنفس ، وذلك بان ترميهم على حين غرة ، وتنزل بهم الضربات القاسية العاتية ... وكان البحر عرف فيهم هذا الذي اظهروه من الاستسلام والانقياد ، فاكتفى بمعابثة السفينة ، يميلها ذات اليمين وذات اليسار ، ولكنها — مع ذلك — ادارت الرؤوس وازاغت العيون ، وزعزعت الاعماق البعيدة من الافئدة .

قبل ان يركب الفنان هذه السفينة قطع خلال رحلته من الشرق الجبال والوديان والسهول والانهار والمروج والصحاري ، وتحمل فيها ما تحمل ، غير انه لم يتحمل مثل هذا الذي يلاقيه اليوم عند اجتياز البوغاز ، خوفه كان شديدا على افراد اسرته ، ولكنه ينصرف بفكره عن الجميع ، ناسيا مسؤوليته الخاصة.

مفوضا أمره فيها الى الله ، المغيث عند الشدائد .. معلقا نفسه وافكاره فقط بالآتي ، وهو المقبل على خليفة غير خليفته الذي تركه ، وبمملكة غير مملكته التي هجرها ، وباقوام غير اقوامه الذين الفهم وعرفهم وادرك اساليب معاملتهم . انه مهاجر ، وقادم لتلبية دعوة كريمة سامية ، فالامير (الحكم) حفيد عبد الرحمن الداخل ، استدعاه من القيروان ، وطلب ان يوافيه معجلا — ما استطاع — الى قرطبة عاصمة الامارة الاندلسية الزاهرة .

وصعد المسافر الفنان النظر في وجوه بعض من هم راكبون معه ، قاصدين الاندلس ، راغبا في الوقوف على جانب من المجهول الذي هو مقدم عليه ... لاحظ — اولا — أن هناك رصانة ووقارا ، وتحكما في النظرات والالتفات . فالشيخ من بينهم خفيض البصر ، مشغول اللسان بالتلاوة والذكر والدعاء ، والكهل حريص على افراد اسرته ، يتتبع حركات صغاره وصغيراته ، ويشملهم برعايته ، ومن بين الحين والحين يخفض رأسه متصنتا الى همس السيدة المصون الجالسة بجواره ، ثم يهز رأسه موافقا ، او يرد الجواب بصوت لا تسمع منه الا الغمغمة الخفية ، دون تعبير لما يقال ، وذلك دليل على الموافقة وحسن المعاشرة ... اما الفتيان والفتيات — لكمال ادبهم — فيرون وهم يلمحون ولا يحدقون ، وان تلاقت النظرات ، وما احلاها من نظرات ، فالوجوه من الجانبين يكسوها الخجل الرقيق . ثم ان الوجوه جميعها عامرة بالصحة والبشر ، اذ الخدود موردة والشفاه حمراء قانية ، والعيون صافية رائعة في احوراريها او زرقتها ... والملابس ، ولو انه لباس السفر ، نظيف ، حسن التفصيل ، غامق اللون .

وانقشع السحاب شيئا فشيئا فبرزت الشمس دائمة ، شأنها دائما في اواخر ايام الربيع ، واستسلم الموج مستعذبا دفئيا ، متلذذا ميالا للسكون ... واهاج سكونه عواطف البحارة فانطلقوا يغنون ، وهي اول مرة يسمع فيها الموسيقى المشرقي الالحان العربية المغربية ، الا انه لم يستطع ادراك معاني الالفاظ . فهم فقط ، وعلى وجه الاجمال ان الترنم انما هو اذكار وتسبيحات للاله الكريم . ومن غير هؤلاء البحارة يدرك عظمة الاله ، وهم وسط البحر دائما ، بين الماء والسماء ! !

لاحت من بعيد شواطىء الاراضي الاندلسية فتحرك المسافرون ، وتطلعوا ، وان لم يقدروا على الوقوف ولا على الحركة ، فانتظروا الوصول انتظارا غير قصير . وككل قادم على المجهول ، تطلع (ابو حازم زرياب) الى هناك ، وتمنى بشدة ان يرى الديار والاقوام وانواع الحياة كلها ، حينا ودفعة واحدة ، ليرى كل شيء امام عينيه ، وبذلك يتمكن من ان يقف وقفة عاجلة على الاحوال ، فيدخل — عندئذ — دخول الرغبة والشوق والحنين والمودة ، او يقفل راجعا من حيث اتى فيريح ويستريح ، لكن الظاهر من الاراضي لم يكن الا وهادا وتلالا وسهولا اليفتها اشعة الشمس ، شمس مايو الساخنة ، وبذلك ذهبت بالكثير من خضرتها ... ومن بين التلال برزت مدينة بيضاء المباني ، غير واسعة العمران ، قال عنها مرافقون : انها اولى ديار الاندلس ، انها ارض (الجزيرة الخضراء) .

نزلوا جميعا ، فاذا بموكب عامر يتقدمه سيد مهيب الطلعة ، يسأل عن مسافر قادم من الشرق ، يسمى السيد (زرياب علي بن نافع) موسيقار الشرق الشهير ...

تناهى الى سمع الفنان هتاف هذا المتحدث باسمه ، فاستبشر ايما استبشار ، ان الرجل هو حاكم البلدة ، وقد جاء مرحبا باسم الامير (عبد الرحمن بن الحكم) . وادرك انعامل ان القادم استغرب من تبدل الاسم ، ولذلك بادر واعلمه ان الامير (الحكم) ، الذي سبق ان ارسل في طلبه ، قد انتقل الى رحمة الله في الايام الاخيرة ، وانه جاء اليوم يستقبله باسم الامير الجديد (عبد الرحمن) .

وتوهم الفنان الرهيف الشعور الرقيق الاحساس ان قدومه ربما يعتبر شؤما ، ومرة اخرى تغلغل الحذر ، وتسرع يدخل الاطمئنان في نفس الرجل ، فجدد الترحيب ، وطلب منه ملحا ان يشد الرحال فورا الى (قرطبة) ، واعلمه ايضا ان عمال الامير سيكونون في انتظاره ، عند مدخل كل مدينة يمر بها .

اية بشارة يا رب ! ايكون في الدنيا اقوام يكرمون الضيف بهذه الحرارة ، ويرفعون من قيمة الغريب قبل ان يعرفوه او يختبروه ... هل الموسيقى والادب والذوق الاجتماعي ، كل هذه الاشياء تعطي قيمة ومكانة عند خليقة من اعظم خلقاء الاسلام ، فيما

وراء البحار والصحاري والبراري ؟ ان الامر لكذلك !

ومضى (زرياب علي بن نافع) ينزل عدة مدن وعدة قرى ، وينعم بصداقة عمال الامير وحسن استقبالهم وجميل رعايتهم ، انه ولو لم يكن قاصدا (قرطبة) لنزل (اشبيلية) نهائيا . لقد وجد فيها بغيته ، وهو الفنان الموسيقار الاديب ، الذي تجمعت له خبرات واسعة ... وجد فيها خيرة الادباء ، وخيرة الموسيقيين وخيرة الاديبات وخيرة الموسيقيات ... انصتوا له بشغف ، وتوجهوا بكل جوارحهم وهو يحدثهم عن الادباء والاديبات ببلاد الشرق ، واخذوا عنه من محفوظاته التي نقلها نقل الحضور . واخيرا ويا للبراعة ، هزهم بجميل الالحان وجميل العزف .

وانتهت جلسة الادب وأدوار الغناء ، وبقي في نفوسهم الكثير من حذاقة (زرياب) واناقته وشخصيته العجيبة النادرة ... انه لولا احترام مكين للامير بقرطبة لما سلموا مطلقا في ضيفهم المحبوب ، ولو قامت من اجل ذلك حرب بين قرطبة واشبيلية ! لكن اللبق لم ينس لباقته : لقد وعدهم صادقا بانه سياتي مدينتهم الساحرة بين الحين والحين ، مرتين او ثلاثا في السنة ، فمدينة اشبيلية الفيحاء تشد اليها المقيمين الى الابد ، لما وهبها الله من هواء سعيد وعيش باذخ وهدوء وسلام ... واولى من هذا واحسن ، الجمال ، الجمال الذي كاد يكون خاصية من خاصيات أهل اشبيلية ، كلهم موصوفون بالجمال ولطائف الخلال !

وكان يوم الرحيل عن اشبيلية يوما مؤثرا ، ولو أن الوداع الى لقاء غير بعيد .

وسار الركب مسافات بعيدة ، مصحوبا بخيرة من الرجال ، وعند نقطة معينة تجدد الوداع ، ثم امعن الركب في السير جادا نحو قرطبة ، وكانت الطريق غير صعبة ، فلان اشبيلية ابت الا ان تمدد اكنافها ومجالي محاسنها ومناظرها الى ابعد المسافات، وهكذا لم تغب عن انظار المسافرين مناظر الجمال الا بعد قطع عدة فراسخ .

وبعد سفر منهك تراءت معالم قرطبة : صوامعها وقبابها وأسوارها وابوابها ومبانيها ، كما تراءى للقادمين عند أرباض المدينة افواج من الناس ينتظرون ، لقد سبق أصحاب البريد بالخبر الى عاصمة قرطبة .

اهتز (علي زرياب) طربا وفخرا وهو يرى كل هذا الاحتفال بقدومه ، اي تقدير يعلو هذا التقدير يا الهي ! ؟ ان الامير نفسه موجود في الانتظار !!

وهكذا بخطوات وئيدة تقدم الفنان باحترام الى خباء الامير الجليل ، وتقدم الى مجلسه الكريم ومال عليه مسلما ، ولم يشعر الا والامير يضمه الى صدره، ويتركه يقبل أكتافه وجبينه ، ويقول له امام الحاضرين:

— « يا علي ، يا ضيفنا العزيز ، هذه ارضك فيها مقامك انت وذريتك ما دام بنو امية جالسين على عرش الاندلس ، ثق انك ستكون معززا مكرما ، فلن تحتاج ولن تتعسر ... حاجبي الخاص سيخبرك بمخصصاتي الشخصية ، ومخصصات صندوق الدولة لكم جميعا لتعيشوا مطمئنين ، ستجد عندنا ان شاء الله ما لم تجده عند غيرنا ... وانت اهل لكل تكريم !

شد الضيف المكرم على يد الامير ، مصرا على ان يضع قبلة حارة صادقة على يده ، واغتنمها الامير فرصة فاسر له ، بعد ان اجلسه بين يديه :

— « انت تعلم يا علي أن جدي عبد الرحمن الداخل ارسى ملك بني امية في هذه الديار ، ومحا الاستبداد والطغيان والتمرد ... وتابع والدي رسالته من بعده ، وقد كانت سنوات حكمه الطويلة كافية لاستقرار الاحوال ... وآن الاوان للاندلس سيدة البلدان ان تتطور وتزدهر ، وتصبح مقرا للعلوم والفنون والصناعات ومبتكرات الذوق السامي. وانت الذي بلغني ما بلغني من رقة احساسك ورفاقة ذوقك ومنتهى براعتك وحذاقتك — أعتبرك قيما عن شؤون الفن والتحضر الاجتماعي ، كلنا سنعمل برايك، وانت مطلق الحرية في التصرف ، لن تعاكس ، ولن تجادل ، ولن تضايق ابدا ... ثم انني لن ابخل عليك بتشجيعي وتاييدي لك ، ولو تطلب ذلك مني ما تطلب، والله شهيد !

وهنا خفض الموسيقار رأسه طاعة وتاييدا ، معبرا عن حسن الاستعداد . وقال :

— كرمكم الزائد — يا مولاي — اخرس لساني، واذهب حسن بياني ، ولكني ساكون عند حسن ظنكم، فترقبوا الاسابيع والشهور المقبلة ، ان انعم الله علي بالصحة والعافية ، وأمتعني دائما بظلكم الوارف السعيد .

واقامت محافل (قرطبة) الزاهرة الموسيقية حفلات استقبال للموسيقار الشرقي الشهير ، تلميذ ابراهيم واسحق آل الموصلي . وراع الحاضرين والمشتركين في الحفل من أهل الادب والفن ان القادم الجديد خرج عليهم بزي فريد : لباس ابيض ناصع ، يتلاءم وحرارة الصيف الواقد ، ووجدوا شعره السبط قد رجل ، وسوى على الجهة اليمنى من الراس ، وانه قد تطيب بطيب نادر ، حضر عبيره بنفسه ، وذلك ما تنتعش به النفوس وتطيب ، كما ان اللحية كانت مرجلة بأناقة ، والاسنان لامعة صقيلة من شدة الاعتناء والمعالجة بمختلف العاجين التي يهيئها الرجل بيديه ، وكلما لوح بيده اليسرى الا وخطف الابصار بريق اللؤلؤة النادرة التي جعل منها فصا لخاتمه الفضي الصقيل ، وهكذا اقبل عليهم رسينا رزينا ، قريبا لا محافيا ، متوددا لا متعاليا ، وقابل الترحاب برائع الابتسام ، ورد بصادق الشكرات على المدائح التي اجزيت له .

طاب الجلوس ، وعندئذ أسمعوه وهو الشاعر من اشعارهم ، وشنفوا سمعه وهو الموسيقار من الحانهم ، وفي كل الاحوال كان يبدي اعجابه ، ويبرز مواطن الجمال والروعة بالاشادة والتنويه .

وردا على الهدية النفيسة بمثلها اخرج من جيبه بكامل الاناقي قطعا من رق الغزلان ، وألقى ما اثبت عليها من أشعار ... وأخيرا تناول عوده الخاص ، النادر في صناعته ونقوشه والذي هو ايضا من صنع يده ، وشرع يعزف ويلحن في مزفه ، مستعملا الوتر الخامس الذي هو مبتكراته ، فاهتز القوم طربا وتجاوب اليهو الفخم مع العزف البديع ، واسمعهم من الالحان ما امتعهم وادهشهم ، اسمعهم الحانه الخاصة والحان اساتذته آل الموصلي ... وبذلك هفت كل القلوب ، واهتزت كل الخشوع ، ودمعت العيون وأطلقت الآهات ... لقد ملك على القوم اعجابهم ، وأمعانا في امتلاك هذا الاعجاب نادى على جاريته الفارسة كما استدعى ابنتيه ، فغنين وعزفن ، وبذلك أعطى للفن الموسيقي قيمة ومكانة ووقارا .

وبينما الفنان في هذا الوسط الكريم من المحبين والمعجبين اذا برسول خاص من الامير يحضر ، ويطلب من الموسيقار الحاذق (زرياب) الى ان يستجيب لدعوة الامير ، في جلسة انفرادية . وهنا ، قام واختلى بنفسه من حيث اغتسل وتعطر ورجل شعره الترجيلة (الزريابية) ، وارتدى من الملابس الجميل الانيق ... وامتطى البغلة المسرجة وانطلق الى القصر الاميري ، تحف به المهابة والتكريم .

ولا يدري أحد ما دار في تلك الجلسة من اسرار ، ولعل السر الخفي هو ان الامير الاموي طلب تفاصيل عن حياة الخلفاء العباسيين : الهادي والمهدي والرشيد الذين خدمهم الفنان (علي) من قرب ، واطلع بتعمق على احوالهم ... ان عبد الرحمن الاوسط الامير الاندلسي لم يعد يقيم وزنا للعداوات السابقة ، فأحقاد الاجداد ذهبت بذهاب الاجداد ، ولم يبق لها سوى اثر ضعيف في النفوس ، ولا فائدة من تجديد ذكر المنغصات ، المهم ان يعرف أهل المغرب كيف هي احوال أهل المشرق : كيف بلاط الرشيد حاليا ؟ كيف تنظيماته ؟ كيف هي أحوال رعيته ؟ ما ذا ينقص بلاط قرطبة عن بلاط بغداد ؟ وماذا تزيد قصور هذه الامارة على قصور تلك الخلافة ؟ كم عدد الشعراء الواقفين بباب الخليفة العباسي في كل مناسبة ؟ كم عدد الموسيقيين الماهرين مع الخليفة كل ليلة ؟

... ... صرح القادم الجديد ، ولم يكتم أي شيء وهو الخبير المطلع من كل الخفايا التي يعرفها ... استفاد عبد الرحمن وسر بما سمع ، وجمل سهرته مع ضيفه سهرة أخوية ، من حيث تكاشفا فيها بصفاء .

وطلع النهار واضحى ، وعندئذ جاء عامل المدينة ، مدينة قرطبة ، بأمر من الامير ، وصحب الفنان في جولة عبر العاصمة ، حول معالمها وآثارها وقصورها ورياضها ودروبها ، بقصد ايقافه على الحالة كما هي وعن قرب ... كان الزائر يتفرج ، وينصت — في نفس الوقت — الى شروح العرفاء ، ولا يخفي اعجابه بكل جميل ، او ما هو على وجه التقريب جميل ، وبذلك كان يرضع من ثدة مرافقيه بانفسهم ، ويبعث الاطمئنان في ضمائرهم بما انجزوه من اعمال ومنجزات ، والحق ان المسجد القرطبي الاعظم سلب لب الخبير الفنان الاريب ... لقد هزه اقبال الناس على حلقات الدروس العامرة ، الحافلة بالمناقشات الحية المهذبة ، كما هزه اهتمام كل طبقات المجتمع بطلب العلم ... اعجب بهذا وسر به . اما مقترحاته فقد ابقاها في داخليته ، ليقدمها في الوقت المناسب الى المسؤولين الاندلسيين

المختصين ، دون ادعاء ولا ترفع ولا تعالم .

زادت هذه الزيارة وتصرفات الفنان اثناءها ولباقته وحذقه وفطنته في مقامه ، وصار حديثه على كل لسان ... وهكذا وثق الرجل بالمتيا مجددا ، واطمان نفسيا الى الناس ، وتيقن ان الحياة ستسعده بعد شقاء ، وستسالمه بعد معاكسة ، وانه من الآن يمكنه ان يخصص من اوقاته لفنه الموسيقي ، ليبدع فيه وينفنن ، ويوجد في تراثه ما يبقى خالدا على مر الازمان والدهور .

وفعلا تحققت الاماني وكانت لحظات للتجلي والالهام ، عند السحر والفجر والشروق ، وعند الضحى والزوال ، وعند الاصيل والغروب والشفق ، وفي هداة الليل الشاملة ... لا شغل له الا مداعبة الاوتار واحتضان العود بحنان ، وحك الرباب ، والاتصالات التي دق جنبات الدفوف ، والتلذذ بكل ذلك والتنعم به والتملي معه ، ثم الغيبوبة عن كل احساس بالوجود ... وكانت النتيجة الباهرة ابتداع الحان شجية ، بعضها خاص بأوقات من النهار ، وبعضها خاص بأوقات من الليل ، وفق الطبائع والخوالج والميول والاستجابات والانسجامات مع النفس والناس والاحوال والطقس ومشاهد الكون المتبدلة في كل وقت وحين .

ذاعت الحان (زرياب) وشاعت ، وتناقلها المولعون بفن الغناء تادية واستماعا ، حتى ان الامير لم يعد يمل الا بجلست المطرب المتفنن (زرياب) ينسجم معها ، ويطرب لها ، ويهتز وينفعل بها .

ذات مساء اختفى (زرياب) وبقي مكانه شاغرا في مجلس الامير والتفتت الانظار لهذا الغياب ، وتبودل الهمس ، ولم يكتم الامير تساءله عن سبب غياب الفنان الاثير لديه ولدى الجميع ، غير ان احدا لم يكن عنده جواب ... وبادر فبعث الرسل من اتباعه الى مسكن الفنان (زرياب) .

وجدوا ـ وللعجب لما وجدوا ـ الموسيقار منحرف المزاج ، مكدر الخاطر هائج النفس ، حتى ان لونه الاسمر مال للصفرة ، والشفة السفلى ترتعش لا تكاد تفصح ، ان الضمير المعذب كان يحبسها عن القول :

« لقد سدت منافذ الامل في العيش الهنيء ، رغم ان الحادثة ليست خطيرة ، » انها تنبيء عن عيش قد يضطرب بين يوم وآخر ، ان الحقد الصغير قد يصبح بعد فترة طويلة او قصيرة حقدا كبيرا ، وعندئذ تتعسر الحياة وتتعقد امورها ، ويكسوها الظلام شيئا فشيئا ، الى ان تصير شبيهة بالمقام في كهف سحيق الاغوار شديد الظلمات ! والفنان ما هرب من (بغداد) الا بسبب الحقد ، وما هجر (القيروان) الا تنصلا من الحقد ... فهل كتب عليه ان يلاحقه الحقد حتى في (قرطبة) الفيحاء ، مقر الامارة الوارف ، حيث الامير يشمله بالرعاية التامة ؟ !

ورغم تمنع الفنان زرياب ، فقد حمل حملا الى مجلس الامير الجليل ، ولكن في اسوا حال ، هذه الغضبة الشديدة ، التي لم تزعج الفنان وحده ، وكتم سره رغم الحاح الامير في ان يعرف سبب ، وانما اقلقت خواطر كل المعجبين والمحبين والانصار ، ولما اصر الامير على ان يعرف رفع (زرياب) الجريح الفؤاد بصره الى سيد قرطبة وقال :

ـ السبب هو هذا يا سيدي الامير ، انه شاعركم المقرب (يحيى الغزال) . ليت قلبه نقي لامع وجميل مثل وجهه !

اهتز الشاعر يحيى الغزال وعلاه الاصفرار . لقد علم ان سموم لسانه اللاذع قد ذاعت ، حتى وصلت الى الفنان الرقيق الشعور ... وتدخل ليكذب الفنان الغضبان (ابا حازم زرياب) ... غير ان الفنان سبقه الى القول وقال :

ـ اسمعوا ـ يا مولاي ـ هذه الابيات التي قالها في حقي واحكموا ، وحكمكم الاعلى والاسمى :

سألت في النوم ابي آدما
فقلت : والقلب به واثق

ابنك ـ بالله ـ ابو حازم ؟
صلى عليك الاله الخالق

فقال : ان كان مني ومن
نسلي ، فحوا ـ أمكم ـ طالق !

اطرا الشاعر الغزال ساكتا ، وما زال مشوبا باصفرار ، واخذ يلتفت حواليه ، كأنه يبحث عن مخبا او عن مهرب له ... وكان ذلك اعترافا منه بفبيحته الشنيعة .

وتكلم الامير ، وقد صوب نظرات صارمة الى المتهم بطول لسانه ، وقال :

— يا يحيى ، أانت الذي قلت هذا في حق القادم الكريم علينا ؟

سكت (يحيى الغزال) وعرق الخجل يتصبب منه ، بينما ابو حازم (زرياب) متألما من أجل كرامته.

وهنا اصدر الامير أمره الخطير :

— يحيى ، من الآن عليك ان تغادر قرطبة . وامنعك من الرجوع اليها ، قم عن مجلسي يا قليل المروءة ، يا منتهك اعراض اصفيائي ، يا خبيث اللسان ، قم عني لا ردك الله ... هيا يا حراس خذوا هذا الوقح ، من الآن ، ودون أن تسمحوا له بان يعرج على أي مكان ، وضعوه خارج اسوار البلاد ... لا اريد أن ارى وجهه .

وهنا ، تنفس الموسيقار تنفسا عميقا ، ورجع الهدوء شاملا الى انحاء نفسه ، وتبخرت غضبته الكبرى ، وعادت البسمة الساطعة الى الشفتين ، وانفرت عن الاسنان الساطعة ، وانطلق اللسان يرتل آيات الحمد والشكر .

محمد بن احمد الشماعو

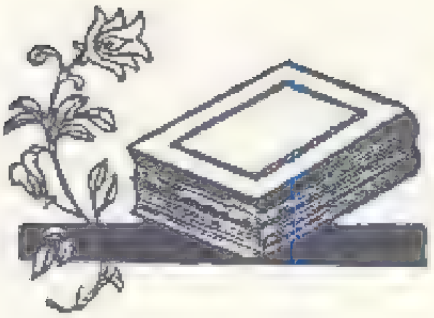

الإسلام يرفض الشيوعية

تأليف : الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

عرض وتقديم : الأستاذ بكر موسى
كلية اللغة العربية - اسيوط . مصر .

في الوقت الذي تطل فيه الشيوعية بوجهها الكالح على الصومال المسلم ، وتكشر عن أنيابها المتوحشة في اندونيسيا المسلمة ، وتنفث سمومها أحقادها بين البلاد العربية تفرق وتمزق ، وتدمر بأعاصيرها الهوج منجزات الكفاح المرير ، وتحاول أن تطوى الوية رفعها الحق ، ورايات ارستها القمم حتى تلحقها بأخواتها فيما وراء النهر وبخارى وسمرقند والقوقاز والصرب والبانيا وغيرها من بلاد الاسلام الشامخة التي اكلتها نار الشيوعية في زحفها الاحمر ؟ ! !

في هذا الوقت العصيب يطلع علينا الاستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي بكتابه الجديد « الاسلام يرفض الشيوعية » ليكون شجى في حلوق الماديين ، وقذى في عيون الملحدين ، ويكشف عن زيف الماركسية ، ويجردها من الدعايات التي تحيط بها ، فتظهر على حقيقتها ، وقد أسقط الدكتور المؤلف اقنعتها ، واذا بها « سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا » .

وفي الوقت الذي ينقض فيه المؤلف بنيان الشيوعية القائم على الرمال يوضح عظمة المبادىء الاسلامية ، فيعطي الدليل لطلاب الحلول الجذرية ويؤكد بالدليل القاطع صلاحية الاسلام لمختلف الازمنة والامكنة . فجاء كتابه على قدر ، ملأ فراغا ، وارسى عقيدة ، ورد سهاما طائشة ، واجاب عن استفسارات عديدة ، ولبى مطالب الجماهير المسلمة التي تتلفت يمنة ويسرة باحثة عن الحق تتمسح به الباطل وعن النور تقشع به الظلمات وعن الكلمة المخلصة تسكت بها المراء والرياء ، وتخرس الدعاوى الجوفاء .

وللدكتور المؤلف منهج واضح في عرض موضوعات الكتاب اشار الى بعض ملامحه في فاتحة الكتاب قائلا « لا يمكن لباحث منصف أن يوازن بين مبادىء الاسلام والشيوعية ، بين شريعة الهية ونظم وضعية بين اصلاح خالص وثورة متطرفة ، ومع ذلك نستحاول البحث وشرح موقف الاسلام من هذه المبادىء الوافدة ، وبيان رايه في جميع المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ، ونفصل منهجه في الاصلاح » ... الى أن قال مفصلته : « ومن البديهي اننا هنا حين نتحدث عن الاسلام ننظر الى مبادئه نفسها ، بصرف النظر عن مدى تطبيقها اليوم في العالم الاسلامي وعلى هذا المنهج نسير الآن في البحث والموازنة » .

والدارس للكتاب يجده يمتاز بالايجاز والتركيز ، فصفحاته التي لم تتجاوز المائة الا قليلا اثارت عديدا من الموضوعات ، وناقشت قضايا كثيرة من اهمها :

الحضارة بين المادية والروحية ، المادية حرب على الاديان ، الحرية الدينية ، والسلام الاجتماعي ، والسلام العالمي في الاسلام والشيوعية ، السر في قيام الاسلام ودور مبادئه في انتشاره ، الديمقراطية وحقوق الانسان ، والحرية والاخاء والمساواة ، والفوارق بين الاشتراكية والشيوعية ، والتكافل الاجتماعي ومحاربته للفقر ، وحاجة الانسان للدين ، وموقف الاسلام من الاسرة ورعايته للمراة ، والاسرة والمراة في المجتمع الشيوعي ...

ومع الايجاز والتركيز في عرض ابواب الكتاب نشهد الدراسة الموضوعية في أسلوب علمي تتوه — في نظري — على الاسس الآتية :

— 1 —

عرض الموضوع من وجهة النظر الشيوعية عرضا محايدا ، وتدعيم الفكرة بأقوال الزعماء الماركسيين مثل انجلز ، وكارل ماركس ولينين وستالين وغيرهم ... فحينما يتحدث عن الحضارة بين المادية والروحية يقول « للشيوعية رأيها في اسس الحياة والوجود والحضارة يتجمع في فلسفة مادية عجيبة ، لا تؤمن بالمثل ولا بالروحيات والمعنويات فهي ترى أن المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية خارج نطاق الفكر مستقلة عنه ، والمادة اولا ثم يتلوها العقل » ... يقول انجلز « ان العالم المادي الذي ندركه بحواسنا ، والذي نحن جزء منه هو الحقيقة الوحيدة وليست المادة من انتاج العقل بل ان العقل ما هو الا اسمى انتاج المادة » .

— 2 —

طرح وجهة النظر الاسلامية ، والتدليل على صحتها بالكتاب والسنة واقوال الفقهاء والعلماء والفلاسفة من المسلمين وغيرهم . فنرى فضيلة المؤلف يعد ان بين وجهة نظر الملاشة في الدين يقول « والاسلام يدعو الى الدين والايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والقيم بالمثل العليا والاعتزاز بالقيم الانسانية وبالقيم الروحية ، واساس الحياة عنده هي الروح والمادة تبع لها ، والروح هي التي ناجت الله في الازل وعاهدته على الايمان كما تقرره القرآن الكريم ... والاسلام يدعو الى بناء الحياة على الروح « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

وفي صفحة 18 يذكر اقوالا مأثورة عن ماركس وهوبز وانجلز ، ويرد عليها في صفحة 19 بآثار عن توليستوي وشوبنهور وكريس موريسون والدكتور راين ويختم الفصل بقول الله تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » .

— 3 —

بيان ما في الفكر الشيوعي من خطر داهم يهدد البشرية ، والاستدلال على ذلك من واقع المجتمعات التي اوقعها سوء حظها في حبائل الشيوعية فالماركسية « مذهب يصطنع العداء بين الناس ويعتمد على التفاوت بين الطبقات ليثير الحقد والبغضاء في نفوس بني البشر ، ويقول لهذا مات غني ، ولذلك انت فقير وللغني شر ، والفقر موت ، وليدفع الفقير الى أن يقاتل بالسيف لخاء الغني ليستحوذ على ماله وثروته يدلك على ذلك التاريخ ... ان الشيوعية لم تكن لتقوم لها قائمة في بلادهم لولا هذه المجازر الهائلة وعدد الضحايا الضخمة ، ولولا سجون الاعتقال والنفي الى مجاهل سيبريا ، والبطش بخصومها في الرأي ، والتنكيل بمعارضيها في الفكرة ثم لولا الدعاية والاموال الضخمة التي تبذل لنشرها » .

وفي الحديث عن الحرية وموقف الماركسية منها يقول الدكتور الخفاجي « الشيوعية تلغي حرية الانسان بهي لكي تطعم الفرد تسلبه حريته ، وحرية لتكن معدومة فالناس يفكرون على النمط الذي يعجب الحزب الشيوعي ... والحرية السياسية مفقودة اذ ليس هناك الا حزب واحد ، وحاكم واحد ، وانتخابات صورية لا تنافس فيها !! والحرية الدينية معطلة ، والحرية الاقتصادية لا وجود لها ... ومرافق الثروة ملك للدولة والفرد اجير عندها مقابل اطعامه ، والحرية الشخصية محجور عليها لان الحزب الشيوعي مهيمن على حريات الناس ، وسلطان البوليس السري لا حد له ... والرحلة خارج البلاد ممنوعة » « والشيوعية لا تؤمن بشيء اسمه الحق » كما يقول اندريه جيد

— 4 —

الكشف عن حقائق الاسلام ، وسمو قيمه ، وعدالة احكامه مع ضرب الامثلة من تاريخ المسلمين ، تجد ذلك منثورا في صفحات الكتاب وبخاصة في الحديث عن الحرية والاخاء والمساواة « ان الاسلام ليحمي حق الانسان في الحياة والحرية والعدالة والانصاف والمساواة والامن وحقه في التعليم وحقه في الحكم الدستوري وفي كل جانب عادل من جوانب الحياة ... والعدالة تطبيق على الجميع بلا محسوبية ولا استثناء ... والغى الاسلام الامتيازات الفردية والطائفية ومحى ما بين الطبقات من الفروق والحقوق والواجبات » .

ويذكر الدكتور المؤلف قصة لها مدلولها الخلقي ، واهميتها القضائية يقول : « لما ولي عمر بن عبد

العزيز الخلافة قدم مصري عليه يطالبه برد أرضه التي اخذها ابوه منه ظلما في حلوان فقال عمر : تعال احتكم الى قاض من قضاة المسلمين ليحكم بيننا بما انزل الله ... وتكلم الخليفة بحجته ... وتكلم المصري فقضى القاضي للمصري على الخليفة .. فقال عمر بن عبد العزيز قد انفقنا عليها الف الف درهم . فقال القاضي : لقد اكلتم من غلتها بقدر هذا ، فاطمأنت نفس عمر وقال : وهل القضاء الا هذا ، والله لو قضيت لي ما وليت لي عملا » « ان الاسلام لا يبيح اثراء افراد بافقار امة ، ولا اسراف طائفة في التملك باشقاء مجتمع بأسره ، بل يجيز الحجر على الاغنياء حتى لا يسرفوا في تملك الارض » .

— 5 —

لموازنة العادلة بين شريعة الاسلام وآراء البشر سواء أكانوا شيوعيين أم غير شيوعيين فحينما تحدث عن الاسرة في ظل النظام الماركسي بين الوهدة السحيقة التي تردت فيها والشقاء الذي لحق بالمرأة والتشرد الذي انيل زهرة الطفولة بينما نرى الاسلام « دعم الاسرة واعتبرها الوحدة الاجتماعية الاولى في الامة وربطها برباط مقدس شريف وبعث فيها الحب والتعاون والمودة والاخلاص .. فاذا وجد للاسرة بنون او بنات فعلى الزوجين تعهدهم ورعايتهم وتاديبهم ... ونهى الاسلام عن الوصية للوارث ... ، كما نهى عن الوصية لغير الوارث باكثر من الثلث وذلك ليتمتع اكبر عدد من الاقارب بالميراث ، ولتتوزع الثروات الكبيرة فتقل الفروق الاجتماعية بين الناس ، فاين هذا من تشريعات اوربا التي تجيز ان تنتقل ثروة الميت الى الابن الاكبر وحده ، ويترك اخوات هذا الابن عالة على المجتمع .. وتجيز للرجل ان يوصي بماله كيفما شاء ولمن شاء » .

— 6 —

ومن ابرز ملامح منهج المؤلف الحكم الشجاع والقول الفصل فيما يعرض من قضايا فهو يقول في الحديث عن الآراء الالحادية « والذين يؤمنون بمثل هذه المبادىء هم في راي الاسلام مرتدون ، ويقاتلون حتى يفيئوا الى دين الله ، لانهم يعملون على مسخ الفطرة الانسانية ومحاربة فكرة التقدم والحضارة ويهدمون الاسس التي بنتها البشرية على مر الاجيال منارا رفيعا للفكر والمدنية » . وفي التكافل الاجتماعي يقول « اننا نطالب الحكومة ان تفرض الزكاة فرضا ، وان تجمعها من الاغنياء بقوة القانون ، وان تصرفها في مصارفها التي امر الله بها ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فالزكاة ركن كبير من اركان الاسلام وفيه علاج حاسم لامراض المجتمع ، وتقريب كبير بين طبقات الامة ، وتعاون مثمر بين الاغنياء والفقراء ، ورفع لمستوى الامة الاجتماعي ، ودواء لاهم مشكلة من مشاكلنا العامة الا وهي الفقر » .

ويطارد الفكر الماركسي ويكشف زيفه فيقول « الشيوعية تحارب حرية الانسان باثناء تحصيله في شخصية الدولة ، وجعله الة مسخرة للحكومة بما يستدعي اشاعة الاضطراب الاجتماعي ، وقيام الحروب والخصومات بين الطبقات والطوائف والقضاء على الامن الداخلي للامة » ثم يعقب قائلا : « وكل هذه الامور يحرمها الاسلام ، ويحاربها بكل ما يستطيع » .

* * *

ويؤكد الدكتور الخناجي في ثقة المؤمن بأن المستقبل للاسلام وهو الذي ستتحطم على صخرته امواج الشيوعية لان مبادئه هي السد المنيع امام تيارات الماركسية العاتية ، هذا مع اسلوب سلس ، وفكر واضح ، واعتماد على الحقائق ، وغيرة ازهرية ايما خلفية مؤمنة ، وروح اسلامية تفيض من قلم المؤلف فتنساب الى القلوب بردا وسلاما ، وتطلق بها الالسنه دعوات خالصة له ليظل درعا الحق وحصنا للقيم ، وداعية الى الخير .

ومهما اسهبنا في العرض ، وضربنا الامثلة ، فلن يغني شيء عن قراءة الكتاب قراءة واعية ، بل دراسته دراسة متانية .

الوجادات (723 - 734)

للأستاذ عبد القادر زمامة

723 ـــ مستديرة ، وسائرة ... !

وجدت في المقالة الثانية من كتاب « تخليص الابريز في تلخيص باريز » الذي الفه رفاعة الطهطاوي (1801 م ـ 1873 م)

« وممن قال من علماء المغرب بأن الارض مستديرة وانها سائرة ، العلامة الشيخ مختار الكنتاوي بأرض ازوات بقرب بلاد تمبكتو .. !! وهو مؤلف مختصر في فقه مالك ، ضاهى به متن خليل ، وضاهى ايضا الفية ابن مالك في النحو ، وله غير ذلك من المصنفات في العلوم الظاهرية والباطنية كأوراد واحزاب كحزب الشاذلي ، وقد الف كتابا وسماه النزهة جمع فيه جملة علوم فذكر بالمناسبة علم الهيئة ، فتكلم على كروية الارض ، وعلى سيرها ووضح ذلك ، فتلخص من كلامه أن الارض كرة ، ولا يضر اعتقاد تحركها او سكونها .. ! مات هذا الشيخ سنة الف ومائتين وست وعشرين من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة وازكى التسليم وخلفه حفيده المسمى باسمه .. ! »

724 ـــ الشيخ الكنتي ...

وجدت في كتاب « جامع كرامات الاولياء » ج 2 ص 247

« الشيخ المختار بن احمد بن أبي بكر الكنتي القادري ، من ذرية عقبة بن نافع ...

والكنتي نسبة الى كنتة ، اسم ارض من أقصى بلاد الصحراء ....

ولد سنة 1142 هـ وتوفي سنة 1226 هـ » .

725 ـــ صنعة العلم كاسدة ... !

وجدت في كتاب نزهة الحادي عند الكلام على سيرة المنصور الذهبي :

« ... وقد وفد عليه مرة (القاضي عبد الواحد الحميدي) مع بعض الطلبة في بعض المواسم ، فلما انصرفوا من الحضرة جمعتهم الطريق بارباب الموسيقى واصحاب الاغاني من أهل فاس وقد كانوا وفدوا ايضا معهم على سبيل العادة ، فأخرج بعضهم شيابة من الابريز مرصعة ، اعطاها له المنصور .. ! وبعضهم قال : اعطاني كذا .. ! وقال الآخر : اجازني بكذا ... !! مما لم يعط مثله للقاضي وشيعته من الطلبة ... !! فقال القاضي :

— أن بلغت فاسا لاردن أولادي لصنعة الموسيقى .. ! فان صنعة العلم كاسدة .. ! ولولا ان الموسيقى هو العلم العزيز ما رجعنا مخفقين .. ! ورجع الآلي بشبابة الابريز ... !!! »

726 — حروف الكيمياء ... !

وجدت في (نزهة الحادي) ط. حجرية ، ص. 43

« ... فان الذي ينقل عن الشيخ سيدي أحمد ابن موسى أن رجلا جاءه وطلب منه أن يعلمه صنعة الكيمياء .. ! فقال له الشيخ :

— حروف الكيمياء خمسة ... !

هي عدد أصابع اليد ... !

فان أردتها يا أخي ، فعليك بالحراثة ... والفلاحة ... فتلك كيمياء الناس ... لا كيمياء النحاس والرصاص ... ! »

727 — العالم النحرير على النجارين ... !

وجدت في (نزهة الحادي) ط. حجرية ص22 اثناء كلام حول المد النبوي ، وما كان يصنعه منه النجارون في مدينة فاس ...

« وقد جعلوا العالم النحرير على النجارين فلا يبيعون صاعا ولا مدا حتى ينزل طابعه فيه بعد امتحانه ... !! »

728 — النظام شاعر اندلسي ... !

وجدت في القاموس المحيط للفيروزاباذي في مادة « نظم »

« وكشداد ، لقب ابراهيم بن سيار المتكلم ... ومحمد بن عبد الجبار الشاعر الاندلسي .. !! »

729 — البليغة شاعر اندلسي .. !

وجدت في كتاب (جذوة المقتبس) للحميدي ترجمة لشاعر المنصور بن أبي عامر المسمى :

« سعيد بن عثمان بن مروان القرشي المعروف بالبليغة ... !!! »

730 — تيس الجن ، شاعر اندلسي .. !

وجدت في كتاب (جذوه المقتبس) للحميدي ترجمة للشاعر الاندلسي الخليع :

« احمد بن محمد الجياني المعروف بتيس الجن .. ! »

731 — بومبلوطة ... !

وجدت في كتاب « تاريخ الدولة السعدية » المطبوع بالرباط سنة 1934 في كلامه على محمد الشيخ :

« محمد الشيخ : دخل فاسا وعليه ملوطة ملف سماوي ، وطوقها من ملف احمر ، وكان بنو مرين سموه ببوملوطة .. !! »

732 — الطرقون ... !

وجدت في كتاب الاحاطة ، ج. 2 ، ط. عنان. القاهرة ، في ترجمة محمد بن سعيد ابن مردنيش حكاية موثرة عن جور عماله وفتكهم بالناس جاء فيها:

« ... وضربنا دفا ، فلما كان عند الصباح ، واذا بنقر عنيف بالباب فقلت من انت .. ؟ فقال : انا الطرقون الذي بيده قبالة اللهو ، وهي منتفية بيدي وانتم ضربتم البارحة الدف فاعطنا حق العرس الذي عملت ... !!! »

733 — اذا عشتا متنا ... !

وجدت في ترجمة القاضي عبد الوهاب المالكي البغدادي من وفيات الاعيان لابن خلكان :

« واجتاز في طريقه بمعرة النعمان ، وكان قاصدا مصر ، وبالمعرة يومئذ ابو العلاء المعري ، فاضافه ، وفي ذلك يقول من جملة ابيات :

والمالكي ابن نصر زار في سفر
بلادنا فحمدنا النأي والسفرا

اذا نفقه احيا مالكا جـــدلا
وينشر الملك القليل ان شعرا

ثم توجه الى مصر . فحمل لواءهـا . ومـــلا ارضها وسماءها . واستتبع سادتهـا وكبراءهـــا . وناهت اليه الفرائب . والثالث في يديه الرغائب . فمات لاول ما وصلها من أكلة اشتهاها فاكلهـــا .. ! وزعموا انه قال وهو يتقلـــب . ونفســـه يتصعـــد ويتصـــــوب :

لا اله الا الله ... اذا عشنا متنا ... !!! »

734 — فكـــرفســـــــوه ... !

وجدت في كتاب « حديقة الازاهر » لابن عاصم الفرناطي . ط. حجرية .

« ان معلما اغرى تلاميذه بواحد منهـــم ... نقال لهـــم :

— يا صبيان كرفسوه ... !!

فكرفـــوه بالبزاق حتى صار أبلـــق .. !! »

ديوان المجلة

- دعـــوة للـهـــدى
- وثـبـتـنـا الـكـبـرى
- جـنـنـا نـحـيـي هـمـة
- جـــلال الـذكـرى

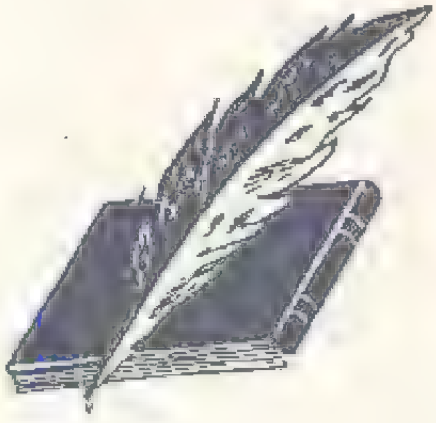

دعوة للهدى

للاستاذ عمر بهاء الدين الاميري

سرايا ، ولله في خلقه
شؤون ، يقدر احوالها
ودولاب دهر ... ورب يداول
بين البرية آجالها
نواميس تجرى على العالمين
أدار لها الحق منوالها
فبالحق تمنح اعزازها
وبالحق تكتب اذلالها
هدى بذل الله خيراته
فمن يتبع نهجه نالها
ومن عق ، شق عصا عقله
فولد للروح اوجالها
فلا ... لا يلومن سوى نفسه
اذا مسها الضر او غالها

* * *

(*) نظمت في اكادير : 17 جمادى الاولى 1397 — 7 ماي 1977 ، والقيت في حفل افتتاح المؤتمر السادس لرابطة علماء المغرب باكادير في 18 جمادى الاولى 1397 .

« اكادير » جئتك اسعى وقد
تركت الرباط و « اكدالها »
وجهت قلبي لا ابتغي
محاسن ونيت اشكالها
ولبيتها دعوة للهدى
تولى الاخ البر (1) ارسالها
ورابطة اجمعت امرها
فجئت اؤكد اجلالها
احيي شيوخ التقى الاكرمين
وادعو الى العزم اشبالها
واذكر بالرحمة الراحلين
اخص « جوادا » (2) و « علالها » (3)
وادعو لها بسداد الجهاد
وان يتوج الله اعمالها
وان يحفظ الله « كنونها » (4)
وان يشفي الله « رحالها » (5)

* * *

ايا صحب لي وجهت قلبي
وعقلي ونفسي وتجوالها
اقلد آفاق هدى الحضارة
عدلا ، وادرس اطوالها
امحص احوال اقسامها

---

(1) و (4) الامين العام لرابطة علماء المغرب الاستاذ عبد الله كنون .
(2) الاستاذ الجواد الصقلي عميد كلية الشريعة بفاس رحمه الله .
(3) الاستاذ علال الفاسي رحمه الله .
(5) الاستاذ الرحال الفاروقي عميد كلية اللغة العربية بمراكش وقد تخلف عن المؤتمر لمرضه عافاه الله .

ومن مدحوها ، وعذالها :
تنمي العلوم ... ترود النجوم
اجل ، واجل الذى طالها
ولكن اعود الى بغيها
وتقليدها الامر ختالها
وانصر فتك جرائمها
ومكر يهودي احتلها
ليستلب الناس اقواتهم
وحتى الفقيرة ... اسمالها
وكيف نسوى الدنى للفنا
وكيف نكرم قتالها
فاحكم فى رشد « انها
شقاء » اذا رمت اجمالها
ويمهلها الله حتى تثوب
فاهمالنا زاد امهالها
وان الدنى من عمي الضنى
بنا قدر الله ابلالها
امانة اسلامنا فانفروا
ايا صحب نرفع احمالها

* * *

امؤتمر الخير شمر وقد
لامة « احمد » اجيالها
وخض غمرات عناد الكبار
وسق للمهمات عمالها
فامتنا فى بكاء وشكوى
وقد رفض الكون اعوالها
وقلد سيطرة العالمين
عداة تقطع اوصالها
فذى « قدسنا » فى اسار اليهود

ولبيقاتها زاد اشكالها
وابن الغبارى من المسلمين
يسوقون للحرب ارتالها
« فلسطين » عز « الندا » التى
سكر فيهزم صوالها
ويهتف « الله » يبغى الشهادة
قد شام فى الزحف اطلالها
ولا يستكين قصد الرسول
ونهج الفتوح وارسالها
تلا « اليسار » ولا « اليمين »
سويا مع الله قد صالها
لقد جحد البعض درب الهدى
ولن ينصر الله ميالها
مؤامرة نحن فى صلبها
بجهل نعمق اهوالها

* * *

المؤتمر الخير من ذا يفك
لاسه « احمد » اغلالها
تبدلت الحال من سؤدد
الى وهن زاد اذلالها
نقد غربت بالبدنى دينها
وقد ضرب الله امثالها
هو الدين ابن الالى جنده ؟
هو الدين يملك ابدالها
ويملك تسديد انسانها
ويملك فى المجد اجلالها
هم العلماء الدعاة الهداة
يمدون بالراى اقبالها
ويكتبه رب البرايا بهم
لها ، بعدما كان ، اقبالها

فيا معقل الدين والعلم والمزايا
أيا « سوس » يا آلها
جزيتم عن المكرمات الثناء
ودمتم تضمون احفالها

* * *

امؤتمر الخير لا الوصيات ستجدى
ولو خال من خالها
ولا دعوات التقى الصحات ،
ولسنا لننكر افضالها
ولاكن رب البرايا قضى
وقال : اعملوا ... هو قد قالها
اذا نحن لم ننقدح للحياة
فهيهات نملك اهلالها
فكم اسلمت للفعول ذمام
علالها ، ولم تعط قوالها
عقال بعير ، فراح عقيما
يغنى على الضعف موالها

* * *

ايا صحب انى لأسأل نفسى
ونفسى تعرف امحالها
اذا فى غد حم يوم الحساب
و « زلزلت الارض زلزالها »
ونادى الى الحشر والنشر داع
« واخرجت الارض اثقالها »
وكان السؤال ولات المحيص
وواجهت النفس افعالها
وقدم من ورثوا الانبياء (6)

(6) كان أحد شعارى المؤتمر قول النبى صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الانبياء » .

ولم تبخس النفس مثقالها
ويسألها الله عما حبا
حبا علمها وحبا مالها
فماذا يكون الجواب الصواب ؟
وكيف توازن مكيالها ؟

* * *

عداة اعدت صواريخها
وصالت وجالت وما هالها ...
ندبنا العروبة والمسلمين
تواجه بالرقص خيالها
يشدو الثيران وحشد الحسان
تهز الصدور واكفالها
بهودية وصليبية
و « مركس » يلتس ربالها
الا وثبة يا حماة الحمى
نرد الى العقل جهالها
فان رفضوا العدل واستكبروا
نكر عاجبها لغتالها
وتظهر دعوة قرآننا
حقائق نمحو بها آلها

* * *

رابطة عقدت جمعها الكريم
بمحض اشتعالها
الا اننا الجند ، ان جد جد
يترجم بالفعل آمالها
الى علماء البلاد ملاذ
لعمادة ، اذا حققوا غالها

وعاهلنا راس اقطابها
بحث ويدعم ابدالها

* * *

تواص بحق وصبر ، وما
ابرىء نفسي واعمالها
الا شهد الله بلغتها
اهز القلوب واقفالها
وما هي فحواي في جمعكم
اذا رضي القلب اغفالها
واقسم بالله ، في لمحه
اذا ما ملكنا لها مالها
سنرقى السنام نشيع السلام
وننفي عن الارض اوحالها
اذا صدق العزم دالت لنا
العوالم فالله اوحى لها

عمر بهاء الدين الاميرى

وطننا الكبير

للأستاذ الشاعر وصيه فوزي صلاح

بلدي يا أعلى من ولدي
أهديك بروحي والجسد
وعيونك من شر الحسد
بالله الحافظ والصمد

لتظل منيرا بالحسن

من خطط وبعثنا الكبرى
بمسيرة فتح للصحرا
من أحرز للمغرب نصرا
وأغاص على الرمل الغدرى

سيف القادسون أبي السنن

آفاق العلم تطالعنا
وتحيي قائدنا الحسن
من شاد معالمها وبنا
أمجادا تذكي نهضتنا

لتظل مصابيح الزمن

من أشرق فى الافق العربي
شمسا تختال على الشهب
بسديد الراى وبالحسب
وبطول الباع وبالنسب

واضاء على هذا الوطن

مولاي ايا عالي الهمه
ومحقق آمال الامه
ومنير لقاءات القمه
بالعزم الصادق والبسمه

فى السر هواك وفى العلن

الله يبارك وحدتنا
ويسدد دوما خطوتنا
ما دام العاهل قدوتنا
وهداه ينير بصيرتنا

سنحقق آمال الحسن

بمياهك والعشب الاخضر
يا وطني والزهر الانضر
وصباحك بالعرش منور
ومليك بغدق كالكوثر

البشر يلون وادينا

فى عيدك يا ملكي الغالي
يا اول حب لا ثاني
بلساني انشد الحاني
وامجد عهدك بجناني

يا حامي المجد وحامينا

انا بمسيرتك الخضرا
حررنا الساقية الحمرا

واعدتنا امجاد العصر
لتتمم وحدتنا الكبرى

وتحقق حلو امانينا

بهداك نعم شبابتنا
وترود الافق شبيبتنا
وتعز بجهدك امتنا
فتبوز الكون حضارتنا

في حاضرنا او ماضينا

يا ربي اطل عمر الغالي
وامده بنصر متوال
يا ربي وفي كل مجال
كي تبلغ حلو الآمال

بالحسن الثاني راعينا

الرباط : وجيه فهمي صلاح

جئنا نحيي همة

للشاعر الحاج أحمد بن شقرون .

(تحية المؤتمر السادس لرابطة العلماء المنعقد (1) بمدينة اكادير)

العلم في سوس تدفق ناقعا ... والمجد في سوس توهج ، ساطعا
والنبل ، والتقوى ، وكل فضيلة ... تهدى اليك مباهجا ، ومرابعا
والناس في هذي البلاد تسارعوا ... لمناهج العليا ، فنالوا الفارعا
فمتالف مهجورة ، ومساجد ... معمورة ، تؤوى المطيع الضارعا
ومدارس فياضة بمعارف ... منذ القديم (2) تروق زهرا ، يانعا
والمجد في سوس ، تراه طبيعة ... تنأى بهم عما بعد بلاقعا
والدين اصل جذره في انفس ... شرفت بهم فحموا حماه مصاقعا

* * *

عاشرتهم زمنا ، فأبصرت الهدى ... متألقا ، غمر الفتى ، الراكعا
وخبرتهم ، فخبرت امجادا ، نمت ... في سادة ، ورثوا الخلال بوارعا
الحسن يغمر عهدهم ، فصديقهم ... انى يكن ، يلق احتراما ، رائقا
ايمانهم يفضي بهم ، لتعاطف ... وبهم يسير الى الودود مسارعا
سل عنهم مختارهم (3) ينبئك في ... « معسوله » عما يسر السامعا
بل انه مختارنا ، الطف به ... خلقا نبيلا ، واطلاعا واسعا
كنا اذا زرناه ، نقتبس حكمة ... من عالم ، فحل ، ببيت مطالعا

---

(1) 18 — 19 جمادى الاولى 1397 . 7 — 8 ماى 1977 .
(2) اشارة الى المدارس العتيقة المنبثة منذ القدم في اقليم سوس العالمة
(3) هو العلامة المرحوم بكرم الله السيد الحاج المختار السوسي .

خاض النضال ، ولم يهب مستعمرا ... ومضى عن الوطن السليب مدافعا
دس المنى ، عزمه ، بشجاعة ... كانت اجل مطامحا ، ومنازعا
حتى مضى سير ، وشع بمغرب ... نور ، أزاح مخاصرا ، ومطامعا

* * *

حثنا نحيي همه ، سوسية ... تهدى اليها « فاس » ودا ، ساطعا
وجدد العهد القديم ونهتدى ... بسنا الاحبة في الضمائر لامعا
ونوثق الربط الذى تزهى به ... قيم الشريعة مستمرا ناصعا
فالسادة العلماء مذ كانوا وهم ... مجرى الفضائل حكمة ، وتواضعا
يعنون « بالضاد » الرفيع مقامها ... وشريعة ، حملت لواء رادعا
ورثوا عن الهادى النبى محمد ... ميراثهم علما ، ميرا ، ناجعا
وعلى المنابر ، لم يزالوا سادة ... يهدون بالحسنى الخليع الخانعا
مازال ديدنهم دراسة نافع ... من سنه ، زخرت ، تلذ منابعا
والله اعلم حيث يجعل سره ... في خلقه ، علما ، وفضلا ، وافعا
سيفوز ، بالذكر الجميل ، اخو الحجى ... من عاش للخلق المحبب زارعا

* * *

رودانة ان شئت سل عن معهد ... فيها ، تجد ادبا ، وفهما ناصعا
اوشئت سل « ايفرى » بقلب نكبة ... تجد العروج اليانعات مراتعا
وعن الروابط ، سل رجالا ، واصلوا ... عهدا ، مع الخلاق ، يلمع ، وادعا
سل ارض سوس ، كلها عن نزعة ... جبلية ، تلق اخضرارا يانعا
وتجد فواكه دانيات ، لم تزل ... للزائرين ، السائحين ، منافعا

* * *

بخريدة في الطب جادت « درعة » (4) ... واتت تشنف بالمفيد مسامعا
والالفيات طرائف ، منثورة ... نثر الجمان ، عن الالى متتابعا

* * *

---

(4) اشارة الى منظومة الفقيه السيد احمد الدرعى التى نظمها في الطب وابتدا فيها بادوية الراس وختمها بادوية الاسافل وسماها : الهدية المقبولة .

يـــا أهل سوس ، قد توطد ودكـــم ... بلقـــاه عبد (5) الله ودا ساطعـــا

إنـــا لا أرشـــح للامـــانـــة غـــيره ... فلقـــد تمـــرس بالامانـــة بـــارعـــا

واقـــام يخـــدم ســـادة بلـــيـــاقـــة ... ويضم اخوانـــا ، ويصقـــل شـــاســـعا

ويدير فى حدب ، ويـــداب صـــابـــرا ... ويعيـــش للاخوان ، خـــلا ، نافعـــا

* * *

ومليكنا : الحسن المعظم لم يـــزل ... لفخـــار هذا الشعب ، يحيا صانعـــا

ويعلم اهـــل العلم ، يعتـــى دائمـــا ... تاجـــا على عرش القـــلوب مبايعـــا

ويـــرون فـــيـــه ضمانـــة ابـــديـــة ... راس المعارف ، للمعارف ، رائعـــا

فالله يحفـــظـــه لنـــا ، وللشعـــبـــه ... ملـــكـــا ، اثيـــلا للمكـــارم جامعـــا

نـــدعـــو لـــه ، ولأســـرة ميمـــونـــة ... وولـــى عهـــد فى المجـــرة ، طالعـــا

---

(5) هو العلامة البحاثة المطلع سيدى عبد الله المكنون الامين العام لرابطة العلماء

جلال الذكرى

للأستاذ الشاعر محمد بن محمد العلمي

جلال ذكراك فوق الشعر والنغم ، وفوق ما يصف الوصاف بالقلم
(ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها عقود مدح ، فما أرضى لكم كلمى)
ان الغرام الذى فى القلب جذوته هو الذى جعل المحبوب شدو فمي
فالدفء فى عصبي ، والعشق فى كبدي والحمد فى عيدك الميمون ملء دمي
مفاخر (الحسن الثانى) وهمته نزهو بأمجادها فى موكب الامم
من سيد الخلق لله عنده قبس ، والجوهر الفرد كل غير منقسم
قد وحد الوطن الغالي والهمه ملاحم البعث والتشييد للهمم
فعرشنا العلوي الله ناصره ، نظامه ثابت من احسن النظم
منارة قد هدى منا العقول الى نيل المكارم والآلاء والنعم
أحبه الشعب ، والرحمان أيده ، وصانه دائما من أجمع النقم
وفى محبة رب العالمين له نور به تنجلى وحشة الظلم
من يعرف الله كان الله حافظه من الشدائد والنزلات والغمم
يا باني المجد ، يا نور اليقين لنا ، ابشر بما نلت فى العلياء من شيم
صحراؤنا انت من تحيي أصالتها نعاد تاريخها ثارا على علم
مسيرة السلم عنوان انتصارك فى ركب الى وحدة الاوطان مزدحم
موكبه الفتح للقرآن حاملة وصوت تكبيرها كالرعد فى الاكم
تزهو وترتفع الرايات فى يدها ، وطبعها هيبة كالاسد فى الاجم
يا قائد الزحف ، والامجاد تبعثه ، والشعب لبساك ، لم يحجم ولم يجم

جددت للمغرب المحبوب عزته ، فكشفت عنه سحب الذل والعار
انوار جدك فوق التاج ساطعة سطوع صبح من الآمال مبتسم
حاشاه أن يحرم الراجي مكارمه ، أو يرجع الجار منه غير محترم
عهد الربيع جديد في نضارته متك تستمد شبابا خالد الشيم
حقنت لروع ما يهفو الكرام له وكنت في فكرك الخلق الذي شمخت
وفي مسيرتك الخضراء منجحة قد خاضها الشعب طوعا رائع القدم
لاهاي ، قد نطقت بالحق جاهرة ، ولم تدع حجة أخرى لمختصم
فلا مجال لاطماع يبيتها كمثل الجمود ، ولا جدوى لمتهم
بهما ، ظل حوله الطاغي وسطوته ، فان دولته بالبغي لم تدم
، زبير ، انت لها ، قد صنت وحدتنا صد اعزاء ، عما عالت ، ولم تضع
ان نشعوب عبر الحق ما رغبت ، يكفي الدخيل وجود منه لم يقم
ردت بشاعتنا في العز كاملة ، وشوقها ظاهر للاصل في الشمم
والشعب اعظم عملاق بصولته يسفه الحلم الممقوت للتزم
كان ، الحدي ، وما ينفك مكرمة دلت على بطل بالنبل متسم
ابهى المسيرات فيها نسمر ، قد كنا مدى الدهر شعب البأس والكرم
من لم يسن حرية الحيران بغته ، فنجد رسك جندا غير منهزم
في الاسمين لقد ما اليمن ، نلم ، نهن ، ولم يحنث الاحرار في القسم
ع القرص تلنا وسما اذ نتيه به ، وزكنا العرش ركن غير منهد
وعهدنا عهد رب العالمين ، فلم يكن بمتثلم يوما ومنتصم
ان الطموح للخيرات شيمتنا والعرش اضمن للتوفيق في الهمم
شعارنا الله ، والاوطان نحفظها ، والعرش نحن له من اخلص الخدم
وحوله النجم الصف العظيم على حب البلاد ، فلم يغفل ولم ينم
كم ضاعف الجهد في خوض الجهاد ، فلم يفتر عن السعي في تصميم ملتزم
سل السدود ، تفيها الخير مدخر ، والماء منه حياة الكون والنعم
ان الكفاية عنوان الثراء لنا ، وفي الخماصة اصل الداء والالم
سل المعاهد فيها النشء متفتح على التوجد بجند منه مستجم
سل المساجد ، والقرآن يعمرها بمصحف حسني باهر الحكم
سل الجنود ، غني ، الجولان ، نجدتها ، وعند سيناء ، اقناع لمحتكم
انا لقوم اباة ، اذ نغار على حفظ الحمارم والاوطان والذمم
من المحيط الى اقصى الخليج لنا حب وثيق وعهد غير منصرم

والقائد ، الحسن ، المغوار تطبعه
ايمان مرتقب لله ، منتقم
بين ، الرياض ، ففي ، لبنان ، قد عكست
، روح الرباط ، على الاكوان قد بسطت
اكرم تعاهلنا المحور من بطل ،
، روح الجماعة ، في مسعاه قد وضحت ،
بين العروبة والاسلام ، انهما
بين المشاريع في بدو ، وفي حضر :
بين الصحافة ، والاكوان مصغية
بين الفصاحة والآداب ، فهي له
قد فتحت مقلة الاعمى على نظر ،
بين العوالم عن سر تبوح به
غرامه قد رضعنا من كواثره ،
ونحن لا نرتوي ، بل كلما عطشت
اقر رب البرايا عينه ابدا
فانه اول الابطال اجمعهم ،
فهو المشرف شعري عند مبتدئي ،

حرارة الملتقى في الحل والحرم :
لله ، منتصر بالله معتصم
ظل السلام ، واحيته من العدم
امنا ، فلم تبق من جرح ومن سقم
اعظم به في احتدام الهول من حكم :
فانظر الى حكمة المستوعب الفهم
في قلبه اثره موصولة الرحم
تلك الحقائق فوق الوهم والحلم
الى خضم عميق الغور ملتطم
اسمى المرايا ، فلم تدرك ولم ترم
واسمعت كل من يشكو من الصمم
محاسن ، الحسن الثاني ، مع النسم
وقلبنا في هواه غير منفطم
اكبادنا ، نابها لفح من الضرم
جوهر من بنيه العز منتظم
وقدوة لملوك الارض كلهم
وهو الثريا لفني عند مختتمي !

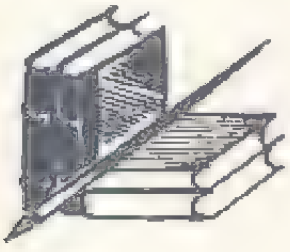

عمائم وأمواج

للأستاذ الشاعر محمد البوعناني

« عريس القلاع ...
معبد الشواطىء ...
امير المنار :
مولاى اسماعيل العلوى »

* * *

ترسا الليل ...
وشمس الموعد الصيفي تحترقان فى المدفع
وتنفجران فى الشاطىء !
واسماك الثغور تصيح
يا نيران عزرائيل
على مجلها الفاجر !

* * *

ينام الاطلس الوردي ...
يخجل ان يرى نجمة !
ويخجل ان يجمله بياض التاج ...
أو أرز على قمة !

* * *

يـمـوت الـصـبـح ! . . . او يـسـطـلـع . . .
ولـيـس بـارضـنـا غـادر !
بـهـذا صـاح اسـمـاعـيـل ؛
بـهـذا غـنـت الامـــة !
ويـــوم الـــزحـــف . . .
لـم تـنـسـخ عـمـائـمـهـا عـلى الامـواج ؛
ولـكـن طـوقـت فـى حـلـق سـاحـلـنـا . . .
دخـيـلا يـنـشـر الارهـاب والـحـسـرات
بـارض لـم يـزر ابـوابـهـا قـابـيـل !
ولا خـضـعـت لـمـفـتـاح . . .
ولـم تـدبـر امـام الـمـوت والاهـوال !
وكـانـت حـرة الـسـكـنـات . . .
كـانـت حـرة الـحـركـات !

* * *

وطـن الـغـاصـب الـمـقـهـور
ان الـنـار تـحـرقـنـا ،
وان الـبـحـور . . . والابـــراج . . .
والامـــــواج . . .
تـحـبـسـنـا !
وان الـدار قـد نـسـيـت اهـالـيـهـا
ولا تـهـفـو لـبـانـيـهـا !
وان الـصـخـرة الـصـمـاء
لا تـغـضـب !
وانـا فـى مـخـابـئـنـا ،
وانـا فـى مـقـابـرنـا ،
الـى مـا شـاء الاسـتـعـمـار !
ولـيـس لـنـا شـبـاب طـامـع فـى الـثـار ! . . .
ولـكـن —
تـمـام فـيـنـا مـن اعـاد الامـر والـعـزمـات ،

أعاد الفجر للاشواق ! . . .
أعاد النهر للاحداق ! . . .
أعاد البحر للافاق ! . . .
ويفسخ موجه حتى يضم النخل والاسوار ؛
ويسنخ جذوة الايمان في المغرب . . .
بأبواق ،
تهز الارض عزا تحت اسرافيل !

* * *

زغاريد تبارت في اماسينا ،
صلاة تملأ البيدا ،
وموال يسير بقاربه الاسرار ؛
وألف يد تنمق لؤلؤ الاكليل ،
وانسمة حجازية . . .
تفوح على نوادينا ؛
تدغدغ (بشبع النخل) المعلق في مآقينا !
كما أحييت موات الامس في اقصى روابينا . . .
فقد حشرت مواعيدا . . .
وأبعادا من الاحرار
أعادوا الصبح للاطفال ،
أعادوا الحب والايمان للاجيال !
فعاشوا تبلنا ابطال
ودامسوا بعدنا ابطال
وكانوا جيش اسماعيل !

محمد ألبوعناني

صوت الأمانة

للشاعر المدني الحمراوي

قراءت — على بغتة — عرفان ... لعيني . كأنهما دميتان
رأيتهما تمشيان معا ... شككت بأنهما أنثيان
لباسهما واحد مثلما ... تتوج رأسيهما وفرتان
ومنظر شكلهما واحد ، ... كذلك وجهاهما مشرقان
ولا فرق يلحظ بينهما ... إذا نظرت — فجأة — مقلتان
فقلت — بلا حرج — معجبا ... كهاتين حقا تكون الحسان
كأنهما طيبتا واحدة ... فكل بحسنهما ذو افتتان
ولما تأملت صدريهما ... عرفت اليقين بحس العيان
فأرهفت سمعي لعل الذي ... رأيت تحققه الأذنان
سمعت كلامهما فإذا ... بصوتين في الجرس يختلفان
فصوت قوي له غلظة ... وصوت رقيق كلحس القيان
فقلت فتى وفتاة هما ... وليسا كما أوهم المظهران
تملكني عجب مدهش ... وكادت تزل بي القدمان
وقلت لنفسي : ألم تنظري ... إلى خيبة تبعت الغثيان ؟

* * *

أحقا شبيبتنا أفلست ... فصارت إلى مثل هذا الهوان ؟
وصحت بأخلاقها بعد ما ... عصت وجفت دينها من زمان
وصارت تدين بمحض الهوى ... فضلت سبيل الهدى والأمان
وأفلت منها الزمام الذي ... أضاعته في غمرات الرهان
فليس لها منهج سالم ... أصيل قويم يصون الكيان

ومهجها انها اصبحت تقلد كل خسيس مهان
ترى انها ادركت سؤلها وما هو الا هوى وامتهان
وكيف يليق بها منهج اصالتها فيه ليست تصان ؟
سراب به خدعت اعين ترى انه سلسبيل الجنان
وليس هنالك غير الردى يطل سعاليه من كل حان
تساق ضحاياه في موكب تخدره نغمات الحنان

* * *

هربت الى العيش من موكب رهيب ، ومن نهشة الافعوان
اريد الحياة ؛ فان شئتها فهيا ، ودع موكب الموتان
هلم الى ساحة فوقها يطيب الزمان لنا والمكان
الى قبلة الحق في منهج به من خراب ومسخ نصان
تضعنه مصحف طاهر فكيف بمنهجه يستهان ؟

* * *

ترى اي شؤم دهى جيلنا فانكر حقا صريح البيان ؟
وآثر مستنقعات الهوى وفضل حسو سموم الدنان
فضاع وضيع امته وكاد يغيبه الذوبان
تعرى ودنس اعراضه ومال الى حتفه واستكان
تولت غرائزه سوقه بعنف مطاوعها واستلان
يروح ويغدو الى هيكل شعائره الفحش والهذيان
ويمسي ويصبح في غفلة وغيره حلق فوق العنان
فكيف وتاريخنا يقتضي صمودا ، وشحذ الحجى والسنان ؟
وصوت الامانة مستصرخ يطالبنا بالوفا كل آن
وقرآننا لم يزل ناطقا وقد لاح منه الهدى واستبان
يقرعنا باليم العتاب مشيرا الى جيلنا بالبنان
انهدر حرمة اخلاقنا ونأمن من فجاة الحدثان ؟
كفى سفها ، وكفى غفلة وهل نرعوي قبل فوات الاوان ؟
فاما بقاء له قيمة واما ضياع ، هما خطتان

الرباط — العدني الحمراوي

مؤتمر الجمعيات الاسلامية في مصر يطالب بتطبيق الشريعة

انعقد مؤخرا في مصر مؤتمر الجمعيات الاسلامية العاملة داخل التراب المصري ، وقد ترأس الجلسة الافتتاحية الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الازهر وحضره عدد كبير من العلماء والمفكرين والكتاب والصحفيين . وتدارس المؤتمر وضعية الجمعيات الاسلامية وبحث سبل النهوض بمستواها لاداء الدور القيادي المنوط بها .

وقد طالب المؤتمر في توصياته بوجوب تطبيق الشريعة الاسلامية باعتبارها المخرج الوحيد لجميع الازمات الاجتماعية والاقتصادية والحضارية .

وقد نقلت الصحف المصرية أصداء هذا المؤتمر واهتمت به وسائل الاعلام من اذاعة وتلفزة .

بناء اكبر مسجد بافريقيا في ليبرفيل

قرر الحاج عمر بونغو رئيس جمهورية الغابون اقامة مسجد في ليبرفيل عاصمة الغابون ، بحيث يصبح اضخم واكبر مساجد افريقيا ، ويتكلف بناؤه 20 مليون دولار ، ويكون ايضا اول جامعة اسلامية في الغابون . الرئيس عمر بونغو ابدى اهتماما بنشر الدين الاسلامي في بلاده منذ أشهر اسلامه منذ 3 سنوات ، وادى فريضة الحج .

بنك فيصل الاسلامي

اتفقت اللجنة العليا للتخطيط في مصر على انشاء « بنك فيصل الاسلامي المصري » للقيام بجميع الاعمال المصرفية والاستثمار والمشاركة في مشروعات التنمية الاقتصادية والعمرانية والصناعية في اطار احكام الشريعة الاسلامية .

مؤتمر المدن العربية

انعقد بالرباط « مؤتمر المدن العربية » التاريخية الكبرى وفي مقدمتها مدينة القدس التي بحضور ممثلي عدد كبير من العواصم العربية والمدن

السيد روحي الخطيب

مثلها عميدها الشيخ روحي الخطيب الذي طردته السلطات الصهيونية من القدس المحتلة في عقاب حرب يونيو 67 .

ندوة علمية في كشمير حول الشيخ محمد انور شاه

عقدت مصلحة الاوقاف الاسلامية لولاية كشمير بتوجيه من السيد شيخ محمد عبد الله رئيس وزراء كشمير ندوة علمية عن الامام المحدث الكبير الشيخ محمد انور شاه الكشميري احد شيوخ دار العلوم ديوبند وعلمائها الافذاذ تقديرا للاعمال التي قام بها الشيخ رحمه الله في مجالات علمية ودينية عديدة وتخليدا لذكرى شخصيته الفذة ، حيث كان رحمه الله مثالا نادرا للتضلع من العلوم والعبقرية الخارقة للعادة .

وقد شارك في تلك الندوة المزمع عقدها بكشمير في شهر يونيو الفارط عدد كبير من الكتاب والباحثين والشخصيات الاسلامية البارزة من العلماء والمثقفين .

مسلمو كامبوديا يستنجدون بالعالم الاسلامي

● ناشد مسلمو كامبوديا اللاجئون العالم الاسلامي للنظر والاهتمام باخوانهم المسلمين في كامبوديا .

وقد كانت كامبوديا فيما مضى مركزا هاما للدعوة الاسلامية ، منها انطلقت الدعوة في الشرق الاقصى وجنوب آسيا ، واليوم يعاني المسلمون هناك الموت والابادة .

دولة الامارات العربية المتحدة تدعم الجامعة الاسلامية في سراييفو بيوغوسلافيا

● قررت دولة الامارات العربية المتحدة المساهمة في دعم الجامعة الاسلامية في سراييفو بيوغوسلافيا وذلك بمدها باحتياجاتها من الاجهزة العلمية والدراسية بالاضافة الى دعم الدعوة الاسلامية التي تقوم بها المشيخة الاسلامية اليوغوسلافية بين المسلمين هناك .

وجدير بالذكر انه يوجد اربعة ملايين مسلم في اتحاد الجمهوريات اليوغوسلافية . وقد استطاعوا بناء مائة مسجد في عشر سنوات ، كما لدى المسلمين هناك مدارسهم الخاصة المختلفة بجانب الجامعة التي سيتم افتتاحها في شتنبر القادم .

مليون دولار ونصف لمقاومة تهويد القدس

● قرر المجلس الدائم لصندوق التضامن الاسلامي تخصيص مبلغ مليون ونصف مليون دولار للقدس العربية لمقاومة عمليات التهويد واستيلاء العدو الصهيوني على الاراضي العربية هناك .

كما قرر المجلس رصد مبلغ مليون ونصف مليون دولار لتنشيط ودعم الجمعيات الاسلامية في مختلف انحاء العالم . وقرر مجلس الصندوق كذلك تخصيص 400 الف دولار لمنكوبي الزلازل بتركيا و 250 الف دولار لتمويل لجنة الهدنة الخاصة بوقف اطلاق النار في الفلبين و 100 الف دولار لمساعدة مسلمي جزر القمر .

المغـــــرب :

● انتقل الى رحمة الله تعالى الاستاذ ابجانة عبد القادر الخلادي الذي واكب مجلة دعوة الحق بأبحاثه ومقالاته القيمة في تاريخ الحضارة المغربية منذ سنواتها الاولى .

وشاءت ارادة الله أن يصدر للفقيد كتاب « مؤرخو الشرفا » المترجم عن ليفي بروفنصال قبل وفاته بأيام قليلة . وهو الكتاب الذي كان ينشر فصوله المسلسلة في « دعوة الحق » وصدر عن دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر .

وقد خلفت وفاة الاستاذ عبد القادر الخلادي أثرا عميقا في اوساط المثقفين ورجال البحث والعلم الذين يعرفون قدره ويشيدون بجهوده العلمية في سبيل ازدهار وتطوير الحركة الثقافية في المغرب. رحم الله الفقيد والهم ذويه الصبر والسلوان .

● يواصل الاستاذ قدور الوطاسي اثراءه للمكتبة المغربية بمؤلفات قيمة يصدرها تباعا . وآخر ما صدر له كتاب بعنوان « ذكريات الدراسة في فاس » وهو مذكرات اجتماعية اكثر مما هو ذكريات شخصية ، فمن خلال تسجيله للاحداث والوقائع التي مر بها المؤلف اثناء دراسته بالقرويين في الثلاثينات يبرز صورا مشرقة لتطور الحركة الفكرية والوطنية في المغرب في جوانبها المختلفة . وبذلك جاء الكتاب حافلا باللمحات المركزة التي تكشف لنا اهم مرحلة من مراحل الكفاح الوطني المغربي الذي انطلق اساسا من القرويين وارتكز على المفاهيم الاسلامية .

● دخل الاستاذ السيد عبد اللطيف محمد بمنصور ميدان التأليف والنشر بصدور كتابه : « مجموع ازجال وتواشيح واشعار الموسيقى الاندلسية المغربية المعروف بالحائك » . وهو من الكتب التي تسد فراغا مهما في المكتبة المغربية باعتباره سجلا لاروع ما ابدعته العبقرية المغربية في هذا المضمار .

وقد بذل الاستاذ بنمنصور جهدا علميا شاقا في اعداد وتنسيق وترتيب وتحقيق هذا الكتاب الذي يقع في حوالي 500 صفحة من القطع الكبير .

● صدر عن دار الثقافة ببيروت للدكتور عثمان عثمان اسماعيل كتابان الاول بعنوان « حفائر شالة الاسلامية » والثاني « دراسات جديدة في الفنون الاسلامية والنقوش العربية بالمغرب الاقصى » .

وكان قد صدر للمؤلف من قبل مجلد ضخم عن « تاريخ شالة الاسلامية » .

وسيصدر قريبا للمؤلف ايضا عن دار الكتاب بالبيضاء « اصحاب اسيمنه » وهو سيره ابطال الاسلام في المغرب .

● اصدر الاستاذ احمد الشرقاوي اقبال كتابا بعنوان « مكتبة الجلال السيوطي » وهو سجل لجميع مؤلفات جلال الدين السيوطي .

● كتب الاستاذ عبد الوهاب بنمنصور مؤرخ المملكة مقدمة للكتيب الجديد الذي اصدره الاستاذ ادريس الشرادي بعنوان « المجلس البلدي : الرئيس ، المساعدون » .

● تجري الآن الاستعدادات اللازمة من طرف رابطة علماء المغرب لتصدر جريدة (الميثاق) بانتظام كل اسبوع ..

كما ستعمل الرابطة على اصدار دورية منتظمة لنشر البحوث الاسلامية والمناقشات العلمية .

● وصل الى المغرب كتاب (متن نور الايضاح على مذهب الامام الاعظم أبي حنيفة النعمان) للشرنبلالي الذي اعيد فقط تصويره بالاقسيط ويقع في 80 صفحة .

تـــــونس :

● التطور المذهبي بالمغرب ودراسة قصة (حي بن يقظان) رسالة جامعية بقلم الاستاذ محي الدين عزوز التونسي .

طبع الكتاب بتونس في الحجم المتوسط ، يقع في اكثر من 130 صفحة .

مصـــــر : (رسالة خاصة لدعوة الحق)

● ابرز القضايا التي تشغل حياة مصر الفكرية الآن ، قضية طه حسين . فقد اعيدت قضيته على صفحات المجلات والصحف المصرية مرة ثانية بعد صدور كتاب الاستاذ انور الجندي [طه حسين ـ حياته وادبه في ميزان الاسلام] . هذا الكتاب تقديم آخر في صورة اخرى لطه حسين ، ويكشف الكتاب بالوثائق واقوال الشهود الاحياء موقف طه حسين من عدة موضوعات ابرزها : قضية فلسطين ـ الاسلام ـ مجلة الكاتب المصري ـ التبشير ـ الشعر والشعراء ـ الخ . وقد قامت قيامة الذين يحبون طه حسين وناصروته في مصر ، وبدأت مناقشات طويلة اتسمت بالعنف والحدة في بعض جوانبها . ففي مجلة « الهلال » ملأ الاستاذ « رجاء النقاش » ـ الذي يشرف على تحرير الهلال مؤقتا ـ صفحات طوالا يحاول فيها ان يرد على ما جاء في كتاب الاستاذ انور الجندي ، وان يلتمس المعاذير لبعض سقطات طه حسين ، وسمى ما كتبه بمذبحة طه حسين ـ وفي مجلة « صباح الخير » كتب علاء الدين كلاما لا يتسم بالموضوعية ، وكان الاتهام لشخص المؤلف ، دون ان يحاول الرد الموضوعي على ما جاء في كتابه . وكذلك شاركت « الجمهورية » بمقال قصير كتبه كامل زهيري .

ويبدو ان القضية سيستمر تناولها الى وقت غير قصير ، حيث ان اجهزة الاعلام والنشر قد صورت دائما « طه حسين » في صورة مثالية لا تشوبها شائبة ، فجاء كتاب « انور الجندي » في هذه الآونة التي اتسمت بقدر غير قليل من الحرية ، ليعطي صورة اخرى ستعيد « طه حسين » الى حجمه الحقيقي ، وتحدد مكانته الفكرية والادبية تحديدا موضوعيا .

ومن الجدير بالذكر ان الاستاذ الجندي قد اصدر في الآونة الاخيرة عددا من الكتب الهامة حول « الفكر الاسلامي » منها « المؤامرة على الاسلام » وفيه يعرض بايجاز لتاريخ حركات التآمر على الاسلام والفكر الاسلامي منذ صدر الاسلام حتى العصر الحديث ، ويناقش فيه ايضا ما حاوله البعض من فرض تصور معين لتجديد الفكر العربي يخالف التصور الاسلامي . ومن الكتب الهامة الجديدة للاستاذ الجندي كتاب « مقدمات المناهج » وفيه عرض لتصورات الاسلام عن نواحي الحياة والفكر المختلفة بأسلوب مبسط وواضح . وهذا الكتاب من منشورات « دار الاعتصام » بالقاهرة .

● « موسيقى من السر » احدث ديوان للشاعر الراحل محمود حسن اسماعيل تصدره مكتبة مدبولي بالقاهرة هذا الشهر . يضم هذا الديوان قصائد تتسم بالتأملات العميقة . وقد تناولت حياة الشاعر وشعره العديد من الصحف والمجلات المتخصصة ، وكتب الدكتور عبده بدوي عن « النور » في شعر محمود حسن اسماعيل مقالا مركزا اوضح فيه اهمية النور لفظا ومدلولا في حياة الشاعر وشعره ، وقال : نصل الى ان في شعر محمود حسن اسماعيل نوعا من « السطوع » و « البريق » ، ففي كل قصائده نجد انواعا معينة من النور تترجرج او تثبت في ترسل الخيوط هنا وهناك ، ولعلنا لا نذهب بعيدا اذا قلنا انها تؤثر في ادواته الشعرية ، فما اكثر ما نجد امواجا غزيرة من الموسيقى الاثيرية ، وبريقا في الايقاع وفي القافية ، وقد نجد في بعض الاحيان الشرر المتطاير ، ولعل الاتجاه المسمى الآن في الفن التشكيلي باسم « الكريستالية » يقرب ما اردنا ان نقوله في هذا المجال .

واخيرا فاذا كان الاساس القرآني لمذهب الاشراق هو الآية 35 من سورة النور ، فان الاساس الذي نعتمد عليه في القول بوجود مذهب للاشراق في

الشعر هو شعر محمود حسن اسماعيل .. كل شعر محمود حسن اسماعيل .

وقد أقيم في التاسع من يونيه 77 مهرجان ادبي وثقافي في قرية « النجيلة » مسقط رأس محمود حسن اسماعيل حضره عدد كبير من الادباء والشعراء المصريين ، تكريما للشاعر الراحل .

● انعقدت الجمعية العمومية لاتحاد الكتاب في مصر مساء 4 يونيه 11977 للنظر في ميزانية 76 ومشروع ميزانية 77 والتصديق على اللائحة الداخلية ، وقد رأس اللجنة يوسف السباعي نائب رئيس الاتحاد ، وحضر معه ثروت اباظة سكرتير الاتحاد ، وسعد الدين وهبة امين الصندوق ، وقد بدأت الجلسة بالوقوف حدادا على أرواح الذين توفاهم الله من اعضاء الاتحاد وهم عشرة اعضاء : من بينهم : صالح جودت ، عبد الفتاح شبلي ، وعبد الله شمس الدين .

● « الاسلام دين الجماعة » كتاب جديد صدر في القاهرة . الفه الرئيس الغيني احمد سيكوتوري وترجمه محمد التجاري ، وفيه يتحدث عن الاسلام قولا وعملا وروحا وسلوكا ، وهو يرى الاسلام « تلك الشعلة المتأججة في اعماق المسلم ، وعلى ضوئها يرى الكون والاشياء ، وعلى هديها يسير في كل خطوة وينطلق من كل سلوك » . ان سيكوتوري يركز في كتابه على ضرورة العمل في الاسلام واصرار الاسلام على الدعوة الى العمل . وفي ثنايا الكتاب يشير سيكوتوري الى انشاء المجلس الاسلامي الوطني لغينيا ويتحدث عن المهام التي انشيء من اجلها .

● صدرت للدكتور مصطفى الشكعة عميد كلية الآداب « عين شمس » الطبعة الخامسة من كتابه « اسلام بلا مذاهب » ويناقش عددا من الموضوعات مثل : « الاسلام دين الفطرة ، وسماحة الشريعة الاسلامية ، والشورى ، والمرأة في الاسلام » .

● نوقشت في « دار العلوم » جامعة القاهرة رسالة دكتوراه مقدمة من سوسن محمد نصر الى قسم التاريخ موضوعها « الملوك الثلاثة اولاد العادل الايوبي » .

● « حصاد العقل في اتجاهات المصير الانساني » كتاب جديد للمستشار محمد سعيد العشماوي ، صدر عن دار الكتاب اللبناني في بيروت ، ويتحدث فيه عن القضايا الانسانية المعاصرة وموقف الاسلام ازاءها ، وينتهي الى عدوية الفكر الشيوعي ، والوضعي عموما .

● انتخب المذيع المصري احمد فرج اميناً عاما لمنظمة اذاعات الدول الاسلامية ، وقد وصل الى جدة في المملكة العربية السعودية بعد انتخابه بالاجماع لهذا المنصب في اجتماع الجمعية العمومية في ابي ظبي . والمعروف ان المنظمة تضم 42 دولة اسلامية وتعمل على التنسيق بين الاذاعات الاسلامية وتبادل وانتاج البرامج ، ومن مشروعاتها اطلاق قمر صناعي ينقل برامج هذه الدول . اشتهر احمد فراج بين المصريين ببرنامجه المختار « نور على نور » الذي كان يقدمه في التلفزيون المصري .

● تنشر مجلة « اكتوبر » المصرية في حلقات كتاباً قديماً ولكنه هام عن اليهود في قواعد التلمود وقد صدر منذ ثمانين عاما ، وترجمه عن الفرنسية يوسف نصر الله . ويضم الكتاب كتابين اولهما مختارات من كتاب التلمود اليهودي الذي يتحدث عن جوهر الديانة اليهودية واحتقارها لكل الناس وكل الاديان . وثانيهما حكاية القصة الفروعة التي قتل فيها اليهود احد رجال الدين المسيحيين في سورية وصنعوا من دمه خبزا ، وهي عادة يهودية قديمة ، ارتكبوها في سورية وفي مصر وفي كل البلاد التي عاشوا فيها .

● « الفصول والغايات » لابي العلاء المعري صدر عن هيئة الكتاب بالقاهرة في سلسلة جديدة باسم « كتاب التراث » . والكتاب من تحقيق محمود رتاتي .

شهريات الفكر والثقافة

● « بيوت الله » كتاب جديد لمأمون غريب يتناول فيه تاريخ مصر سياسيا واجتماعيا واقتصاديا منذ الفتح الاسلامي الى العصور الحديثة وذلك من خلال استعراضه لبيوت الله العظيمة .

● حصل الشاعر علي علي الفلال على جائزة مجمع اللغة العربية لهذا العام عن « سعد زغلول خطيبا وكاتبا واثره فى البيان العربي » .

● (حضارة الاسلام وحضارة أوربا فى افريقيا) كتاب صدر للاستاذ نعيم خدام السوري ، وهو من الخبراء فى الشؤون الافريقية .

جاء فى الكتاب ما يلي :

« ... ان الاسلام قد استطاع كحضارة راقية ان يثبت وجود المدنية الافريقية وان يطورها ... »

ويبحث ايضا فى الطرق الدينية فى غرب افريقية (التجانية والعمرية والمريدية

● صدر عن (دار الاسلام) بالقاهرة كتاب : (ابراهيم بن ادهم شيخ الصوفية) للدكتور عبد الحليم محمود شيخ الازهر

الكتاب فى اخراج جميل يقع فى 154 صفحة.

● « امير المسلمين يوسف ابن تاشفين قاهر الصليبيين فى الغرب وموحد المغرب والاندلس » كتاب جديد صدر فى مصر للاستاذ ابراهيم محمد حسن الجمل ضمن سلسلة (مطبوعات الشعب)

الكتاب من الحجم ما دون المتوسط يقع فى : 227 صفحة تتناول الحقيقة التاريخية (400 هـ / 500 هـ) .

● صدر للكاتب الاسلامي عبد الرزاق نوفل كتاب جديد بعنوان « يوحنا المعمدان (النبي يحيى عليه السلام) » .

● « خطى مشيناها » آخر اعمال عباس خضر الادبية ، صدر ضمن سلسلة « اقرا » .

● « ايام العرب قبل الاسلام » سلسلة ثقافية جديدة تضم 14 كتابا فى ادب الاطفال لمؤلفيها وصفي آل وصفي وابراهيم يونس .

السعودية :

● (الغزو الفكري فى العالم العربي) صدر ضمن (المكتبة الصغيرة) عن احدى الدور السعودية ويقع فى حوالي مائة صفحة للاستاذ عبد الله عبد الجبار .

● « على ربا اليمامة » ديوان للشاعر السعودي عبد الله بن خميس عضو المجمع اللغوي فى القاهرة.

العراق :

● قدمت الحكومة العراقية عشر منح لطلاب مدينة قرطبة لكي يتمكنوا من دراسة اللغة العربية وادابها فى كلية الآداب التابعة لجامعة بغداد .

وقد اطلعت سفارة العراق بمدريد السلطات الاسبانية على هذا الامر .

اسبانيا :

● يقوم البروفسور « فرناندو ماتيوس باكا » والاستاذ فى الجامعة الوطنية بتيوان ـ جمهورية الصين الوطنية ـ بطبع قاموس صيني ـ اسباني مشكل من 6030 كلمة قديمة وحديثة .

● عاد واحد من فحول الشعراء الاسبان رفائيل البرتي الى بلاده بعد غياب ثلاثة وثلاثين عاما قى المنفى ، اولا فى الارجنتين واخيرا فى روما حيث استقر .

وقد اهتمت اجهزة الاعلام اهتماما بالغا برافائيل البرتي وخصصت له تعليقات عديدة ومقالات اذاعية وتلفزيونية . وقد برزت فى جميعها شخصية البرتي الشاعرية التي تعتبر من أبرز رجالات جيل 1927 وبينهم شعراء بارزون امثال غرسية لورقة وخورخي غليين والكسندري وسرتودا وخيراردو دياغو وبدره سالبناس .

● بمناسبة مرور 361 سنة على وفاة ميغيل سرفنتس احتفل فى جميع انحاء اسبانيا بيوم الكتاب

احتفل بيوم الكتاب لاول مرة عام 1926 ، وقد اعتبر هذا اليوم منذ ذلك الحين وسيلة فعالة للاتصال ما بين الافكار والمشاعر والانتاج الادبي ، وقد تقرر الاحتفال به على الصعيد الاكاديمي والجامعي والمدرسي سواء كان فى التعليم الرسمي أو التعليم الخاص ، وفى الثكنات العسكرية كما فى قواعد الاسطول البحري . وكانت شوارع مدريد مسرحا للمعروضات من الكتب فى ثلاثمائة نقطة للبيع بطريقة رسمية ، وقد بيعت الوف من الكتب على اختلاف انواعها .